مجلة إسلامية شهرية جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة الخامسة والعشرون . العدد ٢٧٧ . رمضان ١٤٣١ هـ . أغسطس/سبتمبر ٢٠١٠ م

من الحكمة:
أن تنزل من العربة في الوقت المناسب

(التطهير) العرقي في فلسطين

الحَراك السياسي والثقافي في المرحلة الراهنة

عَلمنة الأحكام الشرعية

القلق الفكري

وقفات شرعية

مع تهمة الإبادة الجماعية

الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم في بريدة
ألق في سماء الخيرية

تواصلنا خدمةً لكتاب الله تعالى:
القصيم - بريدة
شارع التغيرة - شمال مجمع الدوائر الشرعية
ص.ب ١٨٢٣ مقسم: ٠٦٣٢٣٧٧٨١ فاكس: ٠٦٣٢٤٨٠٧٠
إدارة العلاقات العامة والإعلام

لاستقبال تبرعاتكم
ت: ٠٦٣٢٦٩٩٩٩ - جـ: ٠٥٥٣٢٦٩٩٩٩
مصرف الراجحي ٢١٢٦٠٨٠١٠٠٤٥١٠٦
البنك الأهلي ٣٩١١٣٦٢١٠٠٠١٠٠
بنك الرياض ٦١١٠٣٤١١٥٩٩٠٦

سعر العدد: السعودية ١٠ ريالات . الكويت ٨٠٠ فلس . مصر ٥ جنيهات . المغرب ١٢ درهماً . قطر ١٠ ريالات . اليمن ١٥٠ ريالاً . السودان ٢٠٠ دينار . سلطنة عُمان ٨٠٠ بيزة . الأردن ٧٥ فلس . الإمارات العربية ١٠ دراهم . البحرين دينار واحد . فلسطين نصف دولار أمريكي

مستشفى أبها الخاص
ABHA PRIVATE HOSPITAL

توفير عناء السفر إلى الخارج

وحدات متخصصة في خدمتكم

- وحدة طب وجراحة المخ والأعصاب
- وحدة جراحة العظام والعمود الفقري
- وحدة جراحة التجميل وشفط الدهون
- وحدة جراحة الكلى والمسالك البولية
- وحدة الجراحة العامة والمناظير
- وحدة الأنف والأذن والحنجرة
- وحدة الأمراض الباطنية والمناظير
- وحدة طب وجراحة العيون
- وحدة النساء والولادة
- وحدة الأطفال وحديثي الولادة
- وحدة جراحة الأطفال
- وحدة الجلدية والتناسلية
- وحدة الأمراض الصدرية
- وحدة العلاج الطبيعي والتأهيل
- وحدة أمراض الكلى
- وحدة السمنة والسكري
- وحدة الطب النفسي
- وحدة أمراض القلب والشرايين
- وحدة علاج الروماتيزم والمفاصل
- وحدة طب وجراحة الأسنان
- وحدة العناية المركزة
- وحدة أمراض الشرج والمستقيم

جهاز الليزر الأخضر KTP
لإستئصال تضخم البروستاتا

جهاز ديناميكية التبول

جهاز الموجات الصوتية
رباعي الأبعاد

جهاز ديكسا DEXA لقياس هشاشة العظام

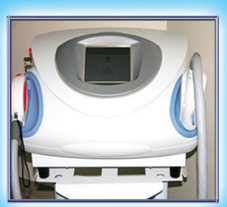
أحدث أجهزة الأمراض الجلدية

جهاز قياس جهد القلب

جهاز الأشعه تحت الحمراء لعلاج البواسير

وحدة الطوارئ واستقبال الحوادث والأشعة التشخيصية والمختبرات الطبية
على مدار ٢٤ ساعة

www.aph.med.sa

أبها – شمال الخطوط السعودية هاتف : ٢٢٩٢٢٢٢ فاكس : ٢٢٤٤٨٠١ ص ب : ١٧٩٤

أول جوال عربي لتحليل الأخبار

جوال فكر

أول جوال في العالم العربي يقدّم لك التحليل العميق للأخبار وفق فكر أصيل ينشد مصلحة الأمة ويكشف ما وراء الخبر .. ويزودك بمصداقية بالأخبار ذات الأبعاد ويصوغ رؤية أصيلة ترى بها الأحداث .

STC الا تصالات السعودية

للاشترا ك : أرسل ج إلى 807200 إتصالات

وقريبا بإذن الله : موبايلي وزين

موبايلي mobily

zain

الجمهورية اليمنية

وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل

مؤسسة التقوى الخيرية

دليلك إلى الخير

مبارك عليكم الشهر الكريم

مؤسسة التقوى الخيرية مؤسسة تعليمية دعوية اجتماعية خيرية تأسست عام ١٤١٨هـ الموافق ١٩٩٧م ومقرها الرئيس محافظة الحديدة – مديرية بيت الفقيه – ثم بارك الله في جهودها فاتسع نطاق عملها ونشاطها ، لتشرق شمسها على ربوع عدد من المحافظات اليمنية والحمد الله على فضله وتوفيقه .

زكى المؤسسة نخبة من العلماء والشخصيات الاجتماعية والمؤسسات الحكومية ومن أبرزهم وزارة الشئون الاجتماعية والعمل بمحافظة الحديدة، والشيخ القاضي/ محمد بن اسماعيل العمراني والشيخ/ عبدالمجيد الزنداني والشيخ/ عبدالمجيد الريمي والشيخ/ فريح بن علي العقلا والشيخ الدكتور/ عبدالعزيز بن محمد آل عبداللطيف والشيخ الدكتور/ عبدالرحمن بن صالح المحمود.

للتواصل:

الجمهورية اليمنية - محافظة الحديدة - مديرية بيت الفقيه

ص.ب: (٤٥٠٩٢) هاتف: ٣٣٣٢١٦ ٣ (٩٦٧+)

فاكس: ٣٣٣٢١٧ ٣ (٩٦٧+)

E.mail: Altaqwa11@yemen.net.ye

WWW.Taqwayemen.Org

Designed By: 3Maxye.com (+967) 711237484

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

الإخراج الفني
خالد حسن عمارة

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan-magazine.com

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA1380000296608010021007

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
هاتف خدمة العملاء مباشر: ٢٢٥١٩٦٧
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٢٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة : شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص.ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥

الافتتاحية

٦ «دان براون» ربيب الفاتيكان
التحرير

العقيدة والشريعة

٨ وقفات شرعية مع تهمة الإبادة الجماعية
إبراهيم بن عبد الله الأزرق

الغرب: قراءة عقدية

١٦ هل ذُكِرَ اسم «محمد» ﷺ في أسفار أهل الكتاب؟ (٢ - ٢)
فيصل بن علي الكاملي

قضايا دعوية

٢٠ مبادئ الدعوة في قصة أصحاب القرية
دخيل عبد الله الدخيل

قضايا تربوية

٢٤ بيت العنكبوت
حامد مسوحلي الإدريسي

معركة النَّص

٢٦ علمنة الأحكام الشرعية
فهد بن صالح العجلان

تحقيقات

٢٨ بين «انتفاضة السفن» غزة على أبواب كسر الحصار
علا عطا الله

حوار

٣٢ حوار مع الشيخ فتحي عثمان
أجرى الحوار: جلال الشايب

قصة قصيرة

٣٨ أبو دعاس... يعود من جديد!
عبد الغني عبد الهادي

المسلمون والعالم

٤٢ التطهير العرقي في فلسطين (بين شهادات المنصفين وسجلات المؤرخين)
أنور محمود زناتي

٤٨ فَقْر المياه... حربٌ صهيو - إفريقية على مصر
ممدوح إسماعيل

٥٢ الحرية الفلسطينية عن طريق القوافل
د. محمد مورو

٥٤ من الحكمة: أن تنزل من العربة في الوقت المناسب
د. يوسف بن صالح الصغير

٥٦ الشيخ ماجلان في بحار الأديان
أحمد فهمي

٥٨ مرصد الأحداث
جلال الشايب

عين على العدو

٦٤ ماذا يقف خلف الارتفاع الحاد في نسبة الجنود الصهاينة «المنتحرين»؟
د. عدنان أبو عامر

في دائرة الضوء

٦٦ البلد الطيب... وأرض الدماء
أ. د. عبد الحليم عويس

قضايا فكرية

٧٢ الحَراك السياسي والثقافي في المرحلة الراهنة
أمين الدميري

تاريخية

٧٤ الفرق الباطنية: المنهاج والتاريخ
أ. د. محمد أمحزون

الورقة الأخيرة

٧٦ القلق الفكري
أحمد بن عبد الرحمن الصويان

[كلمة صغيرة]

استبداد صامت!

المسلمون في الصين أقلية مضطهدة يتجاوز عددهم في أقل التقديرات (٢٥ مليون) نسمة، يتركزون خصوصاً في إقليم تركستان الشرقية (سينغ يانغ).

وقد سعت الحكومات الصينية المتعاقبة إلى طمس الهوية الدينية والتاريخية لمسلمي الصين، وتذويبهم اجتماعياً وثقافياً في المجتمع الصيني، وعملت على تغيير التركيبة السكانية في مناطقهم. وحققت نجاحات عديدة في هذا السياق، لكن - وبفضلٍ من الله تعالى - ما زالت الهوية الإسلامية متجذرة وحاضرة بقوة عند المسلمين هناك؛ ولهذا كانت الحكومات الصينية تمارس اضطهاداً منظماً لانتهاك حقوق المسلمين، ومصادرة حرياتهم، والتضييق على أنشطتهم ومشاريعهم، بل يتعرضون في أوقات مختلفة إلى إبادة جماعية تستهدف وجودهم، وتستأصل علماءهم وأئمتهم ودعاتهم.

يحدث هذا الاستبداد الصيني والمسلمون في غفلة مفرطة؛ فالتواصل الدعوي والتعليمي والاجتماعي - فضلاً عن الدعم السياسي - ضعيف جداً مع مسلمي الصين؛ واللافت للنظر أن أمريكا والاتحاد الأوروبي يدعمون بقوة مطالب التبت ذات الأغلبية البوذية، ويمارسون ضغوطاً سياسية واقتصادية على الحكومة الصينية لتحقيق مطالبهم الانفصالية.

إنَّ مسلمي الصين أمانة في أعناقنا، ولا يجوز خذلانهم أو التقصير في نصرتهم، ويجب على الحكومات والمنظمات والجمعيات الإسلامية أن تعطي ذلك أولوية في برامجها؛ إذ المؤمنون «في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»، رواه مسلم.

«دان براون» ربيب الفاتيكان

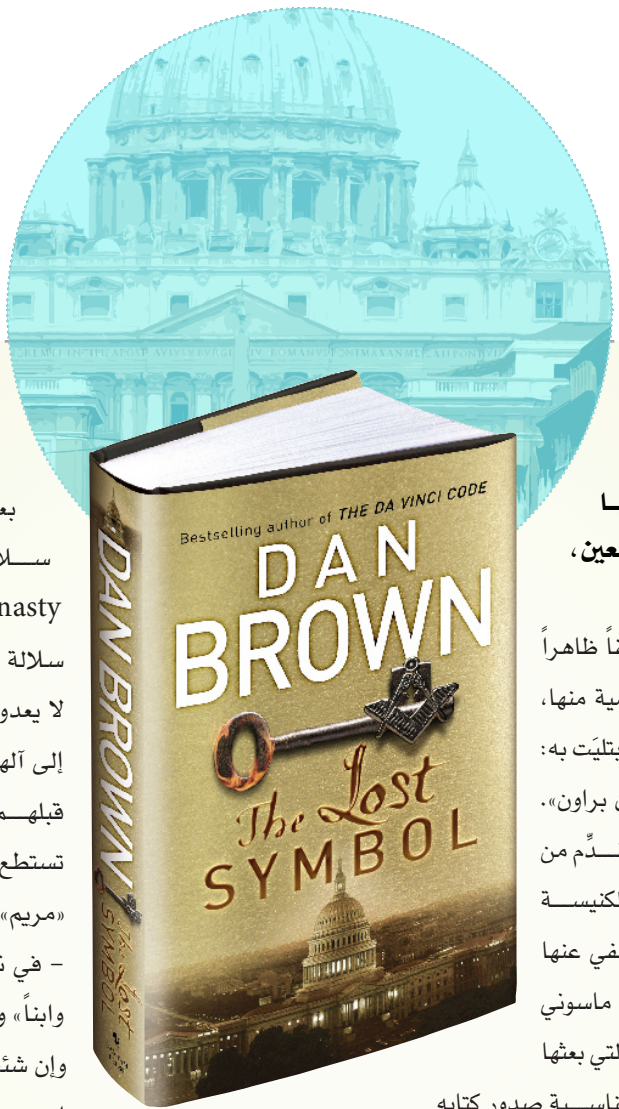

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد.

تعاني المكتبات العربية تألُّقاً ظاهراً في الكتب الباطنية؛ سواء العلمية منها، أم الروائية. ومن أشهر ما ابتليَت به: روايات الكاتب الأمريكي «دان براون». ولا ريب أن هذا الكاتب يقدِّم من خلال رواياته خدمات جليلة للكنيسة الكاثوليكية تبرر عقائدها وتنفي عنها تهم القائلين بالمؤامرة؛ فالرجل ماسوني المعتَقَد كما يتبين من رسالته التي بعثها إلى أحد المحافل الماسونية بمناسبة صدور كتابه الأخير «الرمز المفقود».

وأول روايات «براون» ظهوراً على الساحة العربية روايته الشهيرة «شيفرة دافينتشي» The Da Vinci Code التي حاول من خلالها أن يغرس في ذهن القارئ أن المسيح – عليه السلام – تزوج مريم المجدلية التي فرَّت بعد «صلبه» إلى فرنسا وأن سلالتهما «الميروفِنجية» The Merovingian Dynasty هي سلالة ملوك الروم في أوروبا. وهذا لا يعدو محاولة بائسة لنسبة الأبطال إلى آلهتها – كما فعل الوثنيون من قبلهم – وتلفيقاً للجانب الذي لم تستطع الكنيسة الجهر به من كون «مريم» و«عيسى» – عليهما السلام – في نظر الكنيسة الرومية «أماً وابناً» و «زوجة وزوجاً» في آن معاً. وإن شئت فقل: هما مجرد رمز لعبادة «إيزيس وحورس» أو «بعل وعشتار». فالثالوث المصري الذي كان يتألف من الأب «سِب» والأم «إيزيس» والابن «حورس» انتقل إلى الفاتيكان على صورة الأب «الآب» والأم «مريم» والابن «يسوع».

ثم ظهـــرت رواية «ملائكة وشـــياطين» Angels and Demons التي صـــوَّر فيها الكنيســـة الكاثوليكية بصورة الحَمَـــل الوديع فـــي مواجهة الحركـــة الباطنيـــة المعروفة بالإلوميناتي وهي التي تســـعى للقضاء على الفاتيكان! وهذا كلـــه من التزييف التاريخي؛ فمن المعلوم أن مؤســـس تنظيم الإلوميناتي «المتنورين» البافاريِّ الألمانيِّ المنشأ هو اليسوعي الكاثوليكي «آدم وايســـهاوبت». وهذه الحقيقة أقرَّتها «دائرة المعارف البريطانية عام (١٩١٠م) بقولها:

الإلوميناتـــي [المتنورون]... تأسســـت في الأول من مايو عام ١٧٧٦م على يد «آدم وايســـهاوبت» (ت. ١٨٣٠م) أستاذ القانون الكنسي بـ «إنجولشتات»، ويسوعي سابق[١].

لكن الفاتيكان أرادت أن تتستر على هذه الحقيقة فأعلنت عام ٢٠٠٨م في مقال نشـــرته صحيفة التايمز[٢] أنها تعترض على رواية «ملائكة وشـــياطين»؛ لأنها «قلبت الأناجيل رأســـاً على عقب لتبث ســـمومها فـــي الدين». وأضاف الأســـقف «فيلاســـيو دي باولس» بأن الفاتيكان لن تسمح بتسجيل فيلم لهذه الرواية على أرضها. وصدَّق الناس هذه الأكذوبة من قِبَل رجال الكنيســـة الكاثوليكية. ثم فوجئ الناس في عام ٢٠٠٩م بصدور فيلم «ملائكة وشـــياطين» تكذيباً لمزاعم الكنيسة قبل ذلك بعام، وجرت أحداثه في أعماق الفاتيكان بصورة لا يمكن معها الشك في مباركة الفاتيكان لذلك العمل.

وها هي أســـواقنا تروِّج ثانية للرواية الأخيرة التي كتبها «دان بـــراون» بعنوان «الرمز المفقود» التي بيع منها في اليوم الأول مليون نســـخة ما بين كتاب ونسخة إلكترونية. والكتاب يركز على الماسونية وأسرارها في واشنطن، لكنه لا يتعرض للكنيســـة الكاثوليكية؛ وكأن الأمر لا يعنيها. مع أن «نِســـتا وِبســـتر» في كتابها «الجماعات السرية» تنقل عن الماسوني «بارون تشودي» قوله:

«إن الأصل الصليبي للماســـونية هو ما يُدرَّس رســـمياً في المحافل؛ حيث يُعلَّم المرشـــح لدخول التنظيم أن العديد من الفرســـان الذين كانوا قد خرجوا لإنقاذ البقاع المقدسة في فلسطين من أيدي المسلمين «شـــكلوا اتحاداً تحت اسم البنائين الأحرار [الماســـون] مشـــيرين بهذا إلى أن رغبتهم الأساسية كانت إعادةَ بناء هيكل سليمان»[٣].

فالماسونية رومية كاثوليكية صليبية كما يقر بذلك الماسون أنفسهم. فالماســـوني «ألبرت ماكي» يعترف في موسوعته أنه «كان ثمة بين الماسونية والحملات الصليبية علاقة أكثر حميمية مما يُتصور عادة»[٤]. فلا غرابة إذن في أن نجد الماســـوني «دان براون» يدافع عن معقِل دينه وعقيدته، الفاتيكان.

مثل هذا ما صرحت به الفاتيكان من اعتراضها على صدور أحد الأفلام الأمريكية المسمى «التجَسُّد» وهو الذي يعد ترويجاً صارخاً لعقيدة تناسخ الأرواح وأن الطبيعة هي الإله[٥]. لكن المطَّلع على عقيدة الكنيســـة الكاثوليكية يجدها منغمســـة في العقائد الباطنية، بل لقد صرح بعض آباء الكنيســـة القدامى – أوريجن (١٨٥ – ٢٥٤) على ســـبيل المثال – بقبوله لمعتقد تناسخ الأرواح الذي تتظاهر الكنيسة اليوم بالتحذير من رواجه.[٦]

إن مسارعة الفاتيكان إلى نقد ما يُنشَر من الكتب والأفلام التي تروج للباطنية وعقائدها من القول بتناسخ الأرواح وعبادة الكواكب ونحوها محاولةٌ لإبعاد التهمة عنها، لكنه لدى المتأمِّل لحالها أشـــبه بقول القائل: «كاد المريـــب أن يقول: خذوني». فالكنيسة الكاثوليكية اشتُهِرَت عبر تاريخها بهذه الازدواجية في التعامل مع القضايا فلا يغترَّنَّ مسلم بما تقوله عن نفسها أو يقوله أتباعها عنها؛ فالأمر أعمق من ذلك بكثير.

وفي الجانب الآخر فعلى المكتبـــات العربية أن تتقي الله وأن تتورع عن تســـويق عقائد الباطنيين كالـ «يوجا» و «قانون الجذب» والسحر وغيرها عن طريق الروايات المضلة كروايات «هاري بوتر» التي تشغل حيزاً من مكتباتنا بينما حظرتها بعض المدارس الأجنبية معلِّلة ذلك بأنها تنشـــر الســـحر والشعوذة بين الأطفال[٧]؛ فهل أصبحنا تبعاً للغرب حتى في دفاعنا عن عقيدتنا؟

(1) Chisholm, Hugh. Ed. The Encyclopedia Britannica (1910) vol. XIV, p. 320.
(2) http://www.timesonline.co.uk/tol/comment/faith/article4147839.ece

(3) Webster, Nesta. Secret Societies and Subversive Movements, p. 154.
(4) Mackey, Albert. Encyclopedia of Freemasonry (Philadelphia: Moss & Company, 1874), p. 198.
(5) http://www.cbc.ca/arts/film/story/2010/01/12/avatar-vatican.html
(6) Macgregor, Geddes. Reincarnation in Christianity: A New Vision of Rebirth in Christian Thought (Quest Books, 1989), p. 48.
(7) http://news.bbc.co.uk/2/hi/uk_news/education/693779.stm

وقفات شرعية مع تهمة الإبادة الجماعية

إبراهيم عبد الله الأزرق

صدر أمر المحكمة الجنائية الدولية القاضي بمثول رئيس دولة إسلامية مسلم أمامها للمحاكمة على تُهَم بجرائم ضد الإنسانية وجرائم حرب، مع أن تلك الدولة - وفي عهد هذا الرئيس المطلوب للمحاكمة - لم ترضَ المصادقة على ميثاق المحكمة ونظامها الطاغوتي.

وقد كان من آخر تلك التهم المثبتة بعد إسقاطها ثم استئنافها: تهمة الإبادة الجماعية.

وفي هذه العُجَالة أربع وقْفَات شرعية يَحسُن التنبيه إليها في مثل هذا المقام:

الأولى: في بيان بعض ما في نظام روما من التناقض، والمقام لا يتسع إلا لعرض نُتَفٍ يسيرة، وسوف أقتصر على شيء له تعلُّق بالموضوع.

والثانية: في بيان بعض ما في نظام روما بخصوص تهمة الإبادة الجماعية من المناقضة لحكم الله.

والثالثة: حكم تسليم مسلم إلى تلك المحكمة وأمثالها.

والرابعة: حكم الترافع والدفع بالبراءة إذا اضطر مسلم للتحاكم إليها.

الوقفة الأولى: مع بعض تناقضات المحكمة:

جاء في ديباجة النظام ما نصه: «وإذ تؤكد [الدول الأطراف في نظام روما الأساسي للمحكمة] من جديد مقاصد ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة، وبخاصة أن جميع الدول يجب أن تمتنع عن التهديد باستعمال القوة، أو استعمالها ضد السلامة الإقليمية أو الاستقلال السياسي لأية دولة، أو على أي نحو لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة، وإذ تؤكد في هذا الصدد أنه لا يوجد في هذا النظام الأساسي ما يمكن اعتباره إذناً لأية دولة طرف بالتدخل في نزاعٍ مسلَّح أو في الشؤون الداخلية لأية دولة»[1].

هذا النص بالإضافة إلى ما فيه من معارضة ظاهرة لتشريع الجهاد في الإسلام، وما يتضمنه من دعوة مجملة إلى إنماء علاقات ودِّية هي محل تفصيل: فإن فيه تناقضاً مع واقع المحكمة في

(١) انظر: نظام روما الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية، ص3، وفي موقع المحكمة نسخة منه على الرابط:
www.icc-cpi.int/NR/rdonlyres/ADD16852-AEE9-4757-ABE7-9CDC7CF02886/140176/**Rome_Statute_Arabic**.pdf

وما بين القوسين الكبيرين مقحم للتوضيح.

القضية؛ فإن أَمْرَ رئيس أي دولة أثناء مدة ولايته الجارية بالمثول للمحاكمة، واتهامه بالإبادة ونحوها من الجرائم الكبيرة، لا يمكن أن يكون إلا بتهديد السلامة الإقليمية أو الاستقلال السياسي لتلك الدولة، ولا يمكن كذلك أن ينسجم مع مقاصد الأمم المتحدة الرامية - حسب ما جاء في ديباجة ميثاقها - إلى: «أن نعيش معاً في سلام وحُسْن جوار، وأن نضم قوانا كي نحتفظ بالسلم والأمن الدوليين، وأن نكفل بقبولنا مبادئ معيَّنة ورسم الخطط اللازمة له ألاَّ تُستخدَم القوة المسلحة في غير المصلحة المشتركة»[1]، ومن مقاصد الأمم المتحدة - حسب ما جاء في ميثاقها -[2]:

- حفظ السلم والأمن الدوليين.
- إنماء العلاقات الودية بين الأمم.
- تحقيق التعاون الدولي على حل المسائل الدولية ذات الصبغة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإنسانية.

فهل أَمْر المحكمة باعتقال الرئيس البشير ينسجم مع هذه المقاصد على فَرْض مشروعيتها جميعها؟

فكيف إذا كان لا ينسجم مع ما أنشئت لأجله المحكمة؟ فهي إنما أنشئت لتكون مكمِّلة للاختصاصات القضائية الجنائية الوطنية[3]، لا معارِضة لها أو بديلة عنها، كما في حالة الرئيس عمر البشير.

ومن التناقضات الإجرائية التي يكفلها نظام روما، إتاحتُه الحرية للمدعي العام وكذا المحكمة للنظر فيما يشاء من القضايا والتنقيب عنها، والإعراض عمَّا يشاء وإن كانت مثلها أو أشد منها؛ فإن نظام المحكمة ينص على أن للمحكمة أن تمارس اختصاصها، ولاحِظْ أنه ليس في هذا إلزام لها بممارسته، لكنه أمر جائز لها، وذلك في حالات ثلاث[4]:

١ - إذا أحالت دولة طرف في ميثاق المحكمة جريمة من الجرائم التي تقع في اختصاصها.

٢ - إذا أحال مجلس الأمن متصرفاً بموجب الفصل السابع.

٣ - إذا كان المدعي العام قد بدأ التحقيق مباشرة من تلقاء نفسه.

ففي هذه الحالات يجوز للمحكمة أن تتولى التحقيق والادعاء، فإذا تركت المحكمة - مثلاً - متابعة قضية متعلقة بإسرائيل، وأعرضت عن إحالتها إلى مجلس الأمن، فلا حرج عليها وَفْقَ القانون، وكذا لو نشط مدَّعيها للتنقيب بِضْعَ سنوات متواصلة من أجل إثبات تُهَم ملفَّقة في حق الرئيس عمر البشير - مثلاً - ثم تحمَّست المحكمة للإلزام بموجب ما سبق ذكره، أو بالإرجاع إلى مجلس الأمن من أجل الإجبار - كما في حالتنا - فلا حرج عليها. ولا عجب فذلك مقتضى ميثاق العدالة الدولية.

وكذلك إذا اختار المدعي العام أن يتحرك في قضية مثل قضية البشير تحركات سياسية وإعلامية من أجل تثبيت الإدانة عليه، وخَمُل عن القيام بأدنى حركة إزاء قضايا أخرى كان ذلك من حقه، وهو عمل بمقتضى العدالة التي يقضي بها القانون.

ومن التناقضات في قرار المحكمة، تفسير قضاة الدائرة التمهيدية مقررات مجلس الأمن الذي هو أحد أجهزة الأمم المتحدة بما لا يتفق مع مبادئها، ومن ذلك في قضيتنا ما حاول إيهامَه أكثرُ من تصريح حاولت فيه المحكمة الجنائية ممثَّلة في مدعيها أو بعض متحدثيها أن تقنع كل الدول بوجوب تسليم البشير في حال زيارته لأراضيها، حتى إن لم تكن تلك الدول مصادِقة على نظام روما الأساسي لمحكمة الجنايات الدولية. وحجتهم في ذلك قرار مجلس الأمن (١٥٩٣) - وهو ملزم للدول الأعضاء في الأمم المتحدة - الذي حث جميع الدول على أن تتعاون تعاوناً كاملاً مع المحكمة ومدعيها. وهذا ما ذكرته لورنس بلارون المتحدثة باسم المحكمة عندما حثَّت دولة قطر على توقيف الرئيس عمر البشير قبيل قمة الدوحة الماضية، وكان مما قالته آنذاك: «ليست (قطر) دولة عضواً في ميثاق روما (النص المؤسس للمحكمة الجنائية الدولية)، لكنها عضو في الأمم المتحدة»، وذكَّرت أن: «قرار مجلس الأمن يطالب كل الدول بالتعاون مع المحكمة وهو ما ينسحب على قطر»[5].

ومن التناقضات في قرار المحكمة تفسير قضاة الدائرة التمهيدية مقررات مجلس الأمن الذي هو أحد أجهزة الأمم المتحدة بما لا يتفق مع مبادئها

وهذه الحجة المترددة بين جنبات الأروقة الغربية المختلفة تَرُد عليها إشكالية كبيرة؛ وهي أن الدول الأعضاء في الأمم

(1) من ديباجة ميثاق الأمم المتحدة، ص٤. انظر الميثاق على رابط الأمم المتحدة التالي:
http://www.un.org/arabic/aboutun/charter/un_charter_arabic.pdf

(٢) ص٥.

(٣) نظام روما، ص٤.

(٤) انظر: ميثاق روما، المادة (١٣).

(٥) نُقل عبر وكالات الأنباء منها على سبيل المثال:
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/7C3AD076-47C7-4C36-A4FB-7E680FF8C1E2.htm

المتحدة لا يحق لها بموجب ميثاق الأمم المتحدة أن تستخدم القوة في المساس بالاستقلال السياسي لأية دولة[1]، وعليه فالتعاون الكامل الذي أمر به مجلس الأمن يجب أن يفسَّر بما يتفق مع مبادئ الأمم المتحدة؛ أي أن يكون تعاوناً في التحقيق وجمع الأدلة والوصول إلى الحق في القضية، ونحو ذلك إذا تعلق بشخصيات ليست لها حصانة سياسية. أما اعتقال رئيس دولة بينها وبين قطر معاهدات من جملتها معاهدات الدفاع العربي المشترك فلا، ومتى خرج تفسير التعاون عن المذكور كان باطلاً مطعوناً فيه بالخروج عن التخصص؛ فتخصُّص مجلس الأمن حفظ السلم والأمن الدوليين لا تسليم المتهمين بجرائم، ولا سيما إن كان هذا التسليم قد يضر بالأمن والسلم في المنطقة، وإن قُدِّر أن اعتقال البشير يخدم الأمن والسلم الدوليين – تعسفاً – فإن ذلك من اختصاص مجلس الأمن، والقوات المشكَّلة من قِبَله هي المخولة بالتدخل وَفْقاً للبند السابع لا من اختصاص دولة من الدول الأعضاء في الأمم المتحدة.

هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: فإن خطاب المتحدِّثة باسم المحكمة الجنائية الموجه لدولة قطر الحاثَّ لها على المساعدة في توقيف البشير، يفتقر إلى الإجراءات القانونية؛ إذ لا يحق للمحكمة مخاطبة دولة قطر بتسليم شخص إلاَّ عن طريق تقديم طلب مشفوع بالموادِّ المؤيدة له[2].

ومن جهة ثالثة: لا يُقبل – وَفْقاً لنظام روما – أن تخاطب المتحدثة دولةً دعت الرئيس البشير إليها بصفة تؤكد اعتبار منصبه وحصانته؛ فهذا في العرف الدولي بمثابة معاهدته على اعتبار حصانته، ويتأكد هذا مع كون قطر ليست عضواً من أعضاء المحكمة الجنائية، بل لم توقِّع قطر فضلاً عن أن تصادق على ميثاق روما للمحكمة[3]، فإن كان ثمة من يخاطب دولة قطر فهو مجلس الأمن بعد أن ترجع إليه القضية من المحكمة الجنائية، ويجب أن يخاطبها بما لا يُخِل بالأمن والسلم الدوليين.

ومن جهة رابعة: هل يحق للدول العربية المصادِقة على نظام روما – وهي الأردن وجيبوتي وجزر القمر – بل حتى غيرها الاستجابة لطلب التسليم للمحكمة الجنائية؟

الذي يظهر أن هذا محل إشكال من حيث المشروعية القانونية فيما يتعلق بالرؤساء والشخصيات ذات الحصانة.

فوَفْقاً لميثاق روما إنما يكون الامتثال وَفْقاً للقوانين والإجراءات الوطنية[4]؛ فإذا كانت هذه تمنع تسليم شخصيات لها حصانة ومعها مواثيق فلا يجب الامتثال؛ لأن قوانين الإجراءات لا تسمح بذلك في تلك الدول، بالإضافة إلى هذا فإن المادة (٩٨) من ميثاق المحكمة الجنائية تنص على ما يلي:

«١ – لا يجوز للمحكمة أن توجه طلب تقديم أو مساعدة يقتضي من الدولة الموجَّه إليها الطلب أن تتصرف على نحوٍ يتنافى مع التزاماتها بموجب القانون الدولي فيما يتعلق بحصانات الدولة، أو الحصانة الدبلوماسية لشخص أو ممتلكات تابعة لدولة ثالثة، ما لم تستطع المحكمة أن تحصل أولاً على تعاون تلك الدولة الثالثة من أجل التنازل عن الحصانة.

٢ – لا يجوز للمحكمة أن توجه طلب تقديم يتطلب من الدولة الموجَّه إليها الطلب أن تتصرف على نحو لا يتفق مع التزاماتها بموجب اتفاقات دولية تقتضي موافقة الدولة المرسِلة كشرط لتقديم شخص تابع لتلك الدولة إلى المحكمة، ما لم يكن بوسع المحكمة أن تحصل أولاً على تعاون الدولة المرسِلة لإعطاء موافقتها على التقديم»[5].

والحصانة لرؤساء الدول حاصلة ولو لم تكن ثمة مواثيق ومعاهدات مشتركة؛ فكيف مع وجودها ولا سيما مع الدول المنضوية تحت مظلة الجامعة العربية؟

وهنا مسألتان يظهر أن بينهما فرقاً:

الأولى: ممارسة المحكمة اختصاصها على شخصيات ذات حصانة، فهذه جائزة تخوِّل المحكمةَ القيام بها المادةُ (٢٧) من ميثاق روما، إذا كانت الدولة المُحِيلة عضواً أو جاءت الإحالة من مجلس الأمن[6].

والثانية: التقديم أو المساعدة من الدول الأعضاء على شخص يقتضي تقديمه أو المساعدة عليه خرقاً لحصانة معتبَرة؛ فإذا لم تُرفَع الحصانة المعتبرة دولياً عن رئيس دولة أو شخص ذي حصانة لدى الدولة المعنية بالمساعدة على إنفاذ أمر الاعتقال،

---

(١) انظر: ميثاق الأمم المتحدة، المادة (٢)، البند (٤).

(٢) كما في المادة (٨٩) من نظام روما.

(٣) يظهر هذا من قائمة المحكمة للدول المصادقة على ميثاق المحكمة وهي مثبتة في موقعها على الرابط التالي:
http://www.icc-cpi.int/Menus/ASP/states+parties/

وانظر: في حالة الدول المصادقة والموقعة في موقع المعاهدات المودعة لدى الأمم المتحدة على الرابط:
http://treaties.un.org/Pages/ViewDetails.aspx?src=TREATY&id=373&chapter=18&lang=en

(٤) كما في المادة (٨٩/١) من الميثاق، وعلى الرابط التالي للمحكمة الجنائية نسخة من ميثاقها:
http://www.icc-cpi.int/NR/rdonlyres/ADD16852-AEE9-4757-ABE7-9CDC7CF02886/140176/Rome_Statute_Arabic.pdf

(٥) المصدر السابق، ص٨٢.

(٦) انظر المادة (١٣) المتعلقة بممارسة الاختصاص من نظام روما.

فلا يحق لتلك الدولة – ولو كانت عضواً – أن تتصرف بما يخرق هذه الحصانة.

فوجود قانونٍ يجعل لأفرادٍ حصانةً تلتزمها الدولة الذين هم على أرضها، يجعل المحكمة تغرِّد خارج السرب؛ فهي تأمر بالقبض من الناحية النظرية، لكنها لن تستطيع أن تُلزِم تلك الدولةَ التي يحلها المطلوب ذو الحصانة بتسليمه، بل ولا تقديم المساعدة على إدانته. ومن هذه الثغرة أبطلت الولايات المتحدة دعاوى المحكمة إبان مشكلتها معها عام ٢٠٠٢م[١].

وسوف يأتي ضمن بيان المناقضة الإشارة إلى تناقضات أخرى.

الوقفة الثانية: بعض ما في نظام روما بخصوص تهمة الإبادة الجماعية من المناقضة لحكم الله:

إن التشريعات المناقضة في هذا النظام لشريعة الإسلام كثيرة لا يعسر على من له إلمام بالعلم الشرعي إدراكها، ومن تشريعاتها المناقِضة للشريعة المتعلقة بالموضوع – وأقتصر عليها كنموذج – واحدة من التهم الموجَّهة للبشير وَفْقاً لنظام المحكمة وقد أُسقِطَت ثم استأنفها المدعي العام وقد أُثبِتَت الآن؛ ألا وهي تهمة الإبادة الجماعية، المصنَّفة على أنها أخطر الجرائم الدولية وأشنعها، وهذه الجريمة في اصطلاحهم: «أيُّ فعل من الأفعال التالية يُرتَكَب بقصد إهلاك جماعة قومية أو إثنية أو عرقية أو دينية، بصفتها هذه، إهلاكاً كلياً أو جزئياً:

١ – قتل أفراد الجماعة.

٢ – إلحاق ضرر جسدي أو عقلي جسيم بأفراد الجماعة.

٣ – إخضاع الجماعة عمداً لأحوال معيشية يُقصَد بها إهلاكها الفعلي كلياً أو جزئياً.

٤ – فرض تدابير تستهدف منع الإنجاب داخل الجماعة.

٥ – نقل أطفال الجماعة عنوة إلى جماعة أخرى»[٢].

ثم إن هذه الأمور – وَفْقاً لنظام روما – يكون مسؤولاً عنها مسؤولية جنائية فردية من باشرها، أو أغرى بها من باشرها ولو بمجرد الشروع دون إتمام المقصود، أو حثه على ذلك أو أعانه أو حرضه أو ساعده على ذلك بأي شكل[٣].

وفي هذا التشريع من تجريم ما أقره الشرع الحنيف، والمعارضة لحكم الله شيء كثير؛ إذ ليست كل إبادة لجماعة محرمة في الشريعة، وإنما الاعتبار بحال تلك الجماعة من جهة عهدها مع أهل الإسلام وعدمه، ومن جهة قيام مقتضى مشروعية قَتْلها أو عدمه؛ فإن كانت كافرة معاهَدة – مثلاً – فقتل نَفْس منها جرم شنيع في الإسلام، لتعظيم رسول الله ﷺ حرمة دماء المعاهَدين، وقد جاء تغليظ هذه الحرمة في غير حديثٍ ثابتٍ[٤]؛ ومع ذلك فلا يُعَدُّ هذا الجرم أشنع الجرائم وأعظمها كما عدته الجنائية[٥]، وفيما يأتي صور تظهر فيها مناقَضَة ما قررته المحكمة في تشريعها لحكم الله:

١ – لو قتلت دولةٌ إسلامية ثلاثةَ رجالٍ بقصد إفنائهم نظراً لارتدادهم عن دين الإسلام بقصد إبادة المرتدين غير التائبين، كان هذا الصنيع إبادة جماعية وكان هذا الجرم – وَفْقاً لنظام روما – أشنع وأشد خطراً مِنْ جرم مَنْ قتلَ ألفي مسلم بقصد أن تستتب له الأوضاع في غزة – مثلاً – فهذا الأخير – وَفْقاً لنظامهم – يندرج ضمن جريمة (الإبادة) المصنفة ضمن جرائم ضد الإنسانية، ولا يندرج ضمن جريمة (الإبادة الجماعية) التي هي أشد خطراً؛ وعلى هذا فقتال المرتدين الذي أجمع عليه الصحابة – رضوان الله تعالى عليهم – مُدَان وَفْقاً لمواد هذا الميثاق الطاغوتي، وذلك مع ما فيه أيضاً من مناقَضَة إجماع المسلمين على قتال المرتدين، ويظهر تناقض آخر في تشريعات المحكمة؛ وهو تعظيمهم الجرم الذي قد يكون أقل ضرراً، وتهوينهم من شأن الجرم الذي قد يكون أشنع، فقتل الأنفس الثلاث في المثال المضروب إبادةٌ جماعية، وقتل ثلاثة آلافٍ – مثلاً – إبادة لا تقتضي ما تقتضيه سابقتها من العقوبة!

٢ – لو أسر المسلمون من الكفار المحاربين جماعة فقد يشرع لهم قتلهم، وقد عاتب الله المؤمنين لما استكثروا من الفداء في أسرى بدر ولم يُعمِلوا فيهم السيف، فقال – تعالى –: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ

(١) وقد بينتُ هذا في مقالة نشرت بمجلة البيان عدد ربيع الثاني الماضي (٢٦٠).
(٢) نظام روما، ص٥.
(٣) انظر تفاصيل المادة (٢٥) المتعلقة بالمسؤولية الفردية، ص٢٢ – ٢٣ من نظام روما.
(٤) انظر – مثلاً –: صحيح البخاري: (٢٩٩٥) و (١٧٧١)، وصحيح مسلم (١٣٧١).
(٥) انظر ديباجة نظام روما، ص٣، والمادة (١) ص٤، والمادة (٥) ص٤.

يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ – ٦٨] حتى قال جماعة من أهل العلم: كان التخيير أول الأمر ثم نسخ بوجوب القتل. والأكثرون على أن آية سورة القتال في المنِّ والفداء ليست بمنسوخة[١]، والصحيح استقرار جواز قتل الأُسراء الحربيين إذا كانت في ذلك مصلحة المسلمين، وميثاق روما يَعُدُّ هذا جريمة، بل أكبر الجرائم وأخطرها، وقد قتل رسول الله ﷺ أسرى بني قريظة ووقعتُهم بعد الخندق؛ فقد نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل النبي ﷺ إلى سعد فَأُتي به وحكم بحكمه المشهور؛ إذ قال: «تُقتَل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم». قال ﷺ: «قضيت بحكم الله»، وربما قال: «بحكم الملِك»[٢]، فهذا كما ترى يناقض تشريع المحكمة في (أ) و (هـ) وهو الحق الذي نزل من فوق سبع أرقعة[٣].

٣ – هذه الأفعال المعدودة في الميثاق جرائم إبادة، عند فقهاء الشريعة إن نشأت جراء ظلم وعدوان فهي جرائم؛ غير أنهم لا يسوون بين ما فرق الشرع والعقل بينه، ولا يركِّبون الأسماء الموهمة جزافاً، فليس إبادة جماعية في اللغة ولا في العرف نقلُ أطفال الجماعة عنوة إلى جماعة أخرى؛ مع أن هذا الفعل لو وقع بغرض استرقاق صحيحٌ؛ فليس جرماً عند أهل الإسلام ولا على مرِّ تاريخ الأمم والشعوب قبل المواثيق الحديثة؛ وإن رغمت أنوف العصرانيين، لكن لو قُدِّر وقوعه جريمةً كما فعلت فرنسا مع أبناء دارفور[٤]؛ فكيف تسوَّى هذه الجريمة بجريمة قتل أفراد الجماعة ولو في الاسم؟ ثم كيف تكون غاية عقوبة ما ثبت من جرائم الإبادة الجماعية هي الحبس أو الحبس والتغريم؟ والله – تعالى – يقول: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

٤ – يعتسف نظام روما الحكم على الآمر والداعي والمحرض والمساعد؛ سواء في الجرائم المتهم بها البشير أو في تهمة الإبادة، بينما لا يعتسف أهل الإسلام الحكم على الناس بدعوى أن المحرض أو المغري أو المساعد بأدنى مساعدة كالمباشر للجريمة، بل اختلف الفقهاء في السلطان لو أمر أمراً صريحاً بقتلٍ يُعلم تحريمه – والإبادة الجماعية المتهم بها من هذا القبيل – فهل الضمان بالقود أو الدية على المباشِر أم على السلطان أم عليهما؟ والصحيح الأول؛ لأنه ليس له أن يطيعه في معصية[٥]، مع أن الآمر يعزَّر بما يليق به، لكنه لا يسوَّى بين المختلفين كما سوت المحكمة، وهذا كله فيما إذا ثبت أمره بالجرم؛ وذلك بعد ثبوت الجرم نفسه.

الوقفة الثالثة: حكم تسليم مسلم إلى المحكمة الجنائية الدولية وأمثالها:

إن من الواجب على الدول الإسلامية أن تراجع مواثيقها ومعاهداتها مع الأمم الكافرة؛ فإن في كثيرٍ منها ما يضاد الشريعة، ولا سيما المتعلقة بحقوق الإنسان، والمرأة، والتحكيم الدولي؛ فكثير من تلك المواثيق فيها ما يجب ردُّه، كما أن في بعضها إجمالاً ينبغي التفصيل فيه، ولا تخلو تلك المعاهدات والمواثيق من أمور تُقرُّها الشريعة، فيتعين الأخذ بها. أما الرضى بها والمصادقة عليها بغير تمييز أو تحفظات فمنكَر من أعظم المنكرات، والواجب التمييز بين المقبول والمردود، والتعويل في ذلك على شرع الله. قال الله – عز وجل –: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم[٦]، وقال – سبحانه –: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، وقال – سبحانه –: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، ونصوص الكتاب والسُّنة في وجوب تحكيم الشرع كثيرة، معلومة من الدين بالضرورة. قال الشيخ عبد العزيز بن باز – رحمه الله –: «وفي إجماع أهل العلم والإيمان، من الصحابة ومَنْ بعدهم على وجوب التمسك بكتاب الله، والحكم به، والتحاكم إليه، مع سُنة رسول الله ﷺ، ما يكفي ويشفي عن الإطالة في ذكر الأدلة الواردة في هذا الشأن»[٧].

وفَرعٌ عن ذلك يتعين رفض الدول الإسلامية الالتزام بكل مادة أو بند مخالف للشريعة. قال ﷺ: «المسلمون على شروطهم إلاَّ شرطاً حرم حلالاً أو أحل حراماً»[٨]، وعند أبي داود: «الصلح جائز بين المسلمين إلاَّ صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً»[٩]، وفي لفظ: «جائز بين الناس»[١٠]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «من

(١) انظر تفسير ابن كثير لسورة محمد الآيات: (٤ – ٩) ٤/ ٢٢١.
(٢) متفق عليه: البخاري (٣٨٩٥)، ومسلم (١٧٦٨).
(٣) للفائدة انظر مجموع الفتاوى: ١٠/ ٤٧٠.
(٤) وإن كان هذا الفعل أشد من جهة أخرى، وهي أخذهم أطفالاً مسلمين وما سوف يتبعه من التنشئة الكفرية وليس وراء الكفر ذنب.

(٥) انظر: المغني: ٩/ ٤٨٠.
(٦) سورة الأنعام: ٥٧ وسورة يوسف: ٤٠ و ٦٧.
(٧) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، ط الإفتاء: ١/ ٢١٥، وانظر ما سبق نقله من الإجماع عن ابن حزم وابن كثير.
(٨) رواه الترمذي في جامعه: (١٣٥٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. قال شيخ الإسلام: «لعل تصحيح الترمذي له لروايته من وجوه... وهذه الأسانيد وإن كان الواحد منها ضعيفاً فاجتماعها من طُرُق يشدُّ بعضها بعضاً» (القواعد النورانية: ١/ ١٩٨).
(٩) سنن أبي داود: (٣٥٩٤).
(١٠) رواه الطبراني في المعجم الكبير: ١٧/ ٢٢، (٣٠)، والبيهقي في السنن الكبرى: ٦/ ٦٥، (١١١٣٥).

اشترط شروطاً تخالف ما كتبه الله على عباده؛ بحيث تتضمن تلك الشـــروط الأمر بما نهى الله عنه، أو النهي عما أمر به، أو تحليل ما حرمه، أو تحريم ما حلله، فهذه الشروط باطلة باتفاق المسلمين في جميع العقود»[1].

فإذا تقرر هذا عُلِم أنه لا يجوز الالتزام بتسليم مسلم إلى تلك المحاكم التي يُعلَم أنها ســوف تحكم عليه وَفْقاً للقانون الوضعي المخالف للشريعة، ولو كانت الدولة الإسلامية مصادقة على عهد يتضمن ذلك الشـــرط الباطل، بل الواجب أن ينصر المسلم أخاه المسلم. قال الله – تعالى –: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْـضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال – تعالى –: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وقال – سـبحانه –: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١]. قال ابـــن المناصف: «فمن ترك دفاع كافـــر عن مؤمن تثاقلاً من غير عذر يسقط به عنه القيام، فقد ترك المعاونة على البر والتقوى، وجعل للكافرين سبيلاً على المؤمنين، وقد نفى الله – تعالى – أن يكون ذلك من الشرع؛ ففعْلُ ذلك معصية وتعدٍّ لحدود الله، تعالى. قال رسول الله ﷺ: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهـــم أقصاهم، وهم يد على مـــن سواهم»[2]، وذلك مما لا يُعرَف فيه خلاف»[3]، وقد قال ﷺ في حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – المتفق عليه: «المسلم أخو المســـلم لا يظلمه ولا يســـلمه»[4]، وفي جملة هذا الحديث يندرج تسليمه إلى عدوه الكافر؛ فالتسليم من جملة الإسلام، ولا يســـتثنى من ذلك إلاَّ موضعان هما محل نظر: أحدهما ظاهر، والآخر محتمل:

فالظاهر فيهما: أن يكون المسلم قد أحدث إسلاماً بعد كفر، وكان المســـلمون في حال كفره صالحوا قومه من الكفار على ردِّ من جاء منهم إلى المســـلمين إلى أجلٍ معلوم لا مطلقاً، فهذا قد يسوغ إســـلامه إلى ذلك الأجل، وهل يجوز تسليمه – والتسليم معنـــى أخص –؟ الأمر موضع بحث؛ ففرقٌ بين التخلية بينه وبين الناس، وترك نصرته، وبين تسليمه لهم؛ ولهذا لم يأمر النبي ﷺ أبا جندل وأبا بصير بالعودة إلى المشـــركين، فهو لم يؤويهم لمكان العهد، ولم يمنعهم من الالتجاء إلى جهة والتحيز إلى فئة أخرى غير معاهَدة، بل أشـــار إشارة خفية إلى ذلك في قوله: «ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد»[5]، فظهر أنه ﷺ قد خلَّى بينهم وبين عدوهم لمحل العهد، لكنه لم يســـلمه ولم يسعَ في ذلك، بل أشار عليه بطريق الخلاص، وأيّاً ما كان فليس هذا كشـــرط تسليمهم المســـلم الذي ثبت له حق النصرة بموجب سابقة الإسلام ابتداءً قبل حصول العهد، تدل على ذلـــك النصوص القاضية بنصرته ومَنْع إســـلامه، وكذا الإجماع المنقول فيما هـــو دون ذلك. قال ابن العربي عند قول الله – تعالى –: ﴿وَإِنِ اسْـتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]: «إلا أن يكونوا أُسراء مستضعفين؛ فإن الولاية معهم قائمة، والنصرة لهم واجبة، حتى لا تبقى منا عين تَطْرُف، حتى نخرج إلى استنقاذهم إن كان عددنـــا يحتمل ذلك، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم.

إن من الواجب على الدول الإسلامية أن تراجع مواثيقها ومعاهداتها مع الأمم الكافرة؛ فإن في كثيرٍ منها ما يضاد الشريعة، ولا سيما المتعلقة بحقوق الإنسان، والمرأة، والتحكيم الدولي.

كذلك قال مالك وجميع العلماء، فإنا لله وإنـــا إليه راجعون، على ما حـــل بالخلق في تركهم إخوانهم في أَسْر العدو وبأيديهم خزائن الأموال، وفضول الأحـــوال، والقدرة والعدد، والقوة والجلد»[6]، ووجه الفرق بين المســـتثنين في الآية وهم الذين لم يهاجروا خاصة كما يبين ســـياقها والضمير المُرْجَـــع إليه في قوله: (استنصروكم) وبين هؤلاء الأسرى، أن هؤلاء ثبتـــت نصرتهم في الذمة وحَـــرُم إســـلامهم أولاً، وأولئك لم تثبت لهم لتركهـــم الهجرة ومفارقة دار الشرك، ورضاهم بالإقامة بين ظهراني المشـــركين حال عقدهم مع المسلمين، فأشبهوا المسلم بعـــد العهد مـــع الكفار بجامـــع الرضى بالإقامـــة بينهم، فلا يتحمل المســـلمون تبعاتهم؛ ولذا أجمع أهـــل العلم على وجوب فكاك الأســـير المسلم، وقد نقل الإجماعَ غير واحد[7]، وإذا كان الإجماع قد نُقِل على عدم جواز ترك الأســـير المسلم في أيدي الكافرين المعاهَدين؛ فكيف يتوجه القول بجواز تســـليم المسلم

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/٣١.
(٢) رواه أبو داود في سننه: (٢٧٥١)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود: (٢٣٩٠)، والحديث مشهور رواه جَمْع. انظر تخريجه في إرواء الغليل: ٢٦٦/٧، (٢٢٠٨).
(٣) الإنجاد في أبواب الجهاد لابن المناصف: ص١٠٦ باختصار.
(٤) البخاري: (٢٣١٠)، ومسلم: (٢٥٨٠).
(٥) صحيح البخاري: (٢٥٨١).
(٦) انظر أحكام القرآن لابن العربي: ٤٤٠/٢، ونقله مُقرراً القرطبي في تفسيره: ٥٧/٨.
(٧) الإجماع المنقول عن ابن العربي ثابت مستقر، نقله أهل العلم قبله وبعده، منهم ابن حزم في مراتب الإجماع: ص١٢٢، وأقره ابن تيمية، ومنهم القرطبي في غير موضع من تفسيره، منها: ٢٧٥/٥ [النساء: ٧٥]، وممن نقله ابن خوازمنداد كما في تفسير القرطبي: ٢٣/٢ [البقرة: ٢٣]، ومنهم ابن المناصف في الإنجاد في أبواب الجهاد: ص١٠٧.

أسيراً؟ وكيف إذا كان هذا المسلم حاكماً ذا سلطان وولاية على أهل بلده؟ لا شك أن تسليمه من أكبر المنكرات، بل هو في حق السلطان المسلم من قبيل مظاهرة الكافرين على المؤمنين بنوع من أعظم أنواع المظاهرة، نعوذ بالله من الخذلان.

هذا وقد صدرت عدة فتاوى تمنع تسليم مسلم إلى نحو تلك المحاكم، بل أصدرت عدة جهات فتاوى في موضع الرئيس البشير على وجه الخصوص، منها:

- الحملة العالمية لمقاومة العدوان أصدرت بياناً عنوانه: بيان بشأن مذكرة توقيف الرئيس السوداني عمر البشير(١).

- الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين أصدر بياناً عنوانه: بيان حول قرار الدائرة التمهيدية للمحكمة الجنائية الدولية باعتقال الرئيس السوداني عمر البشير(٢).

- هيئة علماء السودان أصدرت بياناً عنوانه: بيان من هيئة علماء السودان حول قرارات المحكمة الجنائية الدولية(٣).

وقد صدرت فتاوى أخرى من بعض الشخصيات الإسلامية العلمية، كالشيخ محمد الحسن الددو(٤) وغيره.

الوقفة الرابعة: حكم التقاضي من أجل الدفع بالبراءة إذا اضطر المسلم للتحاكم:

إن ما سبق من التقرير متوجِّه لعموم المسلمين؛ فلا يجوز لمسلم أن يعين على تسليم مسلم إلى المحكمة الجنائية وأمثالها بأدنى إعانة، وبقي حديث يتعلق بالمطلوبين عن حكم تحاكمهم إلى المحكمة لو سلَّمت دولة كافرة أو مسلمة متأوِّلة أو ظالمة مسلماً إليها؛ فهل يجوز له توكيل القانونيين والترافع لديها؟

أما إذا أُكره؛ كأن أُحضر أمامها قسراً فلا إشكال في دفاعه عن نفسه، وكذا لو اضطر - ومن الاضطرار أن يُزمَع إلحاقُ الضرر به أو بمن يليه أمرهم - لأن ذلك من جملة السعي في الخلاص من الكافر، وليس ذلك من الرضى بالتحاكم للطاغوت في شيء، بل هو سعي في التخلص من سلطانه بحق؛ فالدفع يكون بقول الحق: إما أن يؤكد براءته أو يؤكد أن ما فعله ليس جرماً أو أن ما رمي به ليس لهم طريق صحيح لإثباته عليه، أو أن نظامهم يسوِّغه أو نحو ذلك مما يسعه، فهذا قد يتوجه إيجابه إذا كانت في ذلك مصلحة ظاهرة للمسلمين.

ومما يمكن أن يُستَدَل به لذلك ما يلي:

أولاً: خبر النجاشي - رضي الله عنه - لمَّا بعثت قريشٌ عمرَو بن العاص وعمارةَ بن الوليد في طلب جعفر بن أبي طالب ومن هاجر معه من الصحابة - رضوان الله عليهم جميعاً - وفيه مثولهم بين يديه في أرض الحبشة، ودفعهم بحجتهم. والخبر ثابت مستفيض عند أهل العلم(٥).

ثانياً: شأن يوسف - عليه السلام - ودفعه ببراءته بين يدي الملك، وإعراضه عن الخروج من السجن حتى تثبت البراءة، ودعوته السجين صاحب الرؤيا بذكره عند الملك.

ثالثاً: خبر إخوة يوسف في دفاعهم بين يديه لمَّا اتُّهم أخوهم، وقد سعوا في نفي التهمة، ودعوا إلى تطبيق شرع يعقوب إن ثبت على أخيهم الذنب، وما كانوا يعلمون أن العزيز أخوهم وأنه على دين يعقوب يوم فعلوا ذلك.

رابعاً: مثول بعض رسل الله أمام بعض الطغاة مدافعين، كما في مثول إمام الحنفاء إبراهيم - عليه السلام - أمام النمرود بعد تكسير الأصنام، وقد أسفرت المحاكمة الطاغوتية عن الأمر به أن يلقى في النار. وهذه الأدلة الثلاثة ثابتة في شرع مَنْ قَبلَنَا، مذكورة على سبيل الإقرار في كتاب ربنا، يؤيدها إحكامها الدليل الأول.

خامساً: شُرِع لنا أخذ الحق من الظالم ولو بالحِلْف مع الكافر كما في خبر عبد الرحمن بن عوف عن النبي ﷺ أنه قال: «شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام فما أحب أنَّ لي حمر النعم وأني أنكثه»(٦)، وفي لفظ عند البزار: «ولو دعيت به اليوم لأجبت»(٧)، وغاية التحاكم الجائز عند الكافر تحالفٌ لرفع ظلم، أو عملٌ على رفعه.

وقد قال ابن القيم - رحمه الله -: «وأما الرضى بنبيه رسولاً فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه؛ بحيث يكون أَوْلَى به من نفسه؛ فلا يتلقى الهدى إلاَّ من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يُحكِّم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره البتة: لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله،

---

(١) انظر في موقعها:
http://qawim.net/index.php?option=com_content&task=view&id=4584&Itemid=61

(٢) انظر في موقع الاتحاد على الرابط:
http://www.iumsonline.net/articls/2009/03/13.shtml

(٣) اطلعت على نسخة منه مدَّني بها نائب رئيس الهيئة فضيلة الشيخ د. عبدالحي يوسف، وعلى الرابط التالي نصها:
http://www.meshkat.net/index.php/meshkat/index/20/29794/content

(٤) انظر موقعه:
http://www.dedew.net/index.php?A__=5&type=4&h=1&linkid=1567

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند: ١/ ٢٠١، (١٧٤٠)، والحاكم في المستدرك: (٣٢٠٨)، وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

(٦) رواه الإمام أحمد: ١/ ١٩٠، (١٦٥٥)، وابن حبان في صحيحه: (٤٣٧٣)، والحاكم في مستدركه: (٢٨٧٠)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

(٧) مسند البزار: (١٠٢٤).

ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقامه، ولا في شـــيء من أحكام ظاهـــره وباطنه، لا يرضى في ذلك بحكم غيـــره، ولا يرضى إلا بحكمـــه، فإن عجز عنه كان تحكيمه غيرَه من باب غذاء المضطر إذا لم يجد ما يقيته إلا من الميتة والدم، وأحسن أحواله أن يكون من باب التـــراب الذي إنما يتيمم بـــه عند العجز عن استعمال الماء الطهور»[1].

وقد أفتى كثير من كبار أهل العلم المعاصرين بجـــواز التحاكم إلى المحاكم غير الشـــرعية إذا اضطر المرء إلى ذلك، ومن ذلك فتوى الشـــيخ العلامة عبد العزيز بن باز - رحمه الله - ونصها:

«من عبد العزيز بن عبد الله بن باز إلى حضرة الأخ المكرم هـ ع. م. سلَّمه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فأشير إلى استفتائك المقيد بإدارة البحوث العلمية والإفتاء برقم ٢١٥١ وتاريخ ٦/ ٦/ ١٤٠٧ هـ الذي تســـأل فيه عن حكم المتحاكم إلى من يحكم بالقوانين الوضعية إذا كانت المحاكم في بلـــده كلها تحكم بالقوانين الوضعية ولا يســـتطيع الوصول إلى حقه إلا إذا تحاكم إليها هل يكون كافراً؟

وأفيدك بأنه إذا اضطر إلى ذلك لا يكون كافراً، ولكن ليس له أن يتحاكم إليهم إلا عند الضرورة إذا لم يتيســـر له الحصول علـــى حقه إلا بذلك وليس له أن يأخذ خلاف ما يُحِلُّه الشـــرع المطهَّر...»[2].

وفي فتـــوى اللجنـــة الدائمـــة للبحـــوث العلمية والإفتاء جاء ما نصه: «لا يجوز للمسلم التحاكم إلى المحاكم الوضعية إلا عند الضرورة إذا لم توجد محاكم شرعية، وإذا قضي له بغير حق له فلا يحل له أخذه»[3].

قال شـــيخنا العلاَّمة عبـــد الرحمـــن البراك - حفظه الله تعالى -: «إذا اعتُدي على الإنسان في بـــلاد الكفـــر في نفسه أو مالـــه أو حرمتـــه فله أن يرفع قضيته لمـــن يرفع عنه الظلم أو يدفع عنه الظلم، فإن الإنســـان المظلوم له أن يســـتعين بمن ينصره من غير أن يعتـــدي على الظالم، وإذا كان يعلم أن جهة الترافـــع لحل الخصومة تعتدي على الظالم بزيادة فتغرمه فوق مـــا يجب عليه فليس للمظلوم أن يأخـــذ فوق حقه ولو حكمت له المحكمة بذلك، وليـــس هذا من التحاكم إلى الطاغوت، فإن الذين يتحاكمون إلى الطاغوت يفضلون حكمه على شـــرع الله، ويرتضونه ويقبلون حكمه ولو علموا أنه مخالف لشـــرع الله... ولا يخفـــى أن الترافع إلى هـــذه الإدارات أو المحاكم من قبيل الضرورة؛ لأنـــه لو وجب على المقيم في تلـــك البلاد ألا يرفع قضيته إذا ظُلِم إذاً لحقه ضرر عظيم بذلك، ولَتسلَّط المجرمون على المسلمين إذا علموا أنهم لا ينتصرون.

وبهـــذا يُعلَم أن التحاكم إلى هـــذه الإدارات والمحاكم على هـــذا الوجه من الضرورة لا ينافي الكفـــر بالطاغوت؛ وهو كل حكم يناقض شـــرع الله الذي أنزله في كتابه وســـنة نبيه ﷺ، والله أعلم»[4].

وختامـــاً نقول: إن الكفر بالطاغوت واجب، ومن الطواغيت أمثـــال مدعي المحكمة الجنائية وقضاتهـــا، ومِنْ لازِم ذلك ألا يُسَـــلَّم مسلم فضلاً عن رئيس إليها؛ ســـواء من دولة إسلامية مصادِقـــة أو غير مصادِقة، ولا يمنع هذا مـــن الدفع بالبراءة وإعداد الملفات المثْبِتة لهـــا، تحسُّـــباً للخـــلاص إذا وقع المحـــذور لا عن رضى، أو اضطر الناس إليه.

ومـــن الـــواجب كذلك علـــى المســـلمين تحكيم شرع الله على أنفســـهم وفـــي رعيتهـــم، والإذعان لأمـــره فيما يحبون ويكرهـــون، والله يحفـــظ من يحفـــظـــه، ويكلأ بالرعاية من يرعى دينه.

هذا؛ واللهَ أســـألُ أن يبدل أحوال المســـلمين إلى ما يحب ويرضى، وأن ينصر كتابه وسُـــنة نبيـــه وعباده الصالحين، وأن يكبـــت أعداءه من الكافرين والمنافقـــين، وأن يعلي راية الدين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ١٧٢، ١٧٣.

(٢) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة: ٢٣/ ٢١٤.

(٣) انظر: مجموع فتاوى اللجنة: ٢٣/ ٥٠٢، الفتوى، رقم (١٩٥٠٤)، والفتوى بإمضاء الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد العزيز آل الشيخ، والشيخ صالح الفوزان والشيخ بكر أبو زيد.

(٤) نشرت في موقع نور الإسلام، وكانت على الرابط التالي:
http://www.islamlight.net/index.php?option=com_ftawa&task=view&Itemid=0&catid=1310&id=12848

هل ذُكِرَ اسم «محمد» ﷺ في أسفار أهل الكتاب؟ (٢ - ٢)

فيصل بن علي الكاملي(*)
popedia@windowslive.com

كنتُ أوردتُ في الجزء الأول من هذا المقال نصاً من العهد القديم للدلالة على ذكر اسم «محمد» ﷺ صراحة في أسفار أهل الكتاب، لكنني اكتفيت هناك بإثبات التحريف في ترجمة النص من العبرانية وعَرضتُ لذلك بعض النماذج، وأهمُّ ما عُنيت به إثبات أن الفِقرة المقتبسة تُقرَأ وَفْقَ الترتيب الآتي مع مراعاة الفواصل:

ما تعسو ليوم موعيد وليوم حج يهوه؟ كي هيني هالخو مشُّود: مصرايم تقبّصم، موف تقَبّرم، مَحْمَد لِخَسْبَام، قِمُوش بِيراشِم، حُوَح بأُهليهم. [هوشع ٩: ٥ - ٧]

وبيّنت أن هذه القراءة هي الوحيدة التي تحافظ على تَنَاظُر الجمل وجَرْسِها. لكنني في هذا الجزء سأركِّز الحديث على معنى النص ليرى القارئ كيف أن تلاعُب المترجمين حوَّل نصاً صريحاً في نبوة المصطفى ﷺ إلى جُملٍ شديدة الركاكة باهتة المعاني أشبه ما تكون بسجع الكهان.

(*) باحث سعودي متخصص في دراسة الأديان – يعمل في مركز الدراسات والبحوث التابع لمجلة البيان.

تفسير النص:

أما قوله: (ما تَعسُو ليوم موعِيد وليوم حج يهوه؟) فليست له علاقة بالمواسم والأعياد، وهذا ظاهر من السياق؛ إنما هو تخويف وتذكير لبني إسرائيل الذين ابتعدوا عن منهج الله وعصوا رُسُله. فمَن ترجمهُ بقوله: «ماذا تصنعون في يوم الموسم وفي يوم عيد الرب؟» فقد أبعد النجعة وأحال الوعيد عيداً. فالنص العبراني يقول: (ل - يوم) ومعناها «لِيَوم» وليس (ب - يوم) «في يوم». وعليه فالصحيح أن تترجَم هكذا: «ما أنتم عاملون ليوم الميعاد [1] ويوم يحشركم الرب؟» فكلمة «حَج» في العبرانية هي كل اجتماع حاشد، وإنما استُعيرت للعيد لاجتماع الناس فيه. ومعنى الجملة يُذكِّر بقول الله - تعالى - مخاطباً بني إسرائيل: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣].

وأما قوله (كي هيني هالخو مِشُّود: مصرايم تقبصم، موف تقبرم) فتفسيره «فهاهم أولاء نجوا من البلاء: مصر تأسرهم ومنف[2] تقبرهم [أو تدفنهم]». وهو تذكير لبني إسرائيل بما تعرضوا له من ابتلاءٍ على يد فرعون وقومه، فالنص يشير إلى النجاة من البلاء، والاستعباد، والقتل؛ وهو معنى قريب جداً من قول الله - تعالى - في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

لكن اضطهاد المصريين ليس كلَّ ما تُعدِّده الفِقرة من ابتلاء لبني إسرائيل، فهي تستمر قائلة: (مَحْمَد لخسبام)، وهنا بيت القصيد. فقد تُرجِمَت هذه العبارة بـ «نفائس فضتهم» وهو من التحريف الظاهر لأمرين رئيسين:

أولهما: أن إضافة «مَحْمَد» (بمعنى «نفيس») إلى «خسبام» (أي «فضتهم» أو «مالهم») من الركاكة بمكان، لوقوع حرف الجر «ل» بينهما؛ حتى إن «فيلهلم جسنيوس» في كتابه «نحو اللغة العبرانية» Gesenius› Hebrew Grammar أورد احتمال أن تكون العبارة في أصلها (مَحمدي خَسْبام)، وهي صيغة الإضافة السَويةُ في العبرية.

وثانيهما: إن سلَّمنا جدلاً بصحة الإضافة في (مَحْمَد لخسبام) «نفيسُ فضتهم [أو «مالهم»]» فهي برغم ذلك ليست جملة مفيدة فهي تحوي مبتدأً يفتقر إلى خبر، أو خبراً لمبتدأ محذوف لا نعلمه، وهو ما اضطر المترجمين إلى أن يربطوها بـ(قيموش بيراشم) التي تليها، فقالوا: «يرث القريص نفائس فضتهم». وهي محاولة بائسة للهروب من المأزق، لكن الجملة لا تستقيم برغم ترقيعهم هذا؛ لأننا لو ترجمنا النص العبري حرفياً لصار «نفيسُ فضتهم القريصُ يرثهم»؛ بمعنى أن ضمير الجمع «هم» سيعود على المفرد «نفيس» وهو ما لا يستقيم في اللغة العبرانية، وإنما يقال: «نفيس فضتهم القريص يرثه»، ولو افترضنا أن الضمير يعود على «فضة» - وهو بعيد جداً - فالاعتراض قائمٌ؛ لأنها مفرد وليست جمعاً حتى في أصلها العبري (لـ - كسف - م). فدل ذلك على أنهما جملتان وليستا جملة واحدة.

فما معنى الجملة إذن؟ إن (مَحْمَد لخسبام) عبارة وجيزة مستأنَفة معناها الحرفي «مُحمَّدٌ لِمالِهم»، فـ «محمد» اسم عَلَم يشير إلى النبي ﷺ وليس صفة بمعنى «نفيس»، يشهد لهذا أمران على الأقل:

أولاً: أن الجملة بغير هذا الشكل لا تستقيم لا معنىً ولا مبنىً كما سبق بيانه.

ثانياً: لمَّا تعرَّض مترجمو النسخة السبعونية لهذه الفِقرة كانوا يدركون أن «محمد» اسم علم، فكأنهم حاروا ما يفعلون، فلجؤوا إلى تغيير الاسم إلى «مَحْمَس» (مدينة «مخماش»). ولعل قائلاً يقول: ألا يمكن أن يُعتذر لهم باحتمال أن حرف الدال لم يكن بيِّناً في الأصل العبري فأشكل على المترجمين؟ أقول:

أولاً: إن حرفي السين (سامخ) والدال (دالِت) في العبرانية لا يتشابهان ألبتة والخلط بينهما بعيد؛ فالأول يشبه في شكله الرقم (٥) والآخر يشبه الرقم (٦).

وثانياً: لو افترضنا ذلك جدلاً فإن مدينة «مخماش» التي يريدها المترجمون هنا لا تكتب في العبرية «محمس»، وإنما «مكمش» بكاف وشين، فالتحريف لم يقع في حرفٍ واحد فحسب، بل في حرفين اثنين.

وقد يعترض معترض فيقول: لِمَ بَدَّلتَ «مَحْمَد» فجعلتها «مُحَمَّد»؟ والجواب: أن النص العبري ظل أكثر من ألف عام مجرداً عن الحركات إلى أن أضافها «المَسُوريُّون» من علماء اليهود بين القرن السادس والتاسع بعد الميلاد وَفْقَ اجتهادهم فأصابوا بعضاً وأخطؤوا بعضاً. فالكلمة قبل تحريف المسوريين كانت «محمد» دون حركات، ولم تكن «مَحْمَد»، وهذا مما يُجمع عليه علماء العهد القديم. فلم يبقَ إلا الإذعان بأن «محمد» عَلَم على النبي ﷺ.

والمراد من الفِقْرة أن محمداً ﷺ سيتولى تأديبهم في أموالهم، وحصل ذلك عندما أجلى بني النَّضير إلى أذرعات من أعالي الشام وإلى خيبر حتى إن أحدهم كان ينزع باب داره

(١) «موعيد» في النص العبري.
(٢) منف: مدينة مصرية قديمة.

وســـقفها لئلا يخلِّفها وراءه، كما جاء في ســـورة الحشر: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُـوا وَظَنُّوا أَنَّهُـم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُـمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِـبُوا وَقَذَفَ فِـي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُـم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] إلى قوله – تعالى –: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦].

أما قوله: (قيموش بيراشـــم، حوح بأُهُليهم) فسأعتمد فيها ترجمة النســـخ العربية: «القريص يرثهم، والعوسج في منازلهم» – تنزُّلاً لا قبولاً – حتى لا أطيل على القارئ.

ثم يعود الرب إلى تحذير بني إسرائيل من مغبة كفرهم وأن أيام المُســـاءلة قد أزفت فيقول: (باؤو يمي هبجوداه، باؤو يمي هشُّلُوم) أي «أزفت أيام العقاب وحلت أيام الجزاء». واستعمال الزمن الماضـــي هنا دلالـة على التحقـــق والوقوع لا محالة، كقوله – تعالى –: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

ثم بيَّن الســـبب في هذا التهديد والوعيد، فقال: (يدعو يسرائيل إفيل هنَّفي، مِشُجَّع إيش هروح). وترجمتُها كما في ترجمة «فانديك»: «ســـيَعرِف إسرائيل، النبي أحمق، إنسان الـــروح مجنون.» وهي كما ترى غاية فـــي الركاكة والإبهام، والسبب في هذا أن جُلَّ الترجمات العربية والأجنبية اعتبرت الفعل العبري «يدعو» مشتقاً من «ي – د – ع» بمعنى «عَرَف»، والصحيح أنه مشـــتق من «د – ع – هـ» بمعنى «دعا». وهذا الفعـــل ثابت في العبرانية كمـــا فصَّل ذلك «جيمس بار» في كتابـــه «فقه اللغة المقارن ونص العهـــد القديم»[1]. فالجملة (يدعو يســـرائيل إفيل هنَّفي، مِشُـــجَّع إيش هروح) تتألف من فعل متعدٍّ إلى مفعولـــين، وفاعلٍ، ومفعول به ثانٍ مقدَّم، ومفعـــول به أوَّل مؤخـــر، ثم مفعول به ثـــانٍ مقدَّم مضاف، ومفعول به أوَّل مؤخر. وعليه فالترجمة الحرفية للفقرة هي: «تدعُو إسرائيل النبيَّ أحمقَ، ورجلَ الروح مجنوناً»، والمراد بـ «إســـرائيل» هنا بنو إسرائيل. قال – تعالى –: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُـولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢ – ٥٣].

ثم بيَّن النصُّ ما دفع اليهود إلى هذا الســـباب والجحود، فقال: (عل روف عفونخا، فرباه مسطماه) «لكثرة آثامك وفرط عدائك»[2]. فسبب تكذيب اليهود للنبي ﷺ وشتمهم إياه – بشهادة أسفارهم – هو فرط عدائهم، وهو كما قال – تعالى –: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢].

وفي قصة صفية بنت حيي بن أخطب – رضي الله عنها – أنها قالت: كنتُ أَحَب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر؛ لم أَلقَهُما قط مع ولد لهمـــا إلا أخذاني دونه. قالت: فلمَّا قدم رســـول الله ﷺ المدينـــة، ونزل قباءً في بني عمرو بن عـــوف، غدا عليه أَبي حييُّ ابن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلِّسين. قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. قالت: فأتيا كالَّين كسلانَين ساقطَين يمشـــيان الهُوَينى. قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فو الله مـــا التفت إليَّ واحد منهما مع ما بهما من الغم. قالت: وســـمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم واللـــه! قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم! قال: فما في نفســـك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيتُ»[3].

وهنا أختم بعرض ترجمة «فانديك» العربية للنص أعلاه وأُتبعها بترجمتِـــي التي اعتمدت فيها الأصل العبري وأترك للقارئ الحكم.

ترجمة فانديك: «ماذا تصنعون في يوم الموســـم وفي يوم عيد الرب؟ إنهم قد ذهبوا من الخراب، تجمعهم مصر، تدفنهم موف، يرث القريص نفائس فضتهم، يكون العوسج في منازلهم. جاءت أيام العقاب. جاءت أيام الجزاء. سيعرف إسرائيل، النبي أحمق، إنسان الروح[4] مجنون، من كثرة إثمك وكثرة الحقد.

ترجمـــة الباحث: «مـــا أنتم عاملون ليـــوم الميعاد، ويوم يحشـــركم الـــرب؟ فها هـــم أولاء نَجَوا من البـــلاء: مصر تأســـرهم، ومنف تدفنهم، ومُحمَّد يغنمهم، والقريص يرثهم، والعوسج في ديارهم. أزفت أيام العقاب وحلت أيام الجزاء، فبنو إسرائيل يدعون النبي ســـفيهاً وذا الوحي مجنوناً، من عِظَم الإثم وفرط العداء».

﴿الَّذِيـــنَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُـــونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٦ – ١٤٧].

(1) Barr, James. Comparative Philology and the Text of the Old Testament (Winona Lake, Indiana: Eisenbrauns, 1987), p. 23.

(٢) هنا التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ أي انتقال من صيغة الغائب «يدعو إسرائيلُ» إلى صيغة المخاطب «آثامكَ» و «عدائكَ»، وفائدته البلاغية لفت المستمع أو القارئ إلى أمر ذي شأن. وقد سبق ورود التفات آخر عند قوله «ما أنتم عاملون ... فهاهم أولاء نجوا من البلاء» والأصل «فها أنتم أولاء نجوتم من البلاء». وهذا لا يعنينا كثيراً هنا وإنما أردت به بيان مُراوحة الضمائر وأن ذلك لا يغيِّر من أصل معنى النص شيئاً.

(٣) سيرة ابن هشام: ١/ ٥١٩.

(٤) «إيش هروح» التي تترجم بـ «إنسان الروح» معناها: «ذو الوحي» وهو وصف لمحمد ﷺ؛ إذ سُمي القرآن الذي أنزل عليه «روحاً» في قوله – تعالى –: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

مركز الدعوة العلمي

بصـــنعاء

مركز الدعوة العلمي للعلوم الشرعية

من أهداف المركز:

- تحقيق العبودية لله بالعلم النافع والعمل الصالح
- نشر منهج أهل السنة والجماعة.
- إعداد دعاة وخطباء وأئمة مساجد مؤهلين بالعلم الشرعي والفهم الصحيح.
- تصحيح الانحراف العقائدي والسلوكي في المجتمع.
- نشر المفاهيم التربوية الإسلامية التي تساعد على النهوض بالمجتمع.

دراسة منهجية
(٤ سنوات) تشـــمل:

1. القرآن وعلومه.
2. العقيدة.
3. الحديث وعلومه.
4. الفقه وأصوله.
5. اللغة العربية .
6. وغير ذلك ..

وقد زكى المركز العديد من مشايخ العلم

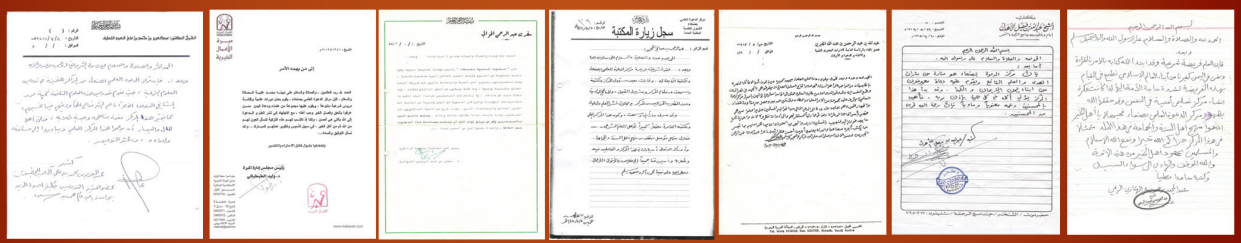

يستوعب المركز 500 طالباً

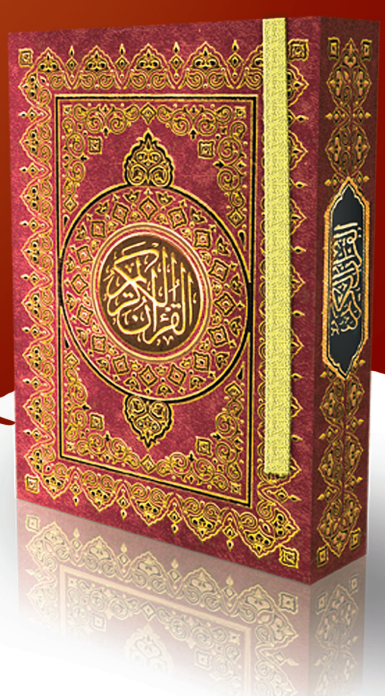

للتواصل: مؤسسة القـــلم الخـــيريـــة - اليمن - صنعاء

هاتف: ٧١١٤١٤٤١٢ (٩٦٧+) - ٧٧٧٧٧٣٦٧٦ (٩٦٧+)

فاكس: ٦٧٤٨٩٦ ١ (٩٦٧+)

www.dawacenter.net

E-mail: dawacenter2@gmail.com

مركز الدعوة العلمي للعلوم الشرعية

3Maxye.com ..(967)711237484

مبادئ الدعوة في قصة أصحاب القرية

دخيل عبد الله الدخيل
d-abo3omar@hotmail.com

سورة (يس) سورة مكية أكدت على قضايا مهمة في الدعوة؛ إذ نزلت في الجو المكي الذي يشتد فيه الصراع بين الحق والباطل، وجاءت محمَّلة بالدروس والقواعد والمبادئ، مدعَّمة بقوة الحجة والبرهان، مكرَّراً فيها ضرب النظير والمثال؛ وذلك من خلال قصة أصحاب القرية والتذييل عليها والتعليق على مشاهدها:

موضوعات السورة:

• طبيعة الوحي والرسالة والرسول.

• التركيز على قضية البعث بأساليب مختلفة من خلال التقرير المجرَّد، وضرب الأمثال، وإيراد الأدلَّة الدامغة، وعرض مشاهد القيامة.

• الدعوة والداعية وأعداء الدعوة: فالدعوة من خلال مهمتها ومبادئها وأُسسها، والداعية في صفاته ومقوماته ومهماته، وأعداء الدعوة في خصائصهم وأساليبهم وانتقام الله منهم.

أما حال الدعوة والداعية وأعداء الدعوة: فجاء تقرير حالهم وخصائصهم في عدد من المبادئ والأصول العظيمة؛ وهي أكثر ما تظهر في بداية السورة إلى نهاية قصة أصحاب القرية؛ ولذا سأقتصر في هذا المقال على ما تضمَّنه هذا المقطع من المبادئ، وهي كالآتي:

• ففي قوله - تعالى -: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ٢]: تأكيد على إحكام الشريعة وإتقانها وخلوِّها من أي نقص بأي وجه، وهذا مما يثبِّت الداعية في الصبر على الدعوة إليها أمام المذاهب الباطلة والدعوات الزائفة التي يكفي في بيان بهرجها أنها لا يُكتَب لها البقاء والصمود إلا بقدر ما تحمله من مبادئ الحق والنبوة.

• وفي قوله - تعالى -: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٣]: تسلية للرسول ﷺ بأنه سائر في ركب المرسلين داعٍ إلى ما دعوا إليه متَّبعٌ لأمر من أرسلهم، وهو كذلك عزاء لكل داعية ناله الأذى في سبيل هذا الدين بأنه سائر ومقتفٍ لطريق هؤلاء الأطهار، ذائدٌ عن حياض دعوتهم، جندي قد استلم راية الدعوة من بعدهم، أمنيَّته أن يموت في ساحتها مقبلاً غير مدبر.

• وفي قوله - تعالى -: ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [يس: ٥]: المعنى ذاته في سياق الدعوة؛ وهو أن مقتضى رحمته - تعالى - إرسال الرسل وإقامة الحجة، ومقتضى عزَّته - سبحانه - نصرتُهم عند تكذيبهم والكيد بهم، وتأمَّل تكرار قوله - تعالى - في سورة الشعراء بعد هلاك كل قوم: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩].

• وفي قوله - تعالى -: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧]: تأكيد على أصل مهم من أصول الدعوة، وهو

أن هـؤلاء القوم مـع أنه قد حق عليهم العـذاب فلا مطمَع في هدايتهم إلا أنه لا بد من دعوتهم لأمور، منها:

١ - أن مهمـة الداعية هي البلاغ المبـين والنذارة؛ وليس التوفيق إلى الحق والهداية. قال - تعالى - على لسان رسله في هذه السورة: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [يس: ١٧].

٢ - وأن الله أخفى مَن حقَّ عليهم العذاب واختص بعلمهم؛ فإذاً لا بد من النذارة لكل أحد.

وفائـدة هذا التقرير أن لا ييأس الداعية عند نكول الناس عن الحـق، وأنه رابح في كلا الحالين: إمـا أن يحقق النذارة والتبليـغ، وهو هنا قد قام بمهمته وأعـذر إلى ربه، أو يقذف الله الإيمان والهداية في قلوب المدعوِّين وهو أمر مُوكَل إلى ربه وليس في دائرة طاقته وقدرته.

وبهـذا تَعلَم أن مِنْ أعظم ما ينخر في كيان الدعوة، اليأس الذي يسـتولي على قلوب الدعاة ويتسـرب إلى نفوسهم عند رؤية شـرود الناس عن الحق وضلالهم؛ ولهذا كثر التأكيد على هذا الأصل في القرآن؛ فينبغي إشاعة روح التفاؤل مع التقويم والمراجعـة والصبر والمصابرة، وفي التنزيل: ﴿إِنَّـا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

• وفي قولـه - تعـالى -: ﴿إِنَّا جَعَلْنَـا فِي أَعْنَاقِهِـمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَـى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَـدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَـدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٨ - ٩]: المُقْمَح: هو الرافع رأسـه: أي أن أيديهم مشـدودة بالأغلال إلى أعناقهم موضوعة تحت أذقانهم؛ ومن ثَمَّ فإن رؤوسـهم مرفوعة قسراً. قال صاحب الظلال: (ومع شدة هذا المشهد فإن الإنسان ليلتقي بأناس من هذا النـوع يخيَّل إليـه - وهـم لا يـرون الحق الواضح ولا يدركونه - أن هنالـك حائلاً عنيفاً كهذا بينهم وبينه، وأنه إذا لم تكن هذه الأغـلال في الأيدي وإذا لم تكن الـرؤوس مقمحة ومجبرة على الارتفاع فإن نفوسهم وبصائرهم كذلك، مشدودة عن الهدى قسراً وملفوتـة عن الحق لفتاً، وبينها وبين دلائل الهدى سـدٌّ من هنا وسـدٌّ من هناك، وكذلك كان أولئك الذين واجهوا القرآن)[١].

• وفـي قوله - تعـالى -: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَـلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ [يس: ١٣]: أي اضرب لهؤلاء المكذبين برسـالتك، الرادين لدعوتك مثـلاً يعتبرون به ويكون لهم موعظـة إن وُفِّقوا للخير؛ وذلك المثل هو: أصحاب القرية[٢]. وفي هذا المثل عِظَة وتسلية للنبي ﷺ وبيان لحال الدعاة وحال كثير من المدعوِّين في الصد عن دين الله.

وفي هذا بيان أهمية علم التاريخ وإحاطة الداعية بسـنن الله في الكون والتذكير بمآل الكفر من خلال بيان عاقبته ومآل أصحابـه[٣]، ولما غفل الدعاة اليوم عن سـنن التاريخ وعظاته أضحوا صيداً سهلاً لمكر المجرمين مرة بعد مرة وأصبحتَ ترى وتشـاهد كيف يتسـلق الماكرون على أكتاف الدعاة ويقطفون الثمرة التي ضاعت فيها جهودهم وأرواحهم، والله المستعان.

• وفـي قوله - تعـالى -: ﴿إِذْ جَاءَهَا﴾ [يس: ١٣] - كما قال الآلوسي -: إشارة إلى أن المرسلين أتوهم في مقرهم[٤].

ويستفاد منه أهمية التخطيط في الدعوة ومعرفة الأماكن التي يكثر فيها الجهل، وأن ينتدب الداعية نفسَه ويضحِّي بترك وطنه في سـبيل هداية الناس وإرشـادهم، وفي قول كثير من المفسـرين أن هؤلاء الرسل هم أصحاب عيسى بعثهم إلى هذه القرية للقيام بدعوتهم.

• وفي قولـه - تعـالى -: ﴿إِذْ أَرْسَـلْنَا إِلَيْهِـمُ اثْنَـيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَـا بِثَالِثٍ﴾ [يس: ١٤] لم يَقُـل: فعززناهما؛ لأن المقصود تقوية

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٩٦٠.
(٢) تفسير السعدي: ص٦٦١.
(٣) ويشهد لهذا: المعنى الآخر لقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾: حيث قيل: إن معناه: مثّل لنفسك يا محمد حال قومك بأصحاب القرية واجعلهم مثلاً لهم، أي: شبّه حالهم بحال أصحاب القرية؛ فإن مثلهم كمثلهم.
(٤) روح المعاني: ١١/ ٣٩٣.

الحق الذي أُرسِلوا به علاوة على تقويتهما؛ ففيه أن قوة الدعوة تكون باجتماع الدعاة وتكاتفهم وتوحيد جهودهم والتكامل بينها، خصوصاً في الأماكن التي يَقِل فيها السند والنصير، فلا رهط ولا عشيرة، ولا نفوذ ولا أتباع. ولعل هذا يفسر لنا اجتماع هؤلاء الرسل في مكان واحد؛ لأنهم أُرسِلوا إلى غير قريتهم فلا ناصر لهم. وفي قصص الرسل الذين بُعِثوا لوحدهم نقرأ: ﴿وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود: ٩١] و: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٤].

ويستفاد من هذا بيان أهمية العمل المؤسسي المشترك، وأنه لا مكان اليوم للأعمال الفردية والجهود المشتتة أمام المنظمات والتكتلات العالمية، والمؤسسات العابرة للقارات؛ خصوصاً حين قلَّ النصير وعز الظهير.

وفيه أيضاً أن تحقيق النصر لا يكفي فيه حُسْن القصد وصفاء القلب وسلامة المنهج إذا لم يُقرَن بالتخطيط والمراجعة والتقويم.

• وفي قول الرسل - عليهم السلام -: ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٤] مع قولهم: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [يس: ١٧]: يتضح أمران:

١ - وضوح المنهج والجهر به بدون مواربة أو مداهنة، وأنهم رسل جاؤوا لأجل القيام بالرسالة ونشرها لا لشيء غير ذلك؛ وفي هذا أهمية صدق الداعية مع مجتمعه، ووضوح منهجه، والبعد عن الغموض والتلون، والثباتُ على مبادئه، والصبرُ عليها، وأنه بذلك تكون دعوته أحرى بالقبول والتأثير.

وهذا لا ينافي التدرج في الدعوة والبداية بالأصول والمهمّات ومراعاة الحكمة؛ لأن التدرج يعني ترتيب المبادئ والأولويات لا تمييعها ومناقضتها، وإذا قرنت قوله: ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨] مع قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، تبين لك أهمية وضوح المنهج والسبيل مع مراعاة الحكمة في الدعوة إليه.

٢ - وضوح الهدف والرؤية بالنسبة للداعية قبل البَدء بالدعوة وتحديد المهمة؛ وذلك في قول الرسل: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [يس: ١٧].

ولا تخفى أهمية تحديد الهدف ووضوحه للداعية من أجل التركيز عليه، وتوحيد الجهود إليه، واختيار الوسائل المناسبة له، وإمكانية التقويم وتحديد معايير الفشل والنجاح من خلال تحقيقه أم لا.

خصائص أعداء الدعوة:

• في قول أعداء الرسل: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥]: تتضح أمور، منها:

تشابه أعداء الدعوة في أساليبهم ونفسياتهم ومنطلقاتهم؛ فكم تكررت دعوى بشرية الرسل لعدد من الأنبياء، مع اختلاف بيئات هؤلاء الأقوام وأزمانهم وأحوالهم؛ فسبحان الله!

وعلى هذا ينبغي أن يتبصر الداعية ويتأمل في خصائص هؤلاء ومواقفهم، وفي القرآن تحليلٌ دقيقٌ لهم على اختلاف مشاربهم من يهود ونصارى ومنافقين وغيرهم لا تخفى على المتأمل.

• وقول الرسل - عليهم سلام الله -: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٦]: فيه التلطف والمبالغة في النصح حتى بعد تكذيبهم والإغلاظ عليهم، وفيه كذلك الرد عليهم؛ لأن قولهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ جارٍ مجرى القسم والتوكيد، وهو رد مشبَع بالثقة بالله والتوكل عليه ومراقبته وخشيته؛ وأن المؤمن إذا علم رضا الله عن فعله واستقامته على منهجه لم يضره تهويش البطالين وجلبة المشككين.

• أما قوله - تعالى -: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ [القصص: ٢٠]: فهذا المقطع من القصة إلى نهايتها تضمَّن الحديث عن أمرين مهمين في الدعوة:

الأول: الحديث عن صفات أنصار الدعوة الذين يستجيبون لنداءات الدعوة وجهود دعاتها.

والثاني: الحديث عن صفات الداعية نفسه، والخصائص التي تؤهله لتبليغ دين الله على أكمل وجه.

ولذا نلاحظ أن الآيات ركزت على إبراز حالين للرجل المؤمن:

- حال مجيئه وسعيه: وفيها تصوير لصفات ناصر الدعوة وعَضُد الدعاة.

- وحال دعوته لقومه وهو يجادلهم ويدعوهم: وفيها تصوير لصفات الداعية وطريقته في دعوة الناس، ولا بد من الإشارة لهذه اللطائف.

أولاً: صفات أنصار الدعوة والدعاة:

• ففي قوله - تعالى -: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ تتضح صفتان:

١ - أنه رجل فيه صفات الرجولة بكافة معانيها وأخلاقياتها، كما قال - تعالى -: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] فليس من أنصاف الرجال ولا أشباه النساء.

٢ - أن الرجل لم يكن ذا جاه وسلطان، ولم يكن في عز من قومه أو مَنَعة من عشيرته، ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه وتحرِّكه حتى جاءت به من أقصى المدينة؛ ولذا نجد أن لفظة (رجل) جاءت بالتنكير ووصفته الآية بأنه من أقصى المدينة، فليس من الزعماء ولا الملأ ولا الأغنياء.

• وفي قوله – تعالى –: ﴿مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾: إشارة إلى أنه رجل سليم الفطرة قد نفذت الدعوة إلى شغاف قلبه مباشرة؛ وذلك لأنه من أقصى المدينة فلم تتكرر الدعوة على مسمعه كحال هؤلاء.

وهذا يفسر لنا اختيار العرب ليكونوا منطلق الرسالة المحمدية دون أصحاب الحضارة من الفرس والروم آنذاك؛ وهو ما يفسر لنا أيضاً لماذا يكون من أتباع الرسل في البداية الضعفاء؟ لأن فطرتهم لم تحجزها عن الاستجابة سكرة منصب وزعامة، أو شهوة مال ورياسة؛ ولذا تكرر في القرآن أن أعداء الرسل هم أصحاب الترف والزعامة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ [سبأ: ٣٤]، و ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]، و ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ﴾ [المؤمنون: ٣٣]... إلى غير ذلك.

• وفي قوله – تعالى –: ﴿يَسْعَى﴾ تظهر صفة المبادرة والفاعلية وأنه رجل بعيد عن الأنانية والانتهازية وإنما استشعر حقيقة الإيمان في قلبه، حتى تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يُطِقْ عليها سكوتاً ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله، ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره، وجاء يسعى ليقوم بواجبه؛ ففَرْضُ الكفاية عنده فرض عين، ونصرة الدين فرض ودين.

• وفي قوله – تعالى –: ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٥]: تظهر صفة الشجاعة والصلابة في الدين؛ حيث جهر بكلمة الإيمان الواثقة المطمئنة وأشهدهم عليها، مع أنه يعلم أن مصيره ومآله القتل لا محالة؛ حتى قال ابن مسعود: (وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه من دبره وأُلقي في بئر).

ثانياً: صفات الداعية:

• ففي قوله – تعالى –: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]: تظهر صفة التلطف واللين وحُسْن الخطاب، وأنه ناصح لهم؛ حيث ناداهم مذكِّراً لهم أنهم قومه الذين يشفق عليهم وينصح لهم، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه من الخير.

• وفي قوله – تعالى –: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠ – ٢١]: تتضح صفات الداعية أكثر؛ حيث أمر بوجوب الاتباع لهم؛ لأنهم رسل، ثم كرر الاتباع بقوله – تعالى –: ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ليفيد أن المرسلين ينبغي أن يُتَّبعوا أصلاً؛ لأن مقتضى اختيار الله لهم أن لا غبار على صدقهم وصحة منهجهم.

وأما اتِّباع غير المرسلين فيكون لمن فيه هاتان الصفتان:

١ – أنه لا يسأل أجراً على التبليغ، ولا يبتغي مغنماً؛ وهذا دلالة على صدقه وإخلاصه ومحض نُصْحِه؛ وإلا فما الذي يدعوه إلى هذا العناء والتعرض للأذى والاستهزاء، وهو لا يجني من ذلك كسباً، ولا يطلب منهم أجراً؟

فعلى الداعية الصادق أن يكون من أبعد الناس عن الأكل بدعوته والتكسب من ورائها، بل حال الصادق أنه يضحي بماله ومنصبه في سبيلها، وحقيق بمن هذا حاله أن يُقبِل الناس بقلوبهم عليه ويستجيبوا لدعوته؛ ولذا كان سبيل أعداء الدعوة في التنفير عن الرسل أن يقولوا: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨].

٢ – أنه مهتدٍ إلى نهج سليم وطريق مستقيم؛ لأنه يدعو إلى ما شهد العقل بحسنه؛ وهو عبادة الله وحدَه وهذه الصفة مكمِّلة للصفة الأُولَى، كأنه بقي أن يقال: لعله يدعو ولا يأخذ أجرة ولكنه ليس على الحق والمنهج الصحيح فدفع هذا الاحترازَ بهذه الصفة. قال الزمخشري في قوله – تعالى –: ﴿مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢١]: (كلمة جامعة في الترغيب فيهم أي: لا تخسرون معهم شيئاً من دنياكم، وتربحون صحة دينكم فينتظم لكم خيرا الدنيا والآخرة)[1].

• وفي قوله – تعالى –: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٢٢ – ٢٤]: تظهر صفة الداعية: صاحب المنطق الرائع الذي يأخذ بالألباب، ويُظهِر التلطف في الخطاب وحُسْنَ العرض والاستدلال، مع الأدلة الدامغة والحجج الواضحة.

قال السعدي: (جمع في هذا الكلام بين نُصحِهم، والشهادة للرسل بالرسالة والاهتداء، والإخبارِ بتعيُّن عبادة الله وحدَه، وذكر الأدلة عليها، وأن عبادة غيره باطلة، والإخبارِ بضلال من عبدها، والإعلانِ بإيمانه جهراً).

حقاً: إن الدعوة أحوج ما تكون اليوم إلى لسان صادق بليغ، وقلم رفيع، يدافع عنها وينشر رسالتها، ويدفع الشبهات والضلالات بأحسن بيان وأكمل حال.

• وفي قوله – تعالى –: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦ – ٢٧]: تظهر صفة الرحمة والعطف على الخلق عند الداعية، والاجتهاد في هداية الناس وإرشادهم؛ ولذا تمنى هذا المؤمن أن يعلم قومُه بحاله، ليكون علمهم بها سبباً لرغبتهم في التوبة والإيمان. قال ابن عباس: (نصح قومه حياً وميتاً).

---

(١) الكشاف: ٥ / ١٠.

بيت العنكبوت

حامد مسوحلي الإدريسي

هو أَوْهَنُ البيوت، وأقلُّها تحريـزاً، وأبشـعها منظراً، وشـرُّها مقصـداً؛ لم يُبْـنَ لصلاح وإصلاح؛ وإنما بُنِي مصيـدة للغافلـين، وفخّـاً للمارِّيـن؛ مـن سـقط فيه منهـم رَدِيَ، ومن دخل إليه هلك، ومن اسـتجار به كان كالمستجير بأم عامر[1]... فهـو بيـت لا يقـي العنكبـوت حَـرّاً ولا بـرداً، ولا يمنعهـا ممـن يقصدها بسـوء، ولا يحميهـا مـن العابثين؛ وهـو وإن ضمن لها شـيئاً من القُوت - نظراً لِمَا اقتضتـه حكمـة الله - عز وجل - وتدبـيرُه للخلق؛ فإن بيتهـا يبقـى أَوْهَـنَ البيوت، وأقلّهـا تحريـزاً؛ وكذلـك من اتخـذ مـن دون الله وليّـاً أو إلهـاً. قـال - تعـالى -: ﴿مَثَلُ الَّذِيـنَ اتَّخَـذُوا مِـن دُونِ اللَّـهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَـلِ الْعَنكَبُـوتِ اتَّخَـذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

(١) العرب تسمي الضبع: أم عامر

وبينما كنت أقرأ ما سـطَّره المفسرون حول هذه الآية، ما بين مقلٍّ ومكثرٍ، شدَّني كثيراً، وملأ قلبي وعقلي، ما قاله الشهيد - رحمه الله - في ظلاله؛ حيث ربط ما مضى من السورة بهـذا المثال. قال - رحمه الله -: «إنه تصوير عجيب صادق لحقيقة القوى في هذا الوجود، الحقيقة التي يغفل عنها الناس أحياناً، فيسـوء تقديرهم لجميع القيم، ويَفْسُـد تصوُّرهم لجميـع الارتباطات، وتختل في أيديهم جميع الموازيـن. ولا يعرفون إلى أين يتوجهون. ماذا يأخذون، وماذا يَدَعون؟

وعندئذٍ تخدعهم قوة الحكم والسـلطان؛ يحسـبونها القوة القادرة التي تعمل في هذه الأرض، فيتوجهون إليها بمخاوفهم ورغائبهم، ويخشـونها ويفزعون منها، ويترضونها ليكفُّوا عن أنفسهم أذاها، أو يضمنوا لأنفسهم حماها، وتخدعهم قوة المال؛ يحسبونها القوة المسيطرة علـى أقدار الناس وأقدار الحياة. ويتقدمون إليها في رَغَب وفي رَهَب، ويسـعون للحصول عليها؛ ليستطيلوا بها ويتسـلطوا على الرقاب؛ كما يحسبون... وينسون القوة الوحيدة التي تخلق سـائر القوى الصغيرة، وتملكها، وتمنحها، وتوجهها، وتسخِّرها كما تريد، حيثما تريد. وينسون أن الالتجاء إلى تلك القوى - سواء كانت في أيدي الأفراد، أو الجماعات، أو الدول - كالتجاء العنكبـوت إلى بيت العنكبوت؛ حشرة ضعيفة رخوة واهنة لا حماية لها من تكوينها الرخو، ولا وقاية لها من بيتها الواهن؛ إنها العنكبوت، وما تملك من القوى ليست سوى خيوط العنكبوت: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

وإن أصحاب الدعـوات الذين يتعرضون للفتنة والأذى، وللإغـراء والإغواء، لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة ولا ينسـوها لحظة، وهـم يواجهون القوى المختلفة: هذه تضرُّ بهم وتحاول أن تسـحقهم، وهذه تسـتهويهم وتحاول أن تشتريهم... وكلُّها خيوط العنكبوت في حسـاب الله، وفي حسـاب العقيدة؛ حين تَصِحُّ العقيدة، وحين تعرف حقيقة القوى وتُحسِـن التقويم والتقدير»[1] وهذا من أعظم الفهم عن الله في كلامه، وتنزيل مراده على الحياة.

إن خصائص بيت العنكبوت قد أشـبهت خصائص الشـرك والتعلُّق بغير الله من وجوه كثيرة، وإن بشـاعة هذه الحشـرة وخُبْثَها، لا يشبهه إلا بشـاعة مظاهر الشرك والخرافة،

(١) في ظلال القرآن، سورة العنكبوت، (الآية ٤١)

وما يمارسه المشركون من مراسم وشعوذات وتقرُّب إلى غير الله بمظاهر غريبة عجيبة، تنزل فيها البشرية إلى أحاضيض الجهل والتخلف، وتتباعد فيها عن الحضارة والرقي؛ حتى تصير كأنها في القرون الأُولَى قبل أن يطبخ الناس طعامهم حين كانوا ينهشونه بأسنانهم نهشاً.

لقد عششت بيوت العناكب في بلاد المسلمين، واقتاتت على عقولهم؛ فخيم على تلك البلدان ظلام الجهل، وظلام الشرك، وظلام السخط واللعنة؛ ظلمات بعضها فوق بعض، ولن يزال الحال كذلك، ما لم ينبعث المصلحون والمسؤولون، كي يهدموا ما بَنَت العناكب

ولا تعشش عناكب الشرك والشعوذة، إلا حين تجد سكون الجهل والغفلة، وغبار التخلف والانحطاط؛ فما أشبه أماكن الشرك ببيوت العناكب! وما أشبه المكان الذي تعشش فيه بأصنام المشركين وقبورهم وأضرحتهم التي لا تغني عنهم من الله شيئاً! لأن الله يعلم أنهم ما يدعون من دونه من شيء؛ إن هي إلا أسماء سمَّوها هم وآباؤهم، ما أنزل الله بها من سلطان؛ متبعين في ذلك الظن وما تهوى الأنفس، صادِّين به عن سبيل الله، يستهوون به من أضلَّه الله، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة. يتآكلون بغفلة الناس، ويتعيشون بمآسيهم، ويقتاتون على جهلهم وسذاجتهم، كما تقتات العناكب على جهل الحشرات التي تمر بها، وهي التي لا تبصر خيوط بيتها الدقيقة، التي تشبه حبائل الشرك الخفية...

لقد عششت بيوت العناكب في بلاد المسلمين، واقتاتت على عقولهم؛ فخيم على تلك البلدان ظلام الجهل، وظلام الشرك، وظلام السخط واللعنة؛ ظلمات بعضها فوق بعض، ولن يزال الحال كذلك، ما لم ينبعث المصلحون والمسؤولون، كي يهدموا ما بَنَت العناكب، ويطهروا بلاد الله من هذه الفئة المشركة التي تبث الشرك وتدافع عن مرابده؛ كي يأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وهم يعلمون، وكم رأيت من هذه المناظر التي تقطع القلوب، من أناس جهلة مساكين، يرجون غير الله ويُقبِلون على رِمَّة بالية، يطوفون بإخلاص ورجاء، ويتمسحون بما علق على القبر من مزيِّنات وأقمشة، يبكون عندها، ويتوسلون في جنبات المكان، وتأتي العناكب لتنسج حولهم مزيداً من الجهل، ومزيداً من الخرافة؛ حتى إذا أوثقتهم واستحكمت منهم، مدت أياديها الأثيمة تأخذ من أموالهم بغير حق، وتأكل من ذبائحهم بغير شريعة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد زرت في إحدى المرات وكراً من هذه الأوكار، وكان منظراً رهيباً لا يوصف؛ كان ذلك في منطقة زاكورة شمال المغرب، في ضريح الشيخ الناصري صاحب الطريقة الناصرية؛ إذ يسمون ضريحه محكمة الجن. دخلتُ إلى ساحة المسجد الداخلية، فرأيت بئراً والناس يسقون، ورأيت المكان ممتلئاً بالرجال والنساء! وقد افترشوا جنبات الحائط، حتى لم يبقَ مكان فارغ، ورأيت مَنْ يطبخ غداءه ومن يرتب ثيابه، فأحسست أنهم قد قضوا فترة طويلة في ذلك المكان. لم أفهم شيئاً! ثم التفتُّ إلى امرأة مقعدة تناديني تقول: ساعدني على عبور عتبة الباب. فأخذت كرسيَّها ودفعتها إلى حيث تريد، وكان يبدو من مظهرها أنها امرأة مثقفة، فسألتها عن الناس هنا، وما خبرهم؟ فقالت: إنهم ينتظرون المحاكمة، فقلت: أيَّة محاكمة؟ قالت: محاكمة الجن، ثم قالت لي: هنا محكمة الجن، يأتي الناس من كل مكان، فلا يحق لهم الخروج حتى يؤذن لهم من طَرَف الحجاب، وقالت أيضاً: إن منهم من تجاوز ثلاث سنين ولم يخرج، قلت: وأنت، ماذا تفعلين هنا؟ وكيف رميت بنفسك في هذا المكان المشين؟ قالت: إن لي أبناءً وأسرةً، وكنت أعيش في حال طيبة، وبدأت أشعر بتنمُّل في أقدامي، فأتيت إلى هذه المنطقة أريد الرمال الدافئة، ثم دخلت أزور القبر وأتبرَّك، ولما أردت المغادرة، نصحوني أن لا أخرج إلاَّ بإذن، فاستهترت بالأمر، ولم أعبأ بقولهم، فما إن تجاوزت هذه العتبة حتى وقعت ولم أستطع الوقوف على رِجلَيَّ، ومنذ ذلك الحين وأنا مقعدة على هذا الكرسي أنتظر الفرج، فقلت: كيف تصدقين بهذه الخرافات وأنت امرأة عاقلة؟ قالت: اسكت وإلاَّ سمعوك. قلت: مَنْ؟ قالت: إني أراهم، فبدأت أجهر بكلامي بصوت عالٍ، وقلت: أين ما تقولين؟ فخافت جداً وقالت: أرجوك إنني أراهم. فتركتها وأنا حزين أشدَّ الحزن على نساء ورجال وشباب وشابات، غدو أسرى للشيطان، وانقادوا لبيوت العنكبوت: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٩٩ – ١٠٠].

عَلمنة الأحكام الشرعية

فهد بن صالح العجلان
fsalehajlan@hotmail.com

ستُجهد ذهنك كثيراً حين تريد الوصول إلى أصحِّ الأقوال لأصل كلمة (العَلمانية) ومفهومها نظراً لأعداد الدراسات المعاصرة المتفرقة في هذا المضمار؛ إلا أن جميع الدراسات تتفق على أن حقيقة العَلمانية تكمن في درجة الابتعاد عن (الدين) فبعضها يرفع من درجة الانحراف العَلماني ليبعد الدين بالكلية عن جميع مناحي الحياة، وتقترب عند آخرين فيكون ابتعاد (الدين) منحصراً في شؤون النظام والحكم.
لا حاجة بنا لأي حديث مع (المفهوم الأول)؛ لأنه مفهوم استئصالي للدين، ومثل هذا تنكره النفوس بداهة؛ فيكفي أن يفهم المسلم معناه حتى يرفضه وينكره.
وإنما تكمن الإشكالية في المفهوم الثاني الذي لا ينكر الدين ولا ينفيه وإنما يقطعه من أطرافه وينزل به من عليائه فيجعل من به من تحت سقف الإلزام والنظام والحكم.

ونسجل هنا بإشادة وإعجاب: أن جهود العُلماء والمصلحين والباحثين خلال عقودٍ من السنين في التحذير من العَلمانية وبيان خطرها وتشديد النكير على أصحابها قد ساهم في خلق حالة من الوعي والإدراك لدى الشعوب المسلمة في التنفير من العَلمانية حتى على المفهوم الأقل تطرفاً، وهو ما جعل كثيراً من العَلمانيين يتهربون من الانتساب إليها.

إذن! فالوعي المسلم مدرك لخطر العَلمانية بمفهومها المتطرف أو بمفهومها المعتدل (الأقل تطرفاً). والإشكالية التي هي بحاجة إلى وعي وبحث وعناية تكمن في تسرُّب بعض المفاهيم العَلمانية إلى الأحكام الشرعية؛ حيث أصبحت جملة

من الأحكام الفقهية تقـدَّم بصورة جديدة تجعلها مقبولة لدى التفكيـر (العَلماني)؛ فالتفكيـر العَلماني يرفض قيام القوانين والأنظمة فـي الدولة المدنية بناءً على (رؤيـة دينية)، ومن ثَمَّ فلا تحفُّظ لديـه على كثيرٍ من الأحكام الشـرعية التي ليس لهـا تأثير على النظام العام كأداء العبادات واجتناب المحرمات وأداء الصدقات... إلخ، وإنما الإشـكالية في الأحكام التي لها تأثير كالحدود ومنع المعاصي والإلزام بالواجبات، فجاءت هذه الخطوة لتتعامل مع هذه الأحكام بطريقة معيَّنة تجعلها مقبولة للتفكير العَلماني.

وهذا ما دفع بعضهم لرفع **خاصية (المنع) و (الإلزام)** من الأحكام الشرعية، فقدم الأحكام الشرعية على أنها أوامرُ ونواهٍ يُطلَب من المسلم فعلها أو اجتنابها، ومن يخالف في ذلك فيمكن مراقبته ومحاسـبته من خلال النصيحة والموعظة الحسنة من غيـر أن يكون ثَمَّ منع لهذه المحرمـات أو إلزام بتلك الواجبات فضلاً عن العقوبات والحدود، فرسمها في هذه الصورة بحالة مقبولة تماماً لدى التفكير العَلماني المعاصر.

وتطبيق الشـريعة وما يتبع ذلك من أحكام وآثار هو عند آخرين من آثار تطبيق الديمقراطية واختيار الأكثرية؛ فالإلزام والقوة في الحكم ليس راجعاً إلى كونها ديناً وشـريعة من رب العالمين وإنما لكونهـا قانوناً ونظاماً قد تعاقد عليه الناس كما يتعاقدون على أي نظام آخر من أنظمتهم الدنيوية.

وحدُّ الردة في الشـريعة الإسـلامية ليس هو للمرتد عن الإسلام كما كان الفقهاء يقولون، وإنما هو للخارج عن القانون والمتمـرد على الدولة؛ فيكون جزاؤه القتـل كما تعتمده النظم المعاصرة فيما يسمى بـ (الخيانة العظمى).

والزيادة المحرمة في الشـريعة من الربـا الذي يجب منعه ليسـت هي ما اتفق الفقهاء عليه من الزيادة على الدين وإنما هـي الزيادة علـى الفقراء بما يحصل به ضـرر لهم فيتدخل النظام لمنعه كما يتدخل لمنع أي ضرر دنيوي.

والجهاد في الشـريعة الإسـلامية ليس هو الجهاد لإعلاء كلمة الله، تعالـى؛ وإنما هو في القتـال للدفاع عن الأراضي المحتلة فقـط كما تقرره جميـع القوانـين المعاصرة في حق الشعوب لصد المعتدي على أراضيها.

وشـرط الإسلام الذي يتفق الفقهاء على ضرورة اتصاف كلٍّ من يتولى الرئاسـة العامة أو القضـاء أو الإمارة به أصبح أمراً تاريخيـاً متعلقاً بظرف معيَّن حين كانت الدول تقوم على التمايز الديني وقد زال سـببه مع الدولة المدنية التي تلغي تأثير الدين في التمييز بين المواطنين الذين تشملهم المساواة.

ووصـف الأنوثة المؤثر في (الشـهادة) و (الولاية) وفي غيرها كما اتفق عليه الفقهاء، أصبح متعلقاً كذلك بظرف زمني معيَّن كانت المرأة لا تشارك الرجال ولا تخالطهم وقد زال هذا المعنى في العصر الحاضر فلم يعد لوصف الأنوثة ذي الصبغة الدينية أي تأثير.

كذلك أصبح **(الولاء) و (البراء)** في معاملة غير المسلمين متعلقـاً بظرف زمانـي كان العداء فيه ظاهراً بين المسـلمين ومخالفيهم، فكان لا بد من حضور وصف البراءة منهم، ومن لا تكون حاضرة لديه فهو مظنة تهمة على ميله وتعاطفه مع العدو المحارب للدولة؛ وقـد زال هذا المعنى مع الدول المعاصرة التي تقوم علاقاتها على المصالح الدنيوية دون اعتبارات أخرى.

والضوابط الشرعية التي يلزم النظام حفظها في **العلاقة بين الرجل والمـرأة** هي محاربة الابتزاز وتجريم التحرش الذي تقرره القوانين المعاصرة لما فيه مـن تجاوز وتعدٍّ، مع إضعافٍ (أو تغييبٍ) للضوابـط الدينية المحضة كالخلوة والتبرج وغض البصر والخضوع في القول والمزاحمة... وغيرها.

وهكذا .. تبقى الأحكام الشـرعية على مسمياتها، بعد أن يُنتَزَع منها الوصف الديني الذي لا يستقيم مع الذائقة العَلمانية المعاصرة، وتُحَوَّل الأحكام الشرعية إلى كيفيات ومواقع مختلفة لا تتصادم مباشرة مع التفكير العَلماني المعاصر.

يا ليتهم علمـوا أن هذه الطريقة فـي التعامل مع أحكام الشـريعة قد تحقق مكاسب سريعة في التخلص من إحراجات الأسئلة العَلمانية المتلاحقة، وربما ترسم بعض صور الاستحسان والرضا لديهم عن الخطاب الشـرعي؛ غير أنها ستكون صك اعتراف منهم بأن الأحكام الشـرعية بصورتها الحقيقية تعاني مـن الخلل والقصـور، وأن هذا الاجتهاد المعاصر هو سـبيل التخلص من أزمة العيب الذي تلاحق الأحكام الشرعية.

إذن! فما سـيكون جوابهم عـن المخالف الفطن حين يقول لهم: إن القول الذي تفرون منه هو قول كافة الفقهاء وهم أعلم بالإسـلام وبفقه الشريعة منكم فإن كان في الأمر عيب ونقص وخلل فهو في ذات الشريعة باعترافكم!

إنـه تأويل للأحكام الشـرعية بطريقة تقرِّبهـا كثيراً من التفكيـر العَلماني وتخفف من غلواء ضغـط الثقافة المعاصرة عليهـا؛ غير أنها تبتعد عن مقاصد التشـريع وتخرج عن دائرة التفكير الفقهي بقَدْرِ بعدها عن النص الشـرعي، وربما دخلت على بعض الأفاضـل والأجلاء لاجتهادٍ وتأويـل هم مأجورون ومثابون عليه، وليس هذا حديث إسـاءة أو تقويم لهم؛ غير أن مراعـاة القائل واعتبار اجتهاده وقصده الحسـن لا يحول دون بيان خطأ الرأي وفساده والعوامل المؤثرة فيه.

بـ «انتفاضة السفن»
غـزة على أبواب كسر الحصار

غزة _ الجيل للصحافة - علا عطا الله -
مجلة البيان

على وَقْع دقات عقارب الحصار الثقيلة عادت غزة بسكانها وأهلها إلى الوراء؛ حيث بوابير الكاز وأفران الطين والمشي ألماً على الأقدام، ومع تراكم أيام حصارها الخانق، وبعد أن ضاقت بها الحياة بما رحبت نجح ٤٤ من المتضامنين الدوليين في ٢٤ أغسطس ٢٠٠٨م في تسيير أول قافلة بحرية لكسر الحصار المفروض على القطاع، وحملت آنذاك سفينةُ غزة الحرة على متنها المساعدات الإنسانية وكثيراً من الأمل بغدٍ أفضل.

وبينما استمر بركان الحصار في الاشتعال واصلت سفن التضامن طريقها إلى غزة لتؤكد أشرعتُها أن أحرار العالم يقفون جنباً إلى جنب مع آلام المدينة المحاصرة وجراحها المتدفقة.

مقاومة الحصار:

بعد مرور أكثر من ألف يوم على حصار غزة لا تكتفي سفن التضامن الدولية بالمجيء والإبحار، بل تعقد عزمها الأكيد على كسر الحصار إلى الأبد.

وعلى الرغم من المجزرة الإسرائيلية بحق سفينة مرمرة التركية في أيار الماضي؛ وهي التي أسفرت عن مقتل تسعة ناشطين كلهم من الأتراك، وإصابة العشرات؛ إلا أن وهج انتفاضة السفن ازداد واتسع وباتت الألسنة تُردِّد بثقة: «نحن قاب قوسين أو أدنى من كسر الحصار».

لقد تحدَّث «جمال الخضري» النائب في المجلس التشريعي ورئيس اللجنة الشعبية لمواجهة الحصار في غزة إلى البيان عن انتفاضة السفن واصفاً إياها بأنها: «إحدى أهم وسائل المقاومة لكسر الحصار المفروض على القطاع منذ أكثر من أربع سنوات».

وأكد الخضري على أن انتفاضة السفن استطاعت أن تشكِّل ضغطاً كبيراً على دولة الصهاينة، وأن تحرج كافة المحاصِرين لغزة، خاصة بعد الذي جرى لسفن أسطول الحرية من قرصنة إسرائيلية وقال: «اليوم باتت غزة تحاصر كلَّ من يحاصرها؛ وهناك عزم وإصرار شديد على الوصول للهدف المنشود وهو فك الحصار بالكامل عن القطاع، وفتحُ معابر غزة التجارية كلها بشكلٍ كلِّي، والسماحُ بتدفق السلع من دون استثناء، بما فيها المواد الخام اللازمة لتشغيل المصانع والأسمنت وأغراض البناء، وفتحُ الممر الآمن بين غزة والضفة لتنقُّل الأفراد، وافتتاحُ الممر المائي بإشراف أوروبي».

الضغط الدولي:

ونبَّه الخضري في حديثه إلى أن الاحتلال بات يعاني من حالة إرباك نظراً لتزايد التضامن الدولي مع غزة من شتى بقاع الأرض وتابع قائلاً: «نحن على أعتاب تحرُّك حقيقي وجادٍّ سيخلق واقعاً جديداً بمشيئة الله؛ فإسرائيل اليوم في مأزق حقيقي أمام شعبها وأمام القوى العالمية المساندة لها التي لم تعد تستطيع توفير الغطاء لممارساتها البشعة».

وقال الخضري: «إن مزيداً من السفن تحمل على متنها متضامنين من مختلف الجنسيات قادمة إلى شواطئ غزة لا تخيفها التهديدات الإسرائيلية، وهي مصمِّمَة على نقل المساعدات الإنسانية والإغاثية إلى السكان المحاصَرين» وأشار إلى أن كلَّ من شارك سابقاً يريد العودة للتضامن، غير آبهين بما قد يواجههم من صَلَفٍ صهيوني.

وكانت إسرائيل قد اعترضت في ٣١ مايو الماضي ٦ سفن ضمن (أسطول الحرية) الدولي ومنعتها بالقوة من الوصول إلى قطاع غزة لنقل إمدادات إنسانية؛ وهو ما أدى إلى مقتل ٩ متضامنين أتراك، وأثار الحادث انتقادات دولية حادة ودعوات لرفع الحصار عن غزة.

ومن جهة أخرى أكد الدكتور «أحمد يوسف» رئيس اللجنة الحكومية لكسر الحصار عن غزة في حديثه لـ البيان على أن السفن والقوافل البحرية لكسر حصار القطاع باتت من أهم حلقات النضال ضد الحصار الظالم.

ورأى أن انتفاضة هذه السفن غيَّرت أوجه الصراع؛ إذ باتت إسرائيل تواجه ضغطاً دولياً لم يسبق له مثيل، وحاولت أن تخفف من حدَّته بتجميل الحصار والادعاء بأنها ستسمح لمزيد من المواد الغذائية بالدخول.

ممر مائي:

وأكد د. يوسف أن من حق غزة المحاصَرة أن تفتح ممراً مائياً لتأتي إليها سفن التضامن المحمَّلة بالغذاء والدواء ولكي تُساهم في إعادة إعمار ما دمره الاحتلال في حربه الشرسة الأخيرة على غزة قبل عام.

وشدد أيضاً على أن حركة السفن والقوافل ساهمت في إبراز معاناة سكان القطاع مشيراً إلى أن هذه السفن كان لها الدور الأكبر والأبرز في فضح ممارسات الاحتلال وما يرتكبه من جرائم ضد الفلسطينيين.

وأعرب د. يوسف عن أمله في أن تشكِّل هذه الانتفاضة البحرية دافعاً للعالم للتحرك أكثر فأكثر لخلق تحوُّلات لإيجاد آلية لإنهاء الحصار وكسره بشكلٍ تام.

أما ممثل هيئة الإغاثة الإنسانية التركية (IHH) بغزة «محمد كايا» فقد أكد على أن مؤسسته عاقدة العزم على تسيير مزيدٍ من السفن، مؤكداً أنها استطاعت أن تسلط الضوء على معاناة السكان في غزة وتعزيز التضامن معهم.

وقال كايا في حديثه لـ البيان: «إن انتفاضة السفن ستستمر إلى أن يُكسَر الحصار عن غزة» وأضاف: «نحن كمؤسسات إنسانية مصممون على تقديم الدعم الكامل للقطاع المحاصَر، ويحدونا الأمل في أولئك الذين يحملون همَّ القضية من منظورٍ عقائدي وديني ووطني بأنهم سيتحركون في كل الاتجاهات من أجل إنقاذ غزة».

ويرى ممثل الهيئة الإنسانية التركية أن لانتفاضة السفن تأثيراً إيجابياً كبيراً فعَّالاً؛ إذ قامت بتحريك العالم وإثارته، وصار الجميع يتحدث عن حلول لرفع الحصار.

ويعقد الفلسطينيون في القطاع المحاصر الآمال الكبيرة - بعد الله تعالى - على هذه السفن القادمة، وباتوا يرون في قدومها كلمة السر في فك الحصار ورفعه نهائياً.

وكانت جهات عديدة في العالم قد وعدت بتسيير مزيدٍ من السفن والأساطيل إلى قطاع غزة خلال الأسابيع والأشهر القادمة.

أهلاً بـ «الدواء»:

بكثير من الترحيب وتصفيقات الحب يستقبل أهالي القطاع السفن التضامنية القادمة، تلك التي تحمل على متنها الدواء لجراحهم وأوجاعهم، والغذاء لصغارٍ أرهقهم الجوع وأنَّاته.

وبروح تشع تفاؤلاً رأى الطالب الجامعي أيمن حميد (١٧ عاماً) في سفن كسر الحصار فرصة حقيقية لإنهاء معاناة سكان القطاع وقال في حديثه لـ البيان: «واضح أن ثمة حراكاً خاصة بعد المجزرة الأخيرة بحق أسطول الحرية... فالعالم يقف الآن أمام تحدٍّ كبيرٍ من أجل الوقوف إلى جانب الحق ونصرة المظلومين».

وإلى جانب الطالب الجامعي يتمنى التاجر «عبد الكريم حمادة» أن تكون انتفاضة السفن وعزمها على المضي قُدُماً نحو القطاع بمثابة بداية النهاية لكسر الحصار وقال: «أكثر من أربع سنوات ونحن نعاني قسوة الحصار... والآن كلنا أمل في أن يُتوَّج هذا الحَراك بكسرٍ حقيقي وإلى الأبد للحصار».

ويتمنى الحاج أبو أنور (٥٦ عاماً) وهو يقف أمام منزله المدمَّر وكومات الخراب التي أحدثتها الحرب الإسرائيلية على غزة قبل أكثر من عام أن يتم بناء منزله ليودع - وللأبد - خيمةً أذاقته ويلات حرِّ الصيف وصقيع الشتاء ويعلِّق الحاج أبو أنور - كغيره من آلاف المشردين - أَمَله على حركة التضامن الدولي للضغط على الاحتلال من أجل إنهاء الحصار على غزة، والسماح لمواد البناء والإعمار بالدخول بعد سنواتٍ من المنع.

وترتفع معنويات جرحى الحرب ومَنْ أقعدتهم نيران الاحتلال بمجيء السفن القادمة وما تحمله من مئات المقاعد المتحركة؛ فهذا سامر (وهو أحد هؤلاء الذين استطاعوا الحصول على مقعدٍ متحرك من إحدى سفن التضامن) يتمنى أن تأتي سفن التضامن من كلِّ حَدْبٍ وصوب من أجل رفع الحصار وتخفيف معاناة المواطنين.

ويأمل كثير من العاطلين عن العمل أن يدب النشاط في المدينة المحاصرة بدخول مواد البناء؛ ليتمكنوا من العمل بعد طول انقطاع.

رحلة السفن:

منذ أعوام خلت سَيَّر المتضامنون مع الفلسطينيين المحاصرين في قطاع غزة تسع رحلات بحرية تمكنت أربع منها من الوصول، ومُنِعت الأخريات. وفيما يلي خط سيرها:

في ٢٠٠٨/٨/٢٣م وصلت سفينتا «الحرية» و «غزة الحرة» إلى غزة في أوَّل محاولة كسر بحري للحصار الصهيوني الظالم على القطاع، تحمل على متنها أكثر من أربعين متضامناً من ١٧ دولة، وذلك بعد رحلة امتدت أربعين ساعة في عرض البحر، ولما غادرتا أقلَّتا ستة فلسطينيين يملكون أوراقاً ثبوتية قبرصية كانوا عالقين هناك.

وفي تاريخ ٢٠٠٨/١٠/٢٩م وصلت سفينة «الأمل» إلى قطاع غزة في ثاني محاولةٍ كسرٍ بحري للحصار وعلى متنها ٢٧ ناشطاً ينتمون إلى عشر دول، وكانت تحمل معدات طبية وأدوية، وأقلَّت السفينة أيضاً النائب العربي في الكنيست الإسرائيلي جمال زحالقة، والسيدة ميريد كوريجان ماجويري

الفائزة بجائزة نوبل للسلام، وعدداً من الأطباء الأجانب الذين قاموا بإجراء عدد من العمليات الجراحية العاجلة في القطاع.

أما في ٨/ ١١/ ٢٠٠٨م فقد وصلت إلى غزة سفينة الكرامة قادمةً من ميناء «لارنكا» القبرصي وعلى متنها اثنان وعشرون شخصية برلمانية أوروبية وصحفيون ومتضامنون أجانب، إلى جانب مشاركة وزيرة التعاون الدولي في حكومة توني بلير السابقة (كلير شورت).

ثم في ٢٠٠٨/١٢/٢٠م وصلت إلى غزة سفينة «الكرامة القطرية»؛ وهي تحمل شخصيات تمثِّل جمعيات خيرية قطرية وعدداً من المتضامنين الأجانب والصحفيين، وطَنّاً من الأدوية والمستلزمات الطبية.

أما السفن التضامنية التي منع الاحتلال وصولها فهي سفينة «المروة الليبية»، وذلك في ٢٠٠٨/١٢/١م، وهي أول سفينة مساعدات عربية كانت تحاول الوصول لشواطئ غزة لتفريغ حمولتها التي بلغت ٣ أطنان من الأدوية.

وفي تاريخ ٢٠٠٨/١٢/٧م منع الاحتلال «سفينة العيد» من الإبحار من ميناء يافا تجاه شواطئ غزة وصادرها وكلَّ ما تحمله من مساعدات طبية وإغاثية وهدايا للأطفال مقدَّمة من القيادات الفلسطينية وأبناء الشعب الفلسطيني في الداخل الفلسطيني.

وفي ٢٠٠٩/٢/٢م منع الاحتلال وصول سفينة «الأخوة اللبنانية» بعدما رفضت الانصياع لأوامر الزوارق الحربية الإسرائيلية بالرجوع بحمولتها من حيث أتت، واعتقلت فريقها لعدة أيام بعد مداهمة السفينة والاعتداء عليهم.

وفي ٢٠٠٩/٦/٣٠م اعترضت زوارق حربية إسرائيلية طريق سفينة «روح الإنسانية» التي كانت تحمل مساعدات إنسانية، وكانت تسيِّرها حركة غزة الحرة وهي في طريقها من قبرص إلى غزة حاملة عشرين ناشطاً سياسياً وحقوقياً عرباً وغربيين، إضافة إلى كميات من المساعدات الطبية والأدوية.

أما في ٢٠٠٩/١/١٤م فقد منع جيش الاحتلال وصول سفينة الكرامة التي كانت تسيِّرها حركة غزة الحرة، وكانت تحاول القدوم إلى غزة في فترة الحرب الإسرائيلية على غزة.

مجزرة الأسطول:

أما آخر السفن – وهي التي أحدثت حراكاً كبيراً – فقد كانت سفن «أسطول الحرية» الذي تعرَّض لقرصنة إسرائيلية في عرض المياه الدولية أودت بحياة تسعة متضامنين أتراك وجرحت العشرات منهم.

ويُعَدُّ هذا الأسطول الأضخم من حيث حجم السفن والمساعدات المحمَّلة على متنه؛ إذ تكوَّن من ثماني سفن، وحمل على متنه ٧٥٠ مشاركاً من أكثر من ٤٠ دولة، بينهم ٤٤ شخصية رسمية وبرلمانية وسياسية أوروبية وعربية، كما حمل أيضاً أكثر من ١٠ آلاف طن مساعدات طبية وموادَّ بناء وأخشاباً، و١٠٠ منزل جاهز لمساعدة عشرات آلاف السكان الذين فقدوا منازلهم في الحرب الإسرائيلية قبل أكثر من عام فضلاً عن ٥٠٠ عربة كهربائية للمعاقين حركياً.

وقد استقبلت غزة بـ «فاجعة كبيرة» خبر الاعتداء الإسرائيلي على أسطول الحرية. ووصفت أطراف فلسطينية ما جرى بأنه «جريمة مُركَّبة» وأن ما فعلته إسرائيل «فضيحة سياسية وإعلامية».

ونددَّت المؤسسات الحقوقية بما جرى على متن السفن وقالت: إن المتضامنين مدنيون لا يحملون سوى مساعدات إغاثية ورسالتهم إنسانية تطالب فقط بضرورة التحرك لإنقاذ سكان غزة المحاصرين.

والآن والحديث جارٍ عن سفنٍ قادمة عربية ودولية ترتفع الأصوات بأصحاب الضمائر الحية وأحرار العالم أن يزيدوا تمسُّكهم بنصرة غزة والتضامن معها.

مؤرِّخ أنصار السُّنة المحمدية

الشيخ فتحي عثمان في حوار خاص لـ «البيان»:

من أوجب الواجبات أن تحافظ الدعوة على مبادئها

هو الشيخ فتحي أمين عثمان، من مواليد عام ١٩٣٥م، حصل على الليسانس من كلية الآداب، جامعة القاهرة، قسم التاريخ، كما حصل على دبلوم خاص في الدراسات والبحوث الإسلامية.

عمل الشيخ فتحي عثمان كمدرس للتربية العسكرية بالجامعات المصرية قريباً من خمسة عشر عاماً، ثم عمل مديراً عامّاً للتعليم بجامعة القاهرة ثلاثة عشر عاماً أخرى، وأخيراً مديراً لإدارة التراث بجمعية أنصار السُّنة المحمدية بالقاهرة. ومن إنتاج الشيخ العلمي:

- مختارات من كتابات: أبي الوفاء درويش.
- قضية الأولياء ومحبتهم.
- قضية التوسل والوسيلة.
- من ضلالات الصوفية.
- سيد الخلق بشر.
- عبد الرحمن الوكيل وقضايا التصوف.
- رسائل في الشرك والبدع.
- الإمام محمد حامد الفقي (رائد السلفية في مصر).
- حكم الاحتفال بليلة النصف من شعبان.
- حكم الاحتفال بالمولد النبوي.
- أسباب البدع ومضارها، وأنواعها.
- من جنايات الابتداع على المسلمين.

أجرى الحوار: جلال الشايب

«البيان»: شيخَنَا الجليل! يُعدُّ عملكم في جمعية أنصار السُّنة المحمدية بالقاهرة كمديرٍ لإدارة التراث فيها مرحلةً أساسيةً من حبكم لتوثيق التراث الإسلامي عامة؛ وخاصة تراث جماعة أنصار السُّنة؛ فما سبب إنشاء مركز التراث داخل الجماعة؟

■ نظراً للفارق الزمني الكبير بين الجيل الأول لنشأة أنصار السُّنة وعلمائها؛ والأجيال المعاصرة؛ حيث تعرضت الجماعة لمحنة الدمج في الجمعية الشرعية، وتفرق علماء المرحلة الوسيطة، ولما أعيد كيان الجماعة مرة أخرى - بحمد الله - كان همُّها إعادة بناء دارِ الجماعة؛ وكذا فروعها، وقد وجدنا أن وثائق الجماعة قد اندثر كثير منها؛ غير بقيةٍ من الكتب، وبعض الكتابات في بيوت أفراد الجماعة على نحوٍ متفرق؛ نظراً لذلك فقد وجدنا أن علينا إنشاء مركزٍ للتراث، يهتم بكل أنواع تراث الجماعة: من كتب وأبحاث، وحتى المقالات التي نُشرت في أماكن متفرقة، وغيرها من تخصصات المركز التي جاءت فيما بعد.

وحينما منَّ الله على الجماعة ببناء مقرٍّ لها؛ تم تخصيص دَوْرٍ كاملٍ فيه لمكتبة كبيرة، أفرغنا فيها قاعات لطلاب العلم والباحثين؛ الذين دفعتهم سلسلة التراجم التي نشرتها مجلة التوحيد إلى المجيء إلى مقر الجماعة، وزيارة مكتبتها العامة التي صارت مقرّاً لمركز التراث فيما بعد.

ومن هنا قدَّمتُ عرضاً لمجلس الجماعة بأن تكون هناك إدارةٌ للتراث الخاص بعلماء الجماعة وشيوخها؛ بحيث يكون كمركزِ تخصُّصٍ دقيقٍ للباحثين في الدرجات العلمية: الماجستير والدكتوراه.

وما إن تمَّت الموافقة حتى قمنا بجمع الكتب والرسائل التي حققها أو كتبها علماء الجماعة القدامى والمحدَثُون، بل احتوى المركز على نُسَخ مما طبعته الجماعة لعلماء سابقين ولاحقين، وقامت بتوزيعه، وجمعتُ في المركز تفاسير علماء الجماعة وفتاواهم، كما أضفتُ فتاوى شيخ علماء السعودية، سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، التي قُدِّمت كهدية للجماعة من معالي حفيد الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، وضمنتُها فتاوى ابن تيمية، وفتاوى دار الإفتاء المصرية، وفتاوى اللجنة الدائمة بالمملكة العربية السعودية، وهو جُهد المُقِل.

البيان: أكدتم - بارك الله بكم - على أن سلسلة التراجم التي نشرتْها مجلة التوحيد، هي التي دفعت طلاب العلم والباحثين إلى مركز التراث دفعاً للوقوف على كتب وآراء علماء الجماعة في مختلف القضايا؛ فمتى بدأتم في سلسلة التراجم؟ وكيف أتتكم الفكرة؟ وهل واجهتكم أي معوقات في هذا الأمر؟

■ فكرة كتابة التراجم بدأت منذ عام ١٤١٥هـ، زمن رئاسة الشيخ صفوت الشوادفي - رحمه الله - لمجلة التوحيد، وإن كانت جذورها في نفسي قديمة منذ أن قرأت تراجمَ كتبها الشيخ محمد حامد الفقي عن معاصريه من العلماء، أمثال: السيد رشيد رضا، والشيخ فوزان السابق، والشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، وما كتبه عن السابقين عندما كان يحقِّق كتبَهم.

كما كانت أبرز ترجمة نُشرت عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب عام١٣٧٠هـ بقلم الشيخ أبو الوفاء درويش حَبْر صعيد مصر وعالمه.

أضف إلى ذلك أنني بحكم دراستي بقسم التاريخ بكلية الآداب سبق أن قرأت في كتب السير أثناء مرحلة الليسانس؛ وما تلاها من دراسات عليا. ثم كان من ألزم الأمور التي يقتضيها البحث قبل الكتابة عن الشخصيات الإسلامية؛ هي الإحاطة بمراحل حياتها، وكذلك إنتاجها العلمي، وقد توفرت لي كتب كثيرة للاطلاع عليها أولاً في مكتبة الجامعة حيث كنت أعمل بها، ثم مكتبة جماعة أنصار السُّنة، وكذلك مكتبتي التي كنت قد بدأت في إنشائها منذ زمن بعيد، خاصة أنني كنت قد جمعت في بيتي مجلة الهدي النبوي كاملة (١٣ مجلداً) واستغرق جَمعُها قرابة عشرين عاماً. ومن أبرز الخدمات التي قدَّمها مركز التراث للباحثين، تاريخ وتراث الصحافة السلفية التي قاربت مائة عام، وخاصة مجلات: (المنار - الهدي النبوي - التوحيد).

كل ذلك ليتسنى للباحثين من خلال الاطلاع على هذا التراث أن يكتبوا عن مسيرة الكتابة السلفية، وعن الخطوط العريضة والدقيقة التي تضمها مما نُشِر فيها: من تفسير القرآن الكريم للشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ حامد الفقي وتلاميذه؛ إذ إن الشيخ رشيد فسَّر حتى سورة يوسف، ثم تابع الشيخ حامد الخط فبدأ بتفسير سورة الرعد ثم إبراهيم، ثم الحجر، فالنحل، ومات بعد أن فسر إحدى عشرة آية من سورة الإسراء، وتابع بعده الشيخ عبد الرحمن الوكيل، ثم الشيخ الدكتور سيد رزق الطويل. وفي المستقبل ستجري مناقشة رسالة ماجستير بكلية (دار العلوم - جامعة القاهرة) تحت عنوان: (الشيخ محمد حامد الفقي؛ وجهوده في التفسير هو وتلاميذه).

كما تتضمن سلسلة التراجم الكتابة عن أوجه الإتقان والاختلاف بين هؤلاء المفسرين، وكيفية فهمهم لكتاب الله، تعالى.

البيان: كيف تعاملتم مع تراث قيادات الجماعة كالعلاَّمة الشيخ عبد الرزاق عفيفي، والشيخ عبد الرحمن الوكيل، وفضيلة الشيخ عبد الظاهر أبو السمح، والمحدِّث البارز أحمد شاكر، والشيخ محمد عبد الحليم الرمالي، وغيرهم؟

■ جرى التعامل مع تراث شيوخ وعلماء الجماعة بمنهجية عظيمة، ابتدأناها بمحورين أساسين، هما:

- المحور الأول: البحث في مكتبات علماء الجماعة المعاصرين، فقمت بكتابة رسالة ناشدت فيها أعضاء

الجماعة بتقديم ما لديهم من كُتب أو تسجيلات لشيوخ الجماعة القدامى، بل ذهبت إلى بعض البلدان كسوهاج ودمياط وأسوان وغيرها من الأماكن؛ حيث يوجد بعض أعضاء الجماعة هناك الذين لديهم أعداد من مجلة الهدي، أو كتب، أو رسائل للشيوخ الكرام.

– ويتلخص المحور الثاني: في الاتصال بورثة الشيوخ أنفسهم للبحث لديهم عن تراث آبائهم؛ ويجب أن تعلم أن ثمة صعوبات جمة قابلتنا في جمع هذا التراث العظيم، ومما زاد الأمر تعقيداً أننا عندما حاولنا إعادة نشر ما جمعناه عن طريق بعض المكتبات؛ كانت تُنشَر على استحياءٍ شديد؛ نظراً لوجود حقوق للنشر الخاص بورثة العلماء.

وهنا برزت لديَّ فكرة عرض التراث بطريقة جديدة ليس للورثة فيها حق الامتناع أو حتى الإذن، وهي:

أولاً: تحديد عدة قضايا هامة تتعلق بالعقيدة والتصوف والفِرَق.

ثانياً: عمدت إلى ما كتبه الشيوخ حول كل قضية فجعلتها بحثاً منفصلاً؛ جمعت فيه كلَّ ما كتبه الشيوخ والعلماء.

ثالثاً: كان من أهم الأمور التي نشرناها، ولقيت رواجاً واستحساناً من الإخوة الأعضاء ما يلي:

عقيدة التوحيد – قضية الأولياء – قضية التوسل والوسيلة – حكم الاحتفال بليلة النصف من شعبان – حكم الاحتفال بمولد النبي ﷺ – مجموعات من الرسائل تحت عنوان (رسائل في الشرك والبدع)، وأهم من كل ذلك إبراز دور أنصار السُّنة في الوقوف في وجه البدع والترهات والخرافات، والرد على مزاعم الصوفية وضلالتهم.

رابعاً: جمع ما كتبه علماؤنا من أمثال الشيخ حامد الفقي، والشيخ أبي الوفاء، والشيخ أبي السمح، والوكيل، والهراس في مجلة الهدي النبوي، ويشمل ذلك التفاسير، والمقالات، والفتاوى العلمية.

البيان: ما هي أهم المعوّقات التي واجهتموها أثناء رحلة البحث والتنقيب عن تراث علماء الجماعة غير مشكلة الورثة وحقوق الطبع المحفوظة؟

■ من أهم المعوقات التي واجهتنا غير التي ذكرت:

١ – عدم وجود مجلة الهدي كاملة عند إنشاء المركز، فوجب علينا البحث على كامل أعدادها لتكتمل الفكرة التي قررنا أن نخطوَ خلالَها ليخرج هذا التراث للنور.

٢ – ضعف التمويل النقدي لطبع كل هذه الإصدارات التي أصدرناها في المركز؛ وهو ما ألزمني حتى الآن بطبع ستة عشر كتاباً فقط، نفدت جميعها، وقد تفاوتت فروع الجماعة في توصيلها إلى الأعضاء وغيرهم، كما قمنا بإرسال كثير منها إلى المعاهد والجامعات العلمية؛ ليتعرفوا على الجماعة، وعلى منهجها وعقيدتها، ودورها في تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد.

البيان: كان لشخصية الشيخ محمد حامد الفقي – رحمه الله – أثر كبير في انطلاقة الجماعة ونجاحها؛ فكيف تعامل فضيلته مع هذه الأجواء المتلبدة بغيوم البدع وسحائب الخرافات؟

■ تعامل فضيلة الإمام الشيخ محمد حامد الفقي مع ما كان في زمنه من بدع وخرافات وترهات بسبب الخلل في التلقي، والاعتقادات، والعبادات، وتسعون بالمائة من الأمة وقتها كانوا على جاهلية في الاعتقاد، وجاهلية في المعاملات وحركة الحياة.

ففي زمن ظهور دعوة الشيخ الفقي – رحمه الله – كان قد شب حريق هائل من البدع والوثنيات التي تغلغلت في نفوس المقلدين؛ حيث عشش الشيطان في عقولهم وباض وفرَّخ؛ إنه حريقٌ دون إطفائه خرط القتاد، تعامل الشيخ مع ذلك بعزيمة لا تَكَلُّ وإرادة تفل الحديد متمثلة فيما يلي:

أولاً: كان منهجه – رحمه الله – أنه لا يرى الحجة إلا في كتاب الله، وسُنة النبي ﷺ، كما كان يقيس الرجال بالحق ويزنهم بميزانه، ولا يقيس الحق بالرجال، ولا يجد حرجاً في نقد العلماء مهما بلغت منزلتهم ومكانتهم، وكان دائماً ما يقول: إن التعصب للرجال مسرب من مسارب الشيطان إلى الوثنية.

ثانياً: كما كان يدعو الناس في المساجد والندوات والدروس إلى ضرورة الإقبال على كتاب الله قراءة وفهماً وتدبُّراً، وعدم وضع العراقيل أمام الناس بدعوى أن القرآن الكريم لا يفهمه إلا طبقة معيَّنة من العلماء والأئمة.

ثالثاً: كانت له أساليب وطرق متنوعة في محاربة البدع والتقليد الجاهل الأعمى للآباء والأجداد والشيوخ؛ هادفاً من خلاله إلى اجتثاث المنكرات من داخل النفس أولاً قبل إزالته ظاهراً.

رابعاً: عمد إلى تفسير القرآن في مجلة الهدي، وخطب

الجمعة، ودروسه في المساجد، ودار أنصار السُّنة المحمدية، فربط بين آيات القرآن في معانيه ومقاصده، وبيَّن ما عليه الناس في ذلك الوقت من بدع وضلالات، وعيادة المقبورين، والتعصب للعلماء لا للحق، وكل حزب بما لديهم فرحون.

خامساً: أضف إلى ذلك عنايته فضيلته بتحقيق وطبع كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم وغيرهما كثير، وكذا الاشتراك مع الشيخ أحمد شاكر في تحقيق كتب الحديث، ويعتبر تحقيقه لكتاب (جامع الأصول)، بمشاركة الإمام عبد المجيد سليم (شيخ الأزهر آنذاك) هو أكبر كتاب حققه الإمام الفقي في علم الحديث؛ وتم طبع الكتاب لأول مرة على نفقة جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود.

البيان: كيف تصف تعاون الشيخ الفقي مع من سبقوه في طريق الإصلاح، في محاولة منهم جميعاً لإعادة الأمة إلى منهج الحق والرشاد، والوصول إلى السبل القويمة الصحيحة لدعوة الناس إلى التوحيد؟

■ امتدت علاقات التناصح والتعاون المشترك مع الآخرين داخل مصر وخارجها: فكان داخل مصر يقوم بالتالي:

• كان يدعوهم جميعاً إلى زيارة مقر الجماعة، وحضور اللقاءات التي تعقدها الجمعية، كما كان يزور شيوخه ومعاصريه أمثال الشيخ الزنكوني والشيخ عبد المجيد سليم، وكذلك كان يزور الشيخ محمد محمد شاكر وكيل الأزهر ووالد المحدث أحمد شاكر الذي كان التعاون العلمي بينهما كبيراً، حتى إن الشيخ حامد عهد إلى صديقه وأخيه أحمد شاكر بإدارة مجلة الهدي النبوي عام ١٣٧٠هـ، وكذا تحقيق مختصر سنن أبي داود، وتفسير الصابوني.

• دعوته لعلماء عصره من كل الأقطار الإسلامية للكتابة في مجلة الهدي؛ أمثال الشيخ محمود شلتوت، والشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، والشيخ محمد محمد مخيمر، والشيخ نور الدين الصومالي.

• كما كان يُرسل فتاوى إلى العلماء والمشايخ ليجيبوا عليها ثم يعيد نشرها في مجلة الهدي، وهو ما حدث مع الشيخ بهجت البيطار مثلاً، وأيضاً إذا جاءته فتوى تتعلق بشأن الاعتقاد كان يُرسلها إلى الشيخ عبد المجيد سليم مفتي الديار، وينشرها مُعلِّقاً على ذلك بأنها وردت إليه من دار الإفتاء المصرية.

• وحرص الشيخ حامد على حضور درس الإمام الأكبر الشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر، وهو الذي كان يحضره

لا بد من ربط تراث كل جماعة بسلسلة متصلة الحلقات من الرجال والأبحاث، لتيسِّر للمسلمين الاطلاع على إنتاجها العلمي؛ خاصة في زمن صارت المعارفية فيه أهم من المعرفة ذاتها.

ملك البلاد، ووزراؤه، وكبار رجال الدولة آنذاك، ويقوم الشيخ بكتابة المحاضرة ونشرها في مجلة الهدي النبوي.

• كان ينشر بعض الأحاديث الإذاعية لكبار العلماء الموحدين.

• شكل في عام ١٣٥٦هـ مجلس هيئة علماء الجماعة، وكان على رأسه الشيخ محمد عبد الحليم الرمالي، كما كان من بين أعضائه أحمد شاكر، وعبد الرزاق عفيفي، وجمع من العلماء أصحاب الاعتقاد الصحيح.

وامتد تعاون الشيخ حامد مع علماء عصره من غير مصر؛ فمثلاً:

• كانت له صِلات طيبة علمية مع جماعة الحديث بالهند.

• كان على صلة كبيرة بعلماء السعودية؛ وخاصة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي الذي علمت أنه كان بينه وبين الشيخ حامد مراسلات بلغت خمسين رسالة[1]، وقد كتب عنه يوم وفاته تحت عنوان: (عرفت الشيخ السعدي)، ذكر ما كان بينهما من صلة علمية وروحية على بُعْدِ المسافات الجسدية.

• وكذلك كان وثيق الصلة بعلماء آل الشيخ وخاصة الإمام محمد بن إبراهيم الذي كان دائماً يتشاور معه عند طبع كتب جده محمد بن عبد الوهاب، أو كتب ابن تيمية، أو ابن القيم، وكان الشيخ حامد يذكر الإمام محمد بن إبراهيم بالثناء والعرفان؛ لما يبذله من علم ومال وتوجيه طيب، وقد جاء إلى جماعة أنصار السُّنة المحمدية عام ١٣٧٠هـ واستقبله الشيخ محمد حامد الفقي وعلماء الأمة المصرية وكبار مفكريها.

• ويبقى أن نذكر أن الشيخ محمد حامد الفقي كانت له

(١) انتهى أمر هذه الرسائل الخمسين إلى العالم الجليل محمد بن صالح بن عثيمين، رحمه الله.

صلة بوجيه جُدَّة في ذلك محمد بن نصيف الذي أحضر للشيخ كثيراً من المخطوطات من بلادٍ عديدة، وقد علمت من أحد الباحثين أن مكتبة ابن نصيف أهداها كاملة لجامعة الملك عبد العزيز بجُدَّة؛ وفيها مجموعة كاملة لكتب الشيخ حامد، وأيضاً نسخة كاملة من مجلة الهدي النبوي، ومجلة الإصلاح التي كان يصدرها الشيخ حامد الفقي من عام ١٩٢٨م إلى عام ١٩٣١م، وتوقفت بعد رحيل الشيخ من السعودية.

البيان: ذكرتم في مقالٍ لكم أنكم شاركتم الشيخ الجليل صفوت الشوادفي في تنظيم إدارة الدعوة عام ١٩٩١م بالمركز العام للجماعة؛ فما وصفكم لهذه الفترة من حياة الشيخ الشوادفي، وإلى أي حدٍّ وصلت طموحاته وآماله في طريق الدعوة، وما كان موقفه مع مشايخ مصر وعلمائها الأجلاَّء؟

■ لقد جرى انتخابي في مجلس إدارة المركز العام قبل عام ١٩٩١م، وفي العام التالي جرى انتخاب الشيخ الفاضل محمد صفوت الشوادفي، فأصبح في مجلس الإدارة جَمْع من علماء الجماعة ورجالها، وقد قدَّر الله لي أن أكون مع الشيخ في إدارة الدعوة والإعلام، وبدأت فترة بناء وطموحات واسعة تتميز بالتخطيط والتنظيم والمسيرة الجادة في العمل المبني على الإدارة العلمية.

لقد كان – رحمه الله – صاحب فكر، ورأي ثابت، ومخططاً جيداً لتحقيق الأهداف؛ حتى إنه أنشأ إدارة للتخطيط وتولى رئاستها، وظهرت آثار تعاوننا معاً في تنظيم مجلة التوحيد، والبحث عن مجلة الهدي النبوي وجمعها؛ فكان أن أَدخَل في أبواب مجلة التوحيد (باب من روائع الماضي) يذكر فيه ما كتبه شيوخ الجماعة الأُوَل، وبدأت أكتب باب التراجم كنوع من التعريف بعلماء السلفية وفاءً لهم.

ولقد كان يسأل كثيراً عن منهج علماء الجماعة السابقين، ويناقش بعض الأقضية دون تعصب لرأي، بل قد يُخالف في بعض الأحيان ولكنه يحترم، ولسان حاله يقول: (كلٌّ يؤخذ منه ويرد)، و (اختلاف الرأي لا يُفسد للود قضية)، ويكفي أنه قام بطبع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية كما وضع مختصراً لفتاوى دار الإفتاء المصرية، وكتب كتاباً عن اليهود، وعرَّف بالماسونية، وحذر من خطر الروتاري.

إن من ثمار التراث: تقديم المساعدة العلمية عن شيوخ الجماعة، وتوفير المراجع والكتب والوثائق، بل المحاضرات والخطب الصوتية للباحثين.

البيان: نعود إلى مركز التراث؛ فهل يقتصر عمل المركز على تراث الجماعة فحسب، أم يتعداها ويمتد إلى تراث الأمة كلها؟

■ لا أستطيع أن أدعي أنه في هذه المرحلة يمكن تجاوز الاهتمام بتراث الجماعة؛ وذلك لسببين:

أولاً: حتى نستطيع ربط أجيال الجماعة بوحدة المنهج وأسلوب الدعوة؛ علماً بأن غالب إنتاج شيوخ الجماعة كان إحياءً لتراث العلماء السابقين والتعريف بهم؛ وذلك بقيامهم بتحقيق كتب لهم لم تكن معروفة لكثيرين ولا مسموحاً تداولها نظراً لموقف أصحابها من فرق الضلال.

ثانياً: بعد أن يتربى جيل من الباحثين في تراث علماء الجماعة، فهم غالباً سيحصِّلون تراث العلماء الماضين، وعندما تتوفر الإمكانات فإن لدينا في الجماعة مكتبة تراثية كبيرة تكاد تشغل دوراً كاملاً في المبنى.

البيان: التراث الإسلامي يمثل جذور الأمة، فما هو تقييمكم لكيفية تعامل علماء الأمة ومؤسساتها مع تراثها؟ وإن كنتم ترون تقصيراً مَّا، فما الحلول المقترحة في هذا الشأن؟

■ إن التعامل مع تراث الأمة حالياً يجب أن يختلف عن السابق، فقد كان الناس إلى زمن قريب يحفظون المتون، بل يحفظون كتب الحديث، لكن الآن وقد تغيرت وسائل المعرفة من إحاطة ومعرفة أو حفظ إلى ما يسمى بالمعارفية، أي أن يعرف الباحث مواضع مادة بحثه في المراجع وكيفية الحصول عليها بواسطة التقنيات الحالية.

البيان: هل إيجاد مركز للتراث كمركزكم يعد الآن ضرورة مُلِحَّة في كل جماعة أو جمعية إسلامية، تحفظ بها تراثها ومؤلفاتها؟

■ اعلم أخي الكريم أنه لَمِن أوجب الواجبات، وأَلْزَم اللوازم أن تظل كل دعوة أو جماعة إسلامية محافظة على مبادئها التي قامت من أجلها، وكذا منهجها الذي انتهجته لنفسها، ولا بد من ربط تراث كل جمعية أو دعوة بسلسلة متصلة الحلقات من الرجال، والأبحاث، لتُيَسر للمسلمين الاطلاع على إنتاجها العلمي خاصة في زمن صارت المعارفية

فيه أهم من المعرفة ذاتها؛ وذلك بعد تيسُّر سبل الحفظ، وسبل الاسترجاع، وسبل الاتصال.

ويفضَّل أن تربط هذه الجمعيات مراكزها بشبكة المعلومات الدولية حتى يجري التواصل بينها وبين غيرها لتحقيق التعاون المثمر بينهم.

البيان: يهاجم العلمانيون التراث الإسلامي ويصفونه بأنه يمثل عائقاً صلباً أمام تقدُّمها وازدهارها، بل يعتبرونه السبب في تخلُّفها عن ركب التقدم العالمي والحضاري؛ فما ردُّكم على هذه المزاعم؟

■ دعك من قول العَلمانيين أو الماديين الجاحدين؛ فمن جهل شيئاً عاداه؛ وهم يجهلون التراث بحجة الحداثة والمعاصرة. أما الرد على مقولة: إن التراث سبب في تأخر مسيرة الأمة عن ركب التقدم العالمي فبسيط جدّاً؛ وهو أن الغرب - كما يقول المنصفون فيه -: أشعل مصابيح حضارته من مشاعل العرب والمسلمين، ويكفي أن تعرف أن ابن النفيس قد اكتشف الدورة الدموية الصغرى، قبل هارفي بـ ٤٠٠ سنة، وأن ابن خلدون هو أبو علم الاجتماع... وغيرهما كثير.

البيان: ما هي خططكم المستقبلية في التعامل مع التراث بوجه عام، وتراث الجماعة بوجه خاص؟

■ المشروعات المستقبلية لتطوير مركز التراث وتتمثل في:

١ - التفرغ للدراسة، وهذا يحتاج إلى كفالة طلاب علم، وهذا غير متاح لنا الآن.

٢ - سوف يعقد المركز حلقات بحثيةً (سمنار) تُخصَّص كل حلقة لعلم من العلوم، وتتكون من عَشَرة باحثين، ويُندَب لها من الجامعات أساتذة متخصصون بدراسة المواد يدربون الطلاب على طرائقَ ومناهجِ البحث العلمي فيها.

٣ - يختار الأستاذ المشرف على السمنار مجموعة من الأبحاث التخصصية؛ بحيث يُعطي كلَّ طالب موضوعاً، ثم يُحدد ميعاد عرض ومناقشة الباحث بحضور باقي الباحثين، ومن يريد من علماء الجماعة، وهكذا كل واحد يُلقي بحثه ويتعرض للمناقشة؛ فبعد قضاء عام واحد في قاعة البحث يكون الباحث قد تدرب على عمل الأبحاث كما يكون قد استفاد من أبحاث زملائه. على أن يعم ذلك غالب العلوم التي تحتاجها حركة الدعوة وتطوُّرها.

٤ - يفكر مركز التراث في عمل موسوعة بحثية عن كل الرسائل العلمية الجامعية (ماجستير، ودكتوراه) التي نوقشت

إن من أبرز الخدمات التي قدَّمها مركز التراث للباحثين، تاريخ وتراث الصحافة السلفية التي قاربت مائة عام، وخاصة مجلات: (المنار - الهدي النبوي - التوحيد).

في علماء السلفية في الماضي والحاضر، تحت مسمى المدرسة السلفية في ميزان البحث العلمي في الأكاديميات العلمية، يقوم الباحث بعمل مختصر عن الشخصية والرسالة.

البيان: لعلنا نختم هذا اللقاء المفيد مع فضيلتكم بذكر بعض المشاهدات والمأثورات عن شيوخ الجماعة.

■ كثيرة هي المواقف والمأثورات عن علمائنا الكرام وهي غنية أيضاً بمعانيها التربوية؛ فمن ذلك - مثلاً -:

١ - في سوهاج: حيث كان الشيخ أبو الوفاء درويش مؤسس أنصار السُّنة المحمدية يصلي بنا المغرب في مسجد قريب من بيته، فيسير بنا ثم يعود ونحن معه لصلاة العشاء، وطوال هذه الساعة يحدثنا في موضوعات كثيرة ويشرح لنا ما غَمَض علينا ونسأله عنه.

وقد اهتم بالصغار منا؛ وهو ما دفع والدي أن يسأله: لِمَ الاهتمام بالصغار؟

فكان يقول: هم أحدُّ ذهناً وأشد ذكاءً، وليس لديهم موروثات كثيرة فيسهل غرس الدعوة الصحيحة فيهم.

٢ - وفي القاهرة: رأينا الشيخ محمد حامد الفقي يدخل المسجد يوم الجمعة فلا يرقى المنبر حتى ينظم صفوف الحاضرين كما لو كانوا في الصلاة؛ فلا يسمح بوجود فرجة، وكان إذا رأى رجلاً يربط منديلاً على رأسه قال له: هذا من فِعْل النساء، انزع عنك هذا، عافاك الله من وجع الرأس.

٣ - ورأيت الشيخ عبد الرحمن الوكيل، يخطب على منبر مسجد الهدارة؛ وفي يده اليمنى القرآن وفي يده اليسرى الإنجيل يقول عن صفات الله كيف جاءت في القرآن الكريم ويقارنها بضلال وبهتان الكتب الأخرى المحرفة.

وكان يقول: لقد كُتِب علينا الجِلاد؛ فسنظل نضرب بسياط الحق غير وَجِلين ظهورَ الضالين حتى تخر معابد الوثنية على عابديها.

وعن آداب المريد عند الصوفية كان يقول: (تلك الآذان التي تجعل من المريد عبد تصوُّفٍ، وحليفَ باطلٍ)، وهو أول من قال: (إن التصوف شَرٌّ كله).

[قصة قصيرة]

أبـــو دعـــاس... يعود من جديد!

عبد الغني عبد الهادي

زخّـات المدفع الرشـاش أطربته رغم أنهـا دفعت النـوم بعيداً عن عينيه تلك الليلة، ورغم أنّه تصرّف ببسالة منقطعة النظير في موقعه المتقدم المطل على ذلك الموقع في مواجهة يهود البلدة المجاورة.

ثمة شـيء مّا يدعو غسـان إلى الفضول، بل يشـده شـدّاً... فهـو يعرف زملاءه جيداً، وبخاصة الذين يتوزعون حوله كلٌّ في موقعه. أما هذا الذي يرسـل الرشـقات بانتظـام ودقّة ويرتدي منديلاً أخضر يلفُّ به رأسه، فهو لم يَعْتَده أو يألفْه من قَبْل.

سرحت به ظنونه وأفكاره: تُرى أيكونُ متطوِّعةً جديدةً وجدَت نفسها في هذه المواجهة المفروضة، وهي التي نزلت إلى الساحة غير مستأذنة من أحد؟ ثم من قال: إنَّ مواجهة العدو تحتاج لاستئذان أحد كائن من كان؟

لكن الذي يحيِّرُ غســان هو مدى التوفيق في التصويب وفي المتابعة للهدف، وهو ما لا يتأتَّى عن غير رجُلٍ شرسِ النزال قوي والشكيمة.

تسربَ الفضولُ إلى غسان لمعرفة هذه اللبوءة الشرسة، فاستمات في ســبيل معرفتها، وقرَّر أن يقدِّم جهداً إضافياً تحيةً لها، بل يمكننا القول: إنها كانت ســبباً ودافعاً لمدِّه بتلك القوة الخاصة التي وجدها تمورُ في أوصاله المجدولة، كنخلة شامخة على أرض الرافدين، أو زيتونة مباركة على أرض بيت المقدس.

راح غســان يعيد حسابه من جديد، فأعمل خطة في مواجهة الموقع، وها هي تتضاءل، والرماية تضعف من ذلك الموقع؛ فهل يعني هذا شيئاً في المنظور العسكري له؟

اســتخدم المنظار، وراح يُعاين الموقع بترقُّب كبير، فلم يجد سوى اثنين من جنود العدو، ثم أعمل خطة في الكمون والاقتحام، وقرر الالتفاف عليهما، ضامناً مشاغلتهما من تلك المرأة المقاومة.

تسلل من الممر الصخري ملتفاً إليهما، وما إن وصل إلى أقرب نقطة ممكنة حتى رماهُما برمَّانتين ألقاهُما من الأعلى فنزلتا فوقهما ومزقتهما أشلاءً تناثرت حول الموقع، ثم هدأت المواجهة من بعده، واطمأن غسان إلى أن الجوَّ خلا له وللاقتحام والاغتنام فأخذ يجمع ما حلا له.

غير أن ما أثاره من جديد، أن المقاومة لم تعد ترمي على ذلك الموقع ممَّا أثار التساؤلات في دخيلته:

– هل تابَعتِ الموقف فشاهدتْ وعرفتْ؟ أم هل نفذت ذخيرتها وتنتظر المدد؟

أعطاها إشارة مطمئنة، لوَّح بيديه عند انبلاج الصبح؛ حيث رآها بوضوح. بادَلتْه ابتسامة الظفر مُلوِّحةً له.

اقترب منهُ رفاقه الخمسة المحيطون، وكانت واحدة منهم، فسألهم: من تكون؟ فأجابت:

إنني أرملة الشــهيد أبي دعاس، قرَّرت التمرد على الانتظار القاتل، فاتخذت قراراً بانتهاج درب أبي دعاس، وها أنذا اليوم أشــكل إضافةً نوعيةً لكم؛ فهل تمانعون؟

رمقها الرفاق بعيونهم الصقرية، والابتســامُ يسابقهم إليها مكبرين... أجل! هنيئاً لشعب تُكملُ نساؤه الرجال، وهنيئاً لشعبٍ يرسمُ دربَهُ رغم المحال!

ولا أسهل!

الآن .. منتجات دواجن الوطنية أصبحت أكثر تنوعاً وأكثر سهولة لتناسب كافة الأذواق، لتكون اختيار الأم الحقيقي

حب الأم الحقيقي.. متنوع حقيقي

AL-WATANIA POULTRY
دواجن الوطنية
غذاؤكم ترعاه أيدٍ أمينة

ISO 22000 SYSTEM CERTIFICATION SGS
MOODY INTERNATIONAL UKAS QUALITY MANAGEMENT
ISO 9001:2008 REGISTERED COMPANY
أعلى المقاييس الدولية للغذاء

إنتاج المملكة العربية السعودية • الرقم المجاني ٨٠٠١٢٤٤٦٦٦ • www.al-watania.com

[المسلمون.. والعالم]

التطهير العرقي في فلسطين (بين شهادات المنصفين وسجلات المؤرخين)
أنور محمود زناتي

الحرية الفلسطينية عن طريق القوافل
د. محمد مورو

الشيخ ماجلان في بحار الأديان
أحمد فهمي

فَقْر المياه... حربٌ صهيو - إفريقية على مصر
ممدوح إسماعيل

من الحكمة: أن تنزل من العربة في الوقت المناسب
د. يوسف بن صالح الصغير

مرصد الأحداث
جلال الشايب

ادعم الصندوق الخيري لجمعيات

تحفيـظ القـرآن الكـريـم

30,000 حـلقة و 700,000 دارس ودارسة

ببساطـــة

أرسل رسالة فارغة إلى الرقم

808008

آيبان الصندوق الخيري للجمعيات : SA9380000500608070005002

حساب الصندوق الخيري :5000005002 مصرف الراجحي

الإدارة العامة للجمعيات الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم

للاتصالات وتقنية المعلومات
Telecom and Information Technology

ترخيص رقم:
60-10-27

STC الاتصالات السعودية

مبلغ التبرع 10 ريال

التطهير العرقي في فلسطين

(بين شهادات المنصفين وسجلاَّت المؤرخين)

أنـــور مـحـمـود زنـاتـي
anwer1122@yahoo.com

يرى أحد الباحثين المنصفين أن جوانب عديدة من المأساة الفلسطينية اختفت مع الحروب التي لم تكن حروباً بالمعنى التقليدي، وإنما كانت مشروعاً كبيراً للتطهير العرقي[1]، وعلى الرغم من ذلك فالوثائق والتاريخ والأرقام كلها تحمل في جعبتها كثيراً من الحقائق والأسرار، بل المآسي أيضاً.

لقد جاء المشروع الصهيوني منذ البداية ملوِّحاً بخلخلة المجتمع الفلسطيني، وَطَـرْد الفلسطينيين Expulsion عن ترابهم الوطني، والتوصُّل بتهجيرهم وبعثرتهم إلى إزالة مجتمعهم، وضمان عدم إمكانية ظهوره من جديد، وإلى ما كان الصهاينة يأملونه، وهو تشتيت الفلسطينيين في الأقطار المجاورة[2]؛ لكي تسود سيطرتهم في البلاد؛ فيتمكنوا من صبغ فلسطين بالصِّبغة اليهودية، ومن ثَمَّ إجلاء الفلسطينيين Evacuation إلى خارج فلسطين وسلب Pillage حقوقهم، والإقامة مكانَهم[3].

دعا الصهاينة إلى انتهاج سياسة القوة لاعتقادهم بأن القوة وحدها هي اللغة الوحيدة التي يفهمها العرب لإجبارهم على الرحيل من وطنهم

(*) كلية التربية – جامعة عين شمس.

(1) Benedict Anderson, Imagined Community (London: Verso, 1983), p. 77

(٢) إلياس صنبر: فلسطين ١٩٤٨م التغييب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م، ص٢٠.

(٣) إيلان هاليفي، المسألة اليهودية، ترجمة فؤاد جديد، مكتب الخدمات الطباعية، دمشق، ١٩٨٦م، ص٢٣٧.

وقد أكد المفكر الصهيوني البريطاني (إسرائيل زانغويل) Israel Zangwill (١٨٦٤م – ١٩٢٦م)[١]، في كتاباته الأُولَى عام ١٩١٧م على ضرورة طرد العرب وترحيلهم، فيقول: (يجب ألا يُسمَح للعرب أن يَحُوَلُوا دون تحقيق المشروع الصهيوني؛ ولذا لا بد من إقناعهم بالهجرة الجماعية، أليست لهم بلاد العرب كلها؟ ليس ثمة من سبب خاص يحمل العرب على التشبث بهذه الكيلو مترات القليلة؛ فهم بَدْو رُحَّل يطوون خيامهم وينسلُّون في صمت وينتقلون من مكان لآخر)[٢].

ودعا الصهاينة إلى انتهاج سياسة القوة لاعتقادهم أن القوة وحدها هي اللغة الوحيدة التي يفهمها العرب لإجبارهم على الرحيل من وطنهم، وأخذوا يعتمدون عليها لتحقيق أهدافهم العنصرية والاستيطانية[٣]، وكانت فكرة نفي الوجود الفلسطيني بتشتيته قد عبَّر عنها مناحيم أوسيشكين (١٨٦٣م – ١٩٤١م)[٤] (أحد قادة الاستيطان عام ١٩٣٠م) بقوله: (من المحتَّم بالدرجة الأُولَى، أن تكون جميع أراضي فلسطين أو معظمها مُلْكاً لشعب إسرائيل، وبدون حق ملكية الأراضي لا تكون فلسطين يهودية أبداً)[٥]، كما قال أيضاً: (أودُّ أن يذهب العرب إلى العراق وآمل أن يذهبوا إليه في زمن مَّا)[٦].

وجاء على لسان فلاديمير جابوتنسكي Vladimir Jabotinsky أيضاً: (إن العرب يستطيعون التنازل عن فلسطين وشرق الأردن، وتكفيهم الأراضي الأخرى الشاسعة التي يقطنونها، وخصوصاً أن عدد سكانها قليل للغاية بالنسبة لمساحتها)[٧]، وأكد على وجوب ترحيل العرب بالقوة؛ لأن ترحيلهم – بحسب رأيه – شرط أساسي لتحقيق الصهيونية ؛ فاقترح في رسالة بعث بها إلى السناتور الأميركي غراسنبيرغ قائلاً: (إن تأسيس أكثرية يهودية في فلسطين يجب أن يتم عنوة عن إرادة الأكثرية العربية الموجودة في البلاد. وسيرعى عملية إنجاز هذه الأكثرية جدار حديدي من القوة اليهودية المسلحة)[٨] لتحرير فلسطين بحد السيف[٩].

واعتبر يوسف فايتس أن الإنسان العربي الفلسطيني حجر عثرة أمام تحقيق المشروع الصهيوني وأن عمليات وصفقات شراء الأراضي قد اصطدمت عشرات المرات بمعارضة الفلسطينيين من أبناء فلسطين الذين جرى ترحيلهم عن بيوتهم[١٠].

لقد عمل اليهود على الاستيلاء على فلسطين بشكل مخطَّط ومدروس تحت شعار: (أرض بلا شعب لشعب بدون أرض)[١١]، وبوسائل اتُّبِعت فيها أشرس أساليب التمييز العنصري، مستخدمين ثلاثية: (الضم والاستيطان والتهجير)[١٢]. وكانت محاولات إقامة دولة يهودية تعني بالضرورة تدمير شعب فلسطين العربي؛ أو كما قال فايتس[١٣] في البند المؤرَّخ بيوم ٢٠ ديسمبر ١٩٤٠م من يومياته: (لا بد أن يكون واضحاً لنا عدم وجود متَّسَع لشعبين يعيشان معاً في هذه البلاد، وليس ثمة من وسيلة سوى نقل العرب من هنا إلى البلدان المجاورة، نَقْلِهم جميعاً، ويجب ألا تبقى قرية واحدة أو قبيلة واحدة)[١٤].

شهادات منصفين:

يقول يوسي ميلمان: (لقد اقترف الجنود الصهاينة وحشيات كبيرة تضمَّنت المجازر الجماعية والقتل والاغتصاب Rape والتخريب، وقد أخبرني إيريك بتشامكن (العضو في حزب العمال ووزير الزراعة الإسرائيلي الأسبق) وكان في حرب عام ١٩٤٨م قائداً لإحدى الوحدات الخاصة وشاهد بأم عينيه أعمال القتل لعشرات المواطنين العرب الذين احتلت القوات الإسرائيلية قريتهم في صحراء النقب بعد أن شدوا أيديهم وأطلقوا عليهم النار بوحشية Atrocity ورموا بجثثهم في أحد الآبار المحلية)[١٥]. وهو الأمر الذي أكده مناحم بيغن عندما قال: (كان لمذبحة دير ياسين نتائج كبيرة غير متوقعة؛ فقد أصيب العرب

(١) للمزيد عن شخصيته راجع: عبد الوهاب المسيري وسوسن حسين: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، القاهرة ١٩٧٥م، ص ٢٠٥.

(2) David McDowall, Palestine and Israel (London, New York: I.B. Tauris | Co Ltd), p. 186.

(٣) إبراهيم أبو لغد: تهويد فلسطين، ترجمة: أسعد الزرو، رابطة الاجتماعيين، الكويت، ١٩٧٢م، ص١٨٦.

(٤) ولد عام ١٨٦٣م في بلدة دوفروفنا في روسيا البيضاء. وانتقلت عائلته إلى موسكو عام ١٨٧١م، ودرس في مدرسة عبرية فيها باسم (الريئالي). وتأثر بكتابات مفكرين صهيونيين أمثال: مابو، وشولمان، وسمولنسكين. وتوفي أوسيشكين عام ١٩٤١م. راجع، عبد الوهاب المسيري وسوسن حسين: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٥) أسعد عبد الرحمن ونواف الزرو: موجات الغزو الصهيوني ١٨٨٢م – ١٩٩٠م، دار اللوتس، عمان، ١٩٩٠م، ص٣.

(٦) نور الدين مصالحة: طرد الفلسطينيين: مفهوم الترانسفير في الفكر والتخطيط الصهيوني ١٨٨٢م – ١٩٤٨م، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م، ص٤١.

(٧) محمد بكري: بيجن وقضايا العنف والسلام، تقديم خالدي محي الدين، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، (د.ت)، ص٢٠.

(٨) ميخائيل بالمبو: كيف طُرد الفلسطينيون من ديارهم عام ١٩٤٨م، دار الحمراء، بيروت، ١٩٩٠م، ص ٢٧

(9) st. John Robert, They Came from Everywhere, Twelve Who Helped Mold Modern Israel , New York , 1962, p. 124

(١٠) جوني منصور: منقذ الأرض وداعية ترانسفير للفلسطينيين، مجلة قضايا إسرائيلية، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، عدد (١١ – ١٢)، صيف وخريف ٢٠٠٣م، ص ١٦٣.

(١١) يتهكم إيلان بابه المؤرخ الإسرائيلي المنصف على تلك المقولة قائلاً: «أما الفلسطينيون السكان الأصليون فكانوا في نظر اليهود كائنات غير مرئية، أو – إن لم يكونوا كذلك – كانوا جزءاً من عقبات الطبيعة التي يجب التغلب عليها أو إزالتها»، التطهير العرقي في فلسطين، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ترجمه أحمد خليفة، ٢٠٠٧م مرجع سابق، ص٢٠

(١٢) بسام عبد المنعم: المحاولات الصهيونية لتهويد القدس الشريف، كتاب المؤتمر الدولي الأول لنصرة القدس، قدس نت للدراسات والإعلام، ٢٠٠٧م، ص ٢٣٢.

(١٣) مدير دائرة الاستيطان في الصندوق القومي اليهودي ورئيس لجنة الترحيل الرسمية التي كانت تابعة للحكومة الإسرائيلية في سنة ١٩٤٨م.

(14) Wetiz Diary (Central Zionist Archives, Jerusalem), A 246/7, pp. 1090– 1091

(١٥) يوسي ميلمان: الإسرائيليون الجدد، ترجمه مالك البديري، دار الأهلية للنشر، الأردن، ص ٧٧.

بعد أخبار دير ياسين بهلع قوي؛ فأخذوا يفرُّون مذعورين)[1].

أما زفي أنكوري فيقول عن مأساة دير ياسين: (دخلت من ستة إلى سبعة بيوت، ورأيت أعضاءً تناسليةً مقطوعةً وأمعاءً نساء مسحوقةً. طبقاً للإشارات على الأجسام، لقد كان هذا قتلاً مباشراً، وتضاعفت سرعة هرب العرب عشرات المرات بانتشار أنباء مذبحة دير ياسين)[2]، ويورد المنشور المصري تفاصيل محاولات العصابات الصهيونية لإخفاء الجريمة عن رجال الصليب الأحمر الدولي، ولنا أن نتبين مدى النفاق والرياء في فزع الوكالة اليهودية وتقززها حين نعلم أنه في يوم ١٤ من أبريل عام ١٩٤٨م بعد أربعة أيام فقط من مأساة دير ياسين قامت عصابتا أرغون وشتيرن بمهاجمة قرية نصر الدين بالقرب من طبريا، وكررتا فيها الفظائع نفسها، وكان جلُّ سكان القرية من النساء والأطفال العزَّل؛ إلا أن الصهاينة هاجموهم بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية[3]. وقد أفزع النبأُ جميع العرب الذين كانوا في خطر المواجهة مع اليهود ودفعهم إلى الفرار من بيوتهم.

المجازر الشريك الثابت:

وثمة إجماع على أن المذابح – سواء قبل إعلان الدولة أو بعدها – كانت أحد أبرز الأسباب في هجرة جزء كبير من السكان، وهي التي قال عنها إلياس صنبر: (إنها مثلت الشريك الثابت في جميع المعارك، ومنحت العمليات المتعددة عنصر التواصل، لتقيم ارتباطاً بين الفصول المتوالية للطرد: الرحيل أو الموت)[4]. وأصبح القتل والإرهاب Terrorism من أمور الحياة اليومية الطبيعية[5]. (وكان اليهود يستولون على أراضي الفلسطينيين دون حق، ويضربونهم دون مبرر، ويتباهون بذلك)[6]. وهو ما يُعَدُّ شكلاً من أشكال طرد السكان (الترانسفير) أو التطهير العرقي)[7].

وهذا جدول يبيِّن بعضاً من المجاز الصهيونية في فلسطين في عامي (١٩٤٧م – ١٩٤٨م)[8]:

المجازر القرية / المدينة	تاريخ المجزرة
العباسية	١٩٤٧/١٢/١٣
أبو شوشة	١٩٤٨/٠٥/١٤
عين الزيتون	١٩٤٨/٠٥/٠٢
بلد الشيخ	١٩٤٨/٠٤/٢٥

وأصدر إيلان بابه[9] كتاب (التطهير العرقي في فلسطين) The Ethnic Cleansing of Palestine[10] في يناير ٢٠٠٧م، والكتاب يكشف الجرائم المروعة التي قام بها الصهاينة لتهجير الفلسطينيين وتصفيتهم، ولا يوارب الكاتب في سرد الحقائق بصراحة تامة، ويتهم الكيان الصهيوني بالتطهير العرقي وارتكاب الجرائم ضد الإنسانية إبَّان حرب عام ١٩٤٨م وصولاً إلى يومنا هذا. ويصور إيلان بابه كيف أن التطهير العرقي لم يكن ظرفاً أملته الحرب، بل كان متعمَّداً وكان هدفاً رئيساً من أهداف الوحدات العسكرية الصهيونية بقيادة ديفيد بن غوريون، الذي يطلق عليه بابه اسم: (مهندس التطهير العرقي). ويقول: (إن الطرد القسري لأكثر من ٨٠٠ ألف فلسطيني ما بين عامي ١٩٤٨م – ١٩٤٩م، هو جزء من الخطة الصهيونية لإنشاء دولة يهودية بالكامل. وقد وضع أدلته في إطار التعريفات للتطهير العرقي المقبولة دولياً وتعريفات الأمم المتحدة نفسها. ويمضي بابه في سردٍ تفصيليٍّ لمشاركة المنظمات العسكرية الصهيونية في هدم وإخلاء Eviction مئات القرى، وطرد مئات الآلاف من السكان العرب)[11].

وبناءً على وثائق الأمم المتحدة، ووثائق أمريكية وبريطانية، وحفنة ظهرت إلى العلن من الأرشيف الإسرائيلي المدني[12]، فإن عدداً كبيراً من المجازر ارتكبتها القوات اليهودية ضد العرب أثناء الحرب الإسرائيلية العربية الأُولَى لسنة ١٩٤٨م. وتتدرج هذه المجازر حجماً من إطلاق النار على حفنة من المدنيين الفلسطينيين اختيروا عشوائياً واصطفوا إلى حائط قرية بعد احتلالها (كما حصل – على سبيل المثال – في قرى: مجد الكروم، وبعنا، ودير الأسد، وعيلبون،

(1) Manachem Begin. THE REVOLT. LONDON. IST EDITION. 1972. P 165.

(٢) دومنيك فيدال: خطيئة إسرائيل، ترجمة: سعد الطويل، منشورات سطور، ٢٠٠٣م، ص ١٠٩.

(٣) راجع، قناة الجزيرة، برنامج أرشيفهم وتاريخنا، الحلقة السادسة بتاريخ: ٢٠٠٩/٣/٤م.
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/99675DAB-40C9-49D8-927F-48AB4CB20352.htm.

(٤) إلياس صنبر، فلسطين ١٩٤٨م التغيب، مرجع سابق، ص١٦٧.

(٥) المرجع نفسه، ص٢١٥.

(٦) إميل توما: فريق الجماهير العربية الكفاحي في إسرائيل، دار أبو سلامة لنشر الفكر الفلسطيني، (د.م)،(د.ت)، ص١٣٧.

(7) Susan M. Akram and Terry Rempel. Temporary Protection As An Instrument for Implementing the Right for Palestinian Refugees.52 Depaul Law Review 1101.PP.1122–1146.

(٨) المصدر: حزب البعث العربي الاشتراكي، اللاجئون الفلسطينيون وحق العودة: معطيات وحقائق، مكتبة الأمانة العامة، دمشق، سوريا، ٢٠٠٨م، ص ٢٠ – ٢١.

(٩) إيلان بابه: مؤرخ إسرائيلي، ينتمي إلى تيار المؤرخين الجدد، ومحاضر في العلوم السياسية في جامعة حيفا، وهو أيضاً المدير الأكاديمي لمعهد غفعات حبيبا لدراسات السلام، ورئيس معهد إميل توما للدراسات الفلسطينية في حيفا. وقد ألَّف عدة كتب، منها: تاريخ فلسطين الحديثة والشرق الأوسط الجديد)؛ والتطهير العرقي في فلسطين.

(١٠) الكتاب صدر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ترجمه أحمد خليفة، ٢٠٠٧م.

(١١) إيلان بابه: التطهير العرقي في فلسطين، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ترجمة أحمد خليفة، ٢٠٠٧م.

(١٢) أرشيف دولة إسرائيل: هو أرشيف سياسي جزئياً، ويضم مجموعات من الأوراق الخاصة.

وجـــش، وصالحـــة، وصفصف، وسعسع، خلال عملية حيرام)[١] إلى ذبح نحو مائتين وخمســـين مدنياً ومعتقـــلاً أثناء إطلاق نار في مدينة اللـــد الواقعة جنوبي شـــرق تل أبيب، عصـــر الثاني عشـــر من تموز ســـنة ١٩٤٨م. وعبر الأعوام كشف الإفراج عن وثائق جديدة، ومقابلات صحفية جرت مع شـــهود ومشـــاركين، مجازر إســـرائيلية ارتُكبَت بحق المدنيين وأســـرى الحرب العرب في الحروب اللاحقة في سنوات ١٩٥٦م، ١٩٦٧م، ١٩٧٣م، و ١٩٨٢م. وشـــكّل هذا الإفشـــاء صدمـــة لمعظم الجمهور الإســـرائيلي الذي رُبِّي على الإيمان بتفوقه الأخلاقي وعلى مبدأ (طهارة السلاح).

وقد اعتُقد ســـابقاً أن القوات اليهودية، في إطار الحركة السرية الرئيسة المســـماة (الهاغانا) قبل عام ١٩٤٨م، وجيش الدفاع الإســـرائيلي منذ تلك السنة، قد دُرِّبت على عدم تلطيخ أســـلحتها باقتراف فظائع؛ وعلى الرغـــم من ذلك فإنه عندما ظهرت فظائع إلى النـــور، كان يجري دائماً صرف النظر عنها باعتبارها استثناءً نادراً وحدثاً مفرداً[٢].

كما أيَّد مايكل بالومبو (Michael Palumbo) صحة الرواية الفلسطينية لأحداث عام ١٩٤٨م، استناداً إلى وثائق الأمم المتحـــدة ومقابلات مع لاجئين ومعنيِّين فلســـطينيين. فـــي كتابه القيم النكبة الفلســـطينية (The Palestinian Catastrophe) الذي نشر في سنة ١٩٨٧م [٣].

وللباحث اليهودي المعروف (إســـرائيل شـــاحاك) دراسة مهمة عن (الترانســـفير في العقيدة الصهيونية)؛ وفيها حديث مفصَّل عن طرد غير اليهود مما يسمونه (أرض إسرائيل) في ضوء النصوص اليهودية المقدســـة المؤثرة في مدارك قِطاعات كبرى من الناس في المجتمع الصهيوني، وقد أشار شاحاك في كتابه هذا إلى أن قومه يخططون ليس لطرد العرب المســـلمين الفلسطينيين، بل طرد العرب النصارى أيضاً[٤].

وثيقة للاستخبارات الإسرائيلية:

يســـتند المـــؤرخ بنـــي موريس إلـــى وثيقة للاســـتخبارات الإسرائيلية بتاريخ ٣٠ / ٦ / ١٩٤٨م تعتبر أن ٧٣ ٪ من مغادرات الفلسطينيين تســـبَّبَ بها الإسرائيليون مباشرة في خطة الطرد الثانية، و ٢٢ ٪ تعود لمخاوف ذاتية للفلسطينيين وأزمة ثقة فيما بينهم، وأما ٥ ٪ فهي بسبب النداءات العربية للفرار[٥].

من أرشيف إسرائيل:

ومن واقع أرشيف دولة إســـرائيل نفسها اعترف بيخور شـــلوم شـــطريت (وزير الأقليات) قائلاً: (للأسف ارتُكبَت جرائم في الأماكن التي احتللناها، قد تُلطِّخ ســـمعة الحركة الصهيونية)[٦]. والمدقق في وثائق أرشـــيف الهاغانا والجيش الإســـرائيلي يجد العديد من الأوامـــر التي تؤكد نية الإبادة الجماعية Genocide الواضحة؛ ففي التعليمات الصادرة عن هيئـــة الأركان العامة إلـــى لواء غفعاتـــي ورد ما يلي: (الاستيلاء على محطات الشـــرطة في بيت دجن، وريشون لتسيون، ورحوبوت، وجديره، وعراق سويدان. أما القرى في المنطقة التي يجب الاســـتيلاء عليها - حرقها أو تدميرها - فأنت تقرر ذلك بالتشاور مع مستشاريك للشؤون العربية ومع ضباط خدمة المخابرات (ش. ي... شيروت يديعوت)[٧].

(١) للمزيد راجع، بني موريس: تصحيح خطأ، ترجمة أنطوان شلحت، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار)، رام الله، فلسطين ٢٠٠٣م، ص ١٦٥.

(٢) راجع مقال بني موريس: الحروب الإسرائيلية العربية.
http://www.crimesofwar.org/arabic/mideast1.htm.

(3) Michael Palumbo, The Palestinian Catastrophe: The 1948 Expulsion of a People from Their Homeland. London: Faber and Faber, 1987.

(٤) راجع إسرائيل شاحاك: الترانسفير في العقيدة الصهيونية، دار البيادر، القاهرة، ١٩٩٠م.

(٥) راجع، بني موريس: ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين: «وثيقة إسرائيلية»، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، عمان، الأردن، ١٩٩٣م، ص ٨٠.

(٦) أرشيف دولة إسرائيل: ملف وزارة العمل، ٦١٧٨/ ٢٩٢٤.

(٧) أرشيف الجيش الإسرائيلي: تعليمات لواء جفعاتي، بند رقم ٢ فرعَي أ - ب.

وثيقة في بريطانيا عمرها ستون عاماً تشهد بالحقيقة:

لقد كشفت وثيقة في بريطانيا عمرها ستون عاماً معلومات جديدة عن العمليات الإرهابية التي كانت تنفذها العصابات الصهيونية في الأراضي الفلسطينية ضد المدنيين الفلسطينيين، بل ضد جنود الانتداب البريطاني وذكرت صحيفة (التايمز) البريطانية أن الوثيقة عبارة عن كتيب يتضمن منشورات تحذيرية من (العصابات الإرهابية الصهيونية) إلى البريطانيين إبَّان عهد الانتداب البريطاني في فلسطين، تهدِّدُهم بأن ينسحبوا من فلسطين (وإلا فإنهم سيواجهون الموت والدمار) ويقول الخبير التاريخي ريتشارد ويستوود بروكيس: إن هذا الكتيب يعتبر اكتشافاً نادراً، وهو يعتبر من وجهة نظره بمثابة (خطة عمل) للهجمات الإرهابية. كما يذكر هذا الخبير أيضاً أن هذا الكتيب يثير سؤالاً مهماً حول (من هو الإرهابي، ومن هو المناضل من أجل الحرية؟)، ويؤكد أن هذا الجدل لا يزال قائماً في فلسطين حالياً[١].

شهادة مؤرخ عسكري بريطاني:

أما المؤرخ العسكري البريطاني إدغار أوبلانس فيقول: (كان من سياسة اليهود، تشجيع العرب على مغادرة ديارهم، فأخرجوا أولئك الذين كانوا يتمسكون بقراهم)[٢]. وكتب ريتشارد كروسمان (وهو من مؤيدي الصهيونية)، فوصف تمسُّك الفلسطينيين بأرضهم حتى خلال سنوات دراستهم وقال: (هؤلاء الناس لا يُخدَعُون بسهولة وهم عنيدون ومتعلقون بأرضهم)[٣].

وسجل الكاتب اليهودي هاري ليفين Harry Levin ما سمعه يوم ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨م في القدس من مكبرات صوت محمولة على شاحنات صهيونية تقول: (أشفقوا على نسائكم وأطفالكم، واخرجوا من حمام الدم هذا، اخرجوا بطريق أريحا التي ما زالت مفتوحة أمامكم، فلو بقيتم لاستنزلتم الكارثة على أنفسكم)[٤].

شهادة كاتب صهيوني منصف:

وأقر أيضاً الكاتب الصهيوني جون كيمحي الذي تجوَّل في الأحياء العربية في حيفا ورأى بأم عينه الإرهاب

الوحشي الذي تعرض له العرب كي يرحلوا عن المدينة، وكتب يقول: (ترك العرب حيفا في هلع وذعر شديدين. وتمشيت في الأسواق، فرأيت حالة الفوضى التي تركوا بها منازلهم، وغالباً مخلِّفين وراءهم كل ما هو ثمين)[٥].

دراسات أخرى محايدة:

وهناك العديد من الدراسات المحايدة تؤكد أن أكثر من ٩٠ ٪ من القرى التي نزح أهلها وتركوها كان بسبب الهجوم العسكري المدمر على تلك القرى، أضف إلى ذلك بعض الأسباب الأخرى: مثل طرد العرب بالقوة على يد القوات اليهودية، أو الخوف من هجوم يهودي متجه نحو هذه القرى، أو بسبب تأثير سقوط مدينة قريبة، أو الحرب النفسية التي مارسها الاستعمار الصهيوني على السكان[٦].

وقال بني موريس: إن الخطة (داليت) (كانت تشمل إشعالَ النار في القرى، ونسفَها بالألغام Mines، لضمان عدم عودة السكان إليها، كإستراتيجية مخطَّط لها من قِبَل الهاغانا، ضماناً لحماية تجمعات المستوطنين)، وبيَّن موريس أنه: (لم يكن ثمة داعٍ لصدور أوامر طردٍ مباشرةٍ؛ فقد كان ذلك يكفي من أجل هروب السكان، وزرع الخوف في نفوسهم، وحملهم على ترك منازلهم، كما حدث في صفد وغيرها)[٧].

ويتضح لنا أيضاً أن هذه المأساة تعود في أسبابها العميقة إلى الممارسات الإرهابية الصهيونية والسياسية الاستيطانية الإجلائية التي قام على أساسها الكيان الصهيوني أصلاً، وهي التي استمر في اتباعها تجاه الشعب الفلسطيني. وإنَّ خير معبِّر عن هذه الممارسات والسياسات هي فكرة الترانسفير (الترحيل) وشعار: أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، وهي التي شكلت ولا زالت مقوماً من مقومات الفكرة والممارسة الصهيونية[٨].

---

(١) راجع الخبر في صحيفة العرب، بتاريخ: ٢١ / ٧ / ٢٠٠٨م.

(2) Edgar O،Ballance، The Arabe –Israeli War، 1948،(London: Faber and Faber، 1956، p. 63.

(٣) ميخائيل بالمبو: كيف طُرِد الفلسطينيون من ديارهم عام ١٩٤٨م، دار الحمراء، بيروت، ١٩٩٠م، ص ٣٧.

(٤) هاري ليفين: ملحمة القدس، لندن، ١٩٥٠م، ص ١٦٠.

(٥) ميخائيل بالمبو، مصدر سابق، ص ٧٤.

(٦) سلمان أبو ستة: نكبة فلسطين متى يمكن أن تزول؟ مجلة العربي، العدد ٤٩٨، خريطة ضياع فلسطين، محرم ١٤٢١هـ، مايو ٢٠٠٠م، ص ١٠٠ – ١٠٦.

(٧) بني موريس: ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، مرجع سابق، ص٧٨.

(٨) إدوارد سعيد وآخرون: الواقع الفلسطيني، مرجع سابق، ص ١٤.

منظمة المشكاة الخيرية
Meshkat Charitable Organization

تدعوكم للمشاركة في مشاريعها

كفالة الدعاة

مشروع وقف الدعوة

مشروعات موسمية

الدورات العلمية

مركز ضيوف السودان لدعوة الجاليات

شبكة المشكاة الإسلامية
www.meshkat.net

القوافل الدعوية

الخط الساخن للفتاوى

مركز تدريب وتاهيل الدعاة

التوزيع الخيري

www.meshkat.org

للاستفسار:
جوال: ٠٠٢٤٩٩١٢٢٩٦١٠١ / ٠٠٢٤٩٩١٢٩٨٨٥٥٠
هاتف: ٠٠٢٤٩١٨٣٥٤٦٤٢٤ / فاكس: ٠٠٢٤٩١٨٣٥٤٦٤٢٨

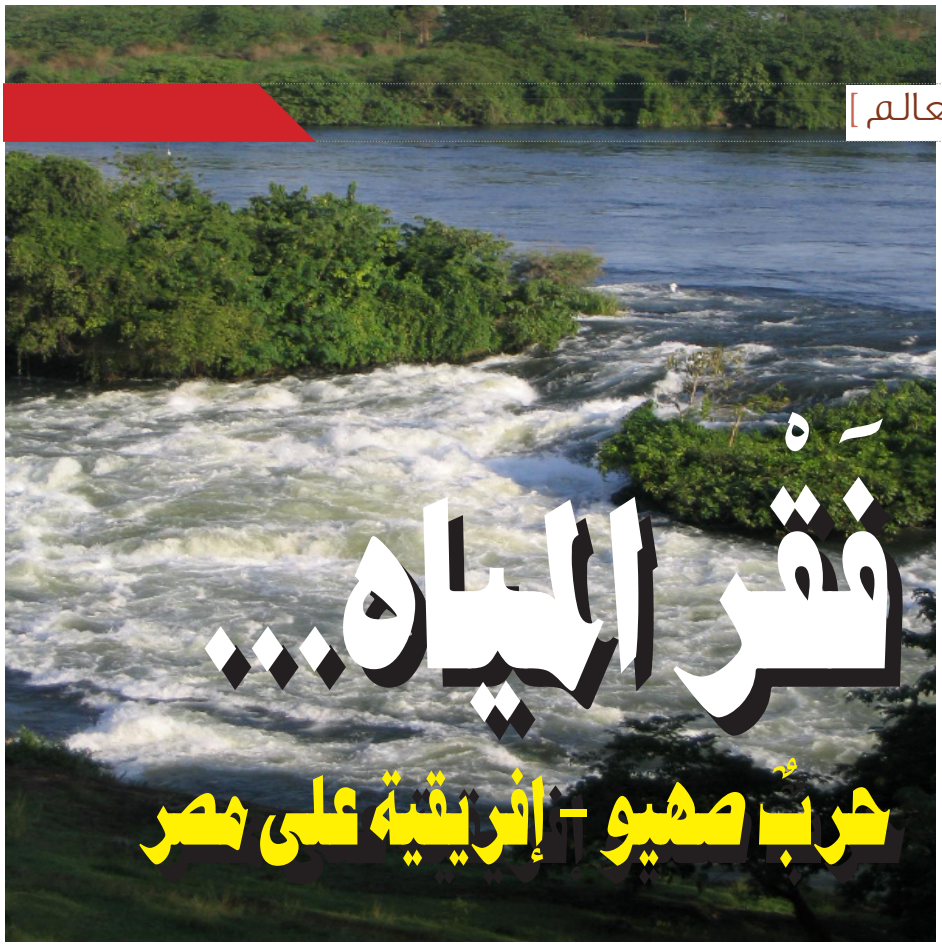

فَقْر المياه...

حربٌ صهيو - إفريقية على مصر

ممدوح إسماعيل
Elsharia5@hotmail.com

يقول الحق - تبارك وتعالى -:
﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وقد ذُكر الماء في سبع عشرة آية في القرآن وفي آلاف المواضع في السُنة، وبه يكون الوضوء والطهور والاغتسال، وعليه قامت أركانُ للإيمان، والماء يَعُدُّه العلماء أساسَ الحياة على كوكب الأرض. قال الإمام ابن القيم عنه في زاد المعاد: (إن الماء مادة الحياة، وسيد الشراب، وأحد أركان العالم، بل ركنه الأصلي؛ فإن السموات خُلقت من بخاره والأرض من زبَده، وقد جعل الله منه كل شيء حي).

وقد استُخدم تكتيك مَنْع المياه عن الأعداء منذ قديم الزمان. والحرب في العصر الحديث لم تكتفِ بذلك التكتيك القديم، وإنما تطورت لتكون حرب المياه حرباً مستقلة لها تكتيكها واستراتيجيتها.

لقد ارتفعت صيحات كثيرة تنذر بحرب المياه، ولم يكن أحد في مصر يفكر في ذلك؛ فمصر: (هبة النيل)؛ هكذا يردد المصريون منذ آلاف السنين، وقد اعتقدوا أنهم يملكون النيل، وتفاخروا بين الشعوب بذلك. والله وحدَه - سبحانه - هو مالك السموات والأرض المعطي الوهاب، ولم يطرأ على فكر مصريٍّ في يوم من الأيام أن ماء النيل من الممكن أن يَقِلَّ، أو أن ينعدم، أو تَحْدُثَ في يوم من الأيام مشكلة أو أزمة بسببه.

وفي شهر أبريل من عام ٢٠١٠م شعر المصريون بنُذُر شرٍّ وأزمة، أفاق بعضهم عليها عندما وجدوا وزير خارجية بوروندي في اجتماع لوزراء الري في مصر يحتج على نصيب مصر من ماء النيل، ويطالب بتخفيضه، ويهدد ويتوعد، بل ينصرف مغادراً الاجتماع، وهنا أدرك بعضهم الأزمة القادمة، وقالوا: هل كان أيٌّ من حكام مصر على مدار التاريخ يتخيل ذلك؟ ولو كان نظام الحكم قوياً وله يد قوية داخل إفريقيا لَمَا تجرأ أحد على ذلك؛ فمنذ الخمسينيات من القرن الماضي سخَّرت مصر كلَّ إمكانياتها لدعم حركات التحرر الإفريقي، ولكن بعد غَلِّ يد مصر القوية وقَطْعِها باتفاقية كامب ديفيد، فُتِحَت أبواب إفريقيا على مصراعيها لليهود فتوغلوا فيها كيفما يشاؤون.

إن الشاهد هنا أن الأزمة استفحلت ووصلت إلى حدِّ اجتماع كلٍّ من: إثيوبيا، رواندا، تانزانيا، أوغندا، بوروندي، كينيا، والكونغو الديمقراطية في ١٥ مايو ٢٠١٠م ليعلنوا توقيع اتفاقية توزيع جديدة لماء النيل منفردين عن مصر والسودان، دولتي مصب نهر النيل اللَّتين رفضتا هذه الاتفاقية وأعلنتا أنها لا تُلزِمُهما مطلقاً؛ وهو ما صعَّد من الأزمة.

لقد أدرك كثير من المصريين وجود خطر حقيقي حول نهر النيل الذي كما يجري على أرضهم فهو يجري في أجسادهم أيضاً، وهو ركن متجذر في حياة المصريين منذ آلاف السنين؛ قامت عليه حضاراتُهم وحياتُهم الزراعية والصناعية، وإستراتيجيتُهم العسكرية، وعاداتُهم وتقاليدُهم، وتفاخُرهم بين الشعوب.

وجدير بالذكر أن حوض النيل يضم عشر دول، ويبلغ طول نهر النيل ٦٨٢٥ كم، وتبلغ مساحة حوضه ٣ ملايين كم٢، وينبع النيل من مصدرين رئيسيين، هما: حوض بحيرة فيكتوريا كمصدر دائم، والهضبة الإثيوبية كمصدر متجدد. أما المنابع الإثيوبية فتشمل ثلاثة روافد، هي: نهر السوباط، والنيل الأزرق، ونهر

(*) محام وكاتب.

العطبرة. وتُعَدُّ الهضبة الإثيوبية أهم منابع النيل؛ إذ تُمِدُّ النيل الرئيسي عند أسوان بـ (٨٥ ٪) من متوسط الإيراد السنوي. وهذه الكمية هي التي عليها المخطط والمؤامرة؛ للضغط على مصر وابتزازها؛ إذ من المعلوم أن مصر - على الرغم من تلك الكمية - فهي تعاني من نقص مياه لاعتماد كثير من الزراعات فيها على كميات مياهٍ كبيرة، مثل الأَرُز؛ وهو محصول رئيس عند المصريين. وتقليل المياه على مصر يهدد مصر بمجاعة وخطر حقيقي رهيب. ولكن مدبري المؤامرة يعلنون أسباباً وهميَّة، منها: الاعتراض على اتفاقية عام ١٩٢٩م؛ ففي مايو ١٩٢٩م تبادل رئيس وزراء مصر مذكرتَين مع المندوب السامي البريطاني (وقت احتلال مصر) الذي وقَّع نيابةً عن الإدارة الاستعمارية البريطانية الحاكمة في كينيا وأوغندا وتنجانيقا (تنزانيا حالياً)، وفي هذه الاتفاقية إقرار قانوني بحصَّة مصر المكتسبة من المياه، وأن لمصر نصيباً عادلاً من كل زيادة تطرأ على موارد النهر في حال إنشاء مشروعات جديدة على النهر وروافده، وأن حصة مصر تحددت بـ (٤٨) مليار متر مكعب، وحصة السودان بـ (٤) مليارات متر مكعب سنوياً.

والأحداث المعاصرة تقول: إن إثيوبيا هي التي تقود الأزمة المفتعلة؛ فقد أعلنت رفض الاتفاقية منذ عقود، ولكنها لم تتحرك مثل هذا التحرك الرافض الأخير باتفاقية ١٥ مايو؛ وهو الذي وصل إلى حدٍّ أنها تعتزم بناء ٧٠ سداً على روافد النيل عندها؛ على الرغم من أن إثيوبيا تعتمد في زراعتها على مياه الأمطار الوفيرة والغزيرة جداً، ولا تعتمد على النيل كما تعتمد عليه مصر التي لا تسقط عليها الأمطار إلا نادراً، وقد صرح رئيس وزرائها زيناوي في ٢٠ مايو ٢٠١٠م بقوله: إن مصر لن تستطيع أن تمنعنا من بناء السدود، ومن المعلوم أن ٧٠ ٪ من الماء الذي يأتي لمصر يأتي عبر النيل الأزرق وحدَه في إثيوبيا.

ومن المهم الإشارة إلى أن إثيوبيا علاقتها دائماً متوترة مع مصر والدول العربية الإسلامية منذ قرون عديدة بسبب وجود مركز للكنيسة الأرثوذكسية في إثيوبيا، ويشكل المسلمون أكثر من ٤٠ ٪ من السكان، ومع ذلك هم مضطهدون لا يحصلون على مراكز عُليَا.

وقد تسبب وجود مركز مسيحي في إثيوبيا في حدوث حروب عديدة وصلت إلى محاولة غزو مكة عام ١٥١٩م، وفي عام ١٩١٦م أعلن الإمبراطور الإثيوبي إسلامه وتحوُّلَه عن النصرانية وتبعيَّته للخلافة العثمانية دينياً؛ وهو ما دفع الدول الغربية الصليبية إلى إرغامه على التنحي بالقوة، وقد قام الخديوي إسماعيل منذ أكثر من قرن بحملة عسكرية إلى الحبشة (إثيوبيا)، وما زالت إثيوبيا تحتل أقليم أوغادين الصومالي المسلم، وتتدخل بقواتها العسكرية في الصومال تبعاً للأوامر الأمريكية.

والأحداث تقول بكل وضوح: إن ما يحدث ليس بأزمة؛ ولكنه مؤامرة ظاهرها إفريقي وباطنها تحركه اليد الصهيونية؛ وقد نشرت صحيفة الوفد المصرية وثيقةً صهيونيةً تطالب بتدويل النزاع بين مصر والسودان وباقي دول حوض النيل. أعد الوثيقة تسيفي مزائيل (سفير إسرائيل السابق في مصر)، وتتضمن دراسة خطيرة تحمل المزاعم الصهيونية حول احتكار مصر لمياه النيل وحقوق دول المنابع المهدرة بسبب المواقف المصرية. واتهم «مزائيل» مصر بتجاهل المطالب الشرعية لدول المنابع.

وقد ذكر المحلل السياسي الأمريكي مايكل كيلو، في كتابه (حروب مصادر الثروة) أن (إسرائيل) لعبت دوراً كبيراً مع دول حوض النيل لنقض المعاهدة الدولية التي تنظم توزيع مياه النيل، واعتبر أن هذا الأمر يأتي في إطار الإستراتيجية الصهيونية.

ومن المعلوم أن العلاقة القوية التي تربط إثيوبيا بدولة الاحتلال الصهيونية وصلت إلى حدِّ حصول تعاون عسكري وزراعي وصناعي بينهما منذ عقود، وهي من أوائل الدول الإفريقية صاحبة العلاقة القوية بالكيان الصهيوني ولا يفوتنا أن نذكر تهجير إثيوبيا لآلافٍ من يهود الفلاشا الإثيوبيين إلى دولة الاحتلال الصهيوني.

واليهود الصهاينة رغم اتفاقيات السلام الزائفة إلا أنهم لا يَفْتُرُون عن عداوتهم للعرب والمسلمين أبداً، وهم يعانون من أزمة مياه، وقد طلب الصهاينة كميات من ماء النيل عقب توقيع اتفاقية كامب ديفيد المشؤومة مع مصر، وطلبوا مدَّ ترعة السلام؛ لتمتد إلى سيناء ومنها إلى كيان الاحتلال.

وما زال عَلَمُهم حتى الآن مرسوماً عليه خطان يمثلان نهري: النيل والفرات، ولم يتغيرا رغم احتلال العراق وتوقيع اتفاقية سلام مع مصر. وصدق الله العظيم القائل في كتابه: ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾. [**البقرة**: ٢١٧]

فاليهود أعداء السلام، ما زالوا رغم اتفاقيات الاستسلام مصرِّين على العداء وبذل الجهد لمحاربة المسلمين بكل الطرق. وعندما نتوقف مع تلك الأزمة المفتعلة نجد أن مجموع تلك الدول (بورندي، وراوندا، وتنزانيا، وكينيا، وأوغندا) بعدد سكانها مجتمعين لا يصل إلى عدد سكان مصر الذي وصل إلى ٨٥ مليوناً؛ ولذلك فإن احتياجات مصر من الماء كبيرة جداً بعكس تلك الدول التي لا تحتاج إلى الماء مثل مصر بَلْهَ كونها دولاً مطيرة. وعلى الرغم من تلك الاحتياجات المائية لمصر إلا أن ٧٥ ٪ من أرضها صحراء؛ فهي توفر الماء للشرب، وللزراعة

التي تشغل ٢٥ ٪ من مساحتها.

لذلك فإن المعارضة المصرية تتهم حكومتَها بضعفها وفشلها وتراخيها في التعامل مع هذه الأزمة؛ حيث ظهرت بوادر الأزمة منذ سنوات ولم تقم الحكومة بواجبها في احتوائها بالعمل على قيام مشـــروعات مع تلك الدول، وتعزيز الوجود المصري فيها، وتقـــديم مصالح مادية لتلك الدول؛ لتقطـــع عليهم طريق تلك المؤامرة التي يغذيها مَنْ يدفع لهم.

لقـــد طُرِحَ لحل تلك الأزمة المفتعلـــة النفط مقابل الماء؛ أي تزويـــد تلك الـــدول بالبترول مقابل توفير كميـــات الماء الكبيرة لمصر، وطُرِحَ أيضاً تســـعير الماء وبيعُه لمصر. ومع اشتداد الأزمة وخطورتها وتصاعدها بنحو غير مسبوق في تاريخ مصر أعلنت مصر على لســـان أكبر مســـؤوليها أن نهر النيل مسألة حياة أو موت؛ وهو ما جعل بعض الناس يظن أن مصر ربما ستحارب من أجل ماء نهر النيل؛ وهو أمر لا يُستبعَد إذا وصلت المؤامرة إلى حدِّ الخطورة، ولكنه ليس مطروحاً الآن بصفة مستعجلة على أجندة الحكومة المصرية التي تتحرك سياسياً ودبلوماسياً وأمامَها الحل القانوني؛ وطبقاً للقانون الدولي، فإن حقوق مصر ثابتة بالعديد من الاتفاقيات الدولية، خاصة قانون الأنهار الدولية الذي يحمي كافة حقوق مصر في حصَّتها، ويدعم موقفها القانوني، فضلاً عن مبدأ قُدســـية الحدود الموروثة عن الاستعمار أو ما يُطلق عليـــه (مبدأ أوتي بوســـيتيديس جوريس فـــي القانون الدولي) Juris Uti Possidetis، ويطلـــق عليـــه الفقهُ الدولي العربي (مبدأ قدسية الحدود الموروثة عن الاستعمار)، أي ثبات الوضع الذي كان قبل الاستقلال، ومنها الموارد المائية.

وفقه القانون الدولي ينص على أن استقرار هذا الوضع لمدَّة طويلة، يجعلها بمثابة قاعدة قانونية لا يجوز مخالفتها، فضلاً عن جعلها قاعدة عامة، طبقاً لقانون المعاهدات الذي عَرَّف القاعدة الآمرة في القانون الدولي في المادة (٥٣) بأنها: (القاعدة المقبولة والمُعترف بها من قِبَل المجتمع الدولي ككل، وأنها القاعدة التي لا يجوز الإخلال بها، ولا يُمكن تعديلها؛ إلا بقاعدة لاحقة لها من القواعد العامة للقانون الدولـــي)، والقاعدة الآمرة في القانون الدولي، لا يجوز الاتِّفاق على مخالفتها.

كمـــا نصَّت المادة (٣٥) من قانـــون المعاهدات على الآتي: (ينشأ التزام على الدولة الغيْر من نصٍّ في المعاهدة، إذا قصد الأطراف فيها أن يكون هذا النصُّ وسيلة لإنشاء الالتزام وقَبِلَت الدولة الغيْر ذلك صراحة وكتابة).

ولكنـــي اعتقد أن الســـبب في الوصول إلـــى تلك المرحلة من الأزمة هو الإهمـــال الحكومي المصري لإفريقيا منذ كامب ديفيد المشـــؤومة؛ فقد كانت كثير من الـــدول الإفريقية ليس لهـــا علاقات دبلوماسية مع كيان الاحتـــلال، ولكـــن بعدما استســـلمت مصر ووقعـــت اتفاقية الاستســـلام توغَّل الصهاينـــة وازداد دورهم في إفريقيـــا؛ حتى أصبح لهم قواعد ومصالح إســـتراتيجية في إفريقيا، وكل ذلك بســـبب اتفاقية كامب ديفيد المشؤومة.

وإذا كان للصهاينـــة دور فـــي المؤامرة فبلا شـــك لا تغيب الولايات المتحدة الأمريكية عـــن تلك المؤامرة لابتزاز الحكومة المصرية في ملفات إقليمية ودولية هامة.

ولا يخفى أن مصر تعتمد بنسبة ٨٥ ٪ على ماء النيل؛ فهو شـــريان الحياة، وما حدث من دول الحوض الإفريقية إنما هو بمثابـــة إعلان حرب على مصر؛ فالقضيـــة هي الأمن القومي لمصر، ولا تراجع فيها مطلقاً

إن الحرب العسكرية مع الصهاينة قد توقفت بنصر أكتوبر العاشـــر من رمضان عـــام ١٩٧٣م (ثم اتفاقيـــة كامب ديفيد المشـــؤومة) لكـــن أُعلِنَت الآن حرب المياه علـــى مصر، واتمنى أن تنتصر مصر في تلـــك الحرب الرهيبة التي هي أخطر من الحرب العسكرية؛ إذ تمسُّ حياة ٨٥ مليون إنسان.

وأخيراً: فـــإن ما حدث من دول الحوض الإفريقية يدل على أن القوة العســـكرية والسياســـية تفتح لك أبواب المصالح والتفوق على الآخرين، وأن إعلان مصر انكفاءها على نفســـها بعد كامب ديفيد أضعـــفَ من دورها الإقليمي والدولي في شـــتى المجالات، وهو ما فتح الباب لظهور قِوى أخرى في (الشـــرق الأوسط) كدولة الاحتـــلال الصهيوني، وأيضاً إيران التـــي لا يخفى صعود دورها الإقليمـــي والدولي، ووجودُها في إفريقيا؛ وقد ســـبق ظهورَ تلك المؤامـــرة على العلن زيـــارةٌ للرئيس الإيرانـــي محمود نجاد لدول إفريقيا؛ فهل تحالفت إيران مع إســـرائيل على مصر في إفريقيا، تســـاندهم الولايات المتحدة؛ لتحقيق توازنات سياسية في ملفات معقَّدة بينهم على حســـاب مصر الضعيفة؟ إن الأيام سوف تفضح مزيـــداً مما حدث ولا تُســـتَبعَد تلك المؤامرة؛ فقـــد عرَّف هنري كيسنجر العولمة بقوله: (إن القوة هي الحق ومن يملك القوة يفرض ما يريد). وللأســـف فإن مصر بعد كامب ديفيد لم تعد تملك قوة تفرض بها مـــا تريد، فتوالت عليها المصائب وآخرها المؤامرة على نهر النيل، شريان الحياة في مصر.

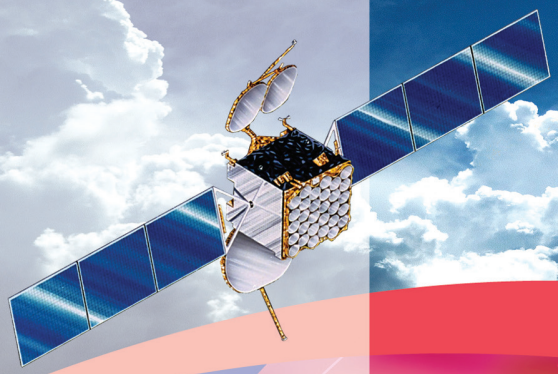

AFRICA TV
قناة إفريقيا الفضائية

قناة إفريقيا الفضائية

(فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً ، خيرٌ لك من أن يكون لك حمر النعم)

قناة إفريقيا الفضائية: إعلامية ثقافية، إسلامية الانتماء عالمية التوجه، تقدم إعلاماً إسلامياً هادفاً و متميزاً، برؤية عصرية وأفكار إبداعية وبرامج إبتكارية، وفقاً للمعايير الاحترافية والمبادئ المهنية في إطار مؤسسي.

وإذ تسعى قناة إفريقيا لنشر الوعي العام بالإسلام وقضاياه فإنها تطمح إلى التأثير الإيجابي في المجتمع الأفريقي و التعريف بمحاسن الإسلام وسماحته والمحافظة على الأخلاق الإسلامية و تلبية حاجة المشاهد من خلال مجموعة متنوعة من البرامج الجادة التي تمس حياته و تتناول اهتماماته المختلفة و تُشبع رغباته الإنسانية المتعددة.

إحداثيات البث

ARABSAT BADR-6
Freq. : 11727 MHz
Pol. : H
SR : 27500
FEC : 3/4

+249 120 876 555
+249 912 734 524
www.africatv.sd
info@africatv.sd

الحرية الفلسطينية عن طريق القوافل

د. محمد مورو

كشفت قوافل الحرية لغزة، التي نظمتها منظمات فلسطينية أهلية، وعدد من الناشطين الأحرار في مختلف أنحاء العالم عن أن هناك طريقاً خصباً لتحريك القضايا المعقدة، بل لتحقيق نتائج لم تكن في حُسبان أحد، ويرى المحلل البريطاني المنصف روبرت فيسك أن القرار الآن لم تعد تتخذه الحكومات ولا وزارات الخارجية؛ بل النشطاء والمنظمات الأهلية. والصحيح أن نقول - بناءً على رأي روبرت فيسك -: إن الفساد وازدواج المعايير قد أصاب الحكومات في معظم أنحاء العالم؛ بحيث إنها أصبحت غير قادرة أو غير راغبة في اتخاذ الموقف العادل في مختلف القضايا، وعلينا أن نقرأ المستجدات ونستخلص النتائج.

فالذي حدث أن عدداً من السفن تحمل موادَّ غذائية وطبية وإنشائية قد عزمت على التوجُّه إلى غزة لمساعدة أهلها، فتصدت لها قواتٌ بحرية وجوية إسرائيلية، واعتدت عليها وقتلت عَشَرة من أفرادها وجرحت خمسين آخرين، واهتز ضمير العالم، وبات من الممكن جداً أن يُكسَر الحصار على غزة لو استمرت تلك القوافل، وقد يقول بعض الناس: إن الضمير الإنساني قد اهتز نتيجة حماقة إسرائيل في قيامها بالتصدي للقوافل والبواخر في المياه الدولية وكذا قَتْلها وجَرْحها عدداً من الناشطين، وهذا صحيح جزئياً؛ لأن العدوان والقتل زاد من تأثُّر الضمير الإنساني في كل أنحاء العالم، ولكن هذا التأثر كان سيحدث أيضاً لو لم يسقط قتلى وجرحى، وكذا فإن الغريزة الاستعمارية عموماً، والصهيونية خصوصاً، لا بد أن تقود الدول الاستكبارية إلى مثل هذه التصرفات الحمقاء.

والشيخ رائد صلاح - وهو من عرب فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م الذين يعيشون داخل فلسطين ويحتكُّ يومياً بسلطات الاحتلال الصهيوني - يعرف طبيعة تركيب المجتمع الصهيوني، ويرى أنه كيان متغطرس وغبي، ونضيف إليه أنه أيضاً هش، والغطرسة والغباء والإحساس بالمأزق داخل المجتمع الصهيوني سيقود حتماً إلى المزيد من الممارسات الغبية التي تؤجج الرأي العام العالمي ضد إسرائيل، ونحن

في عالم الأقمار الصناعية والقنوات الفضائية والإنترنت لا يمكن تجاهل التحركات الأهلية ذات الطابع السلمي، ولا يمكن لإسرائيل أو أمريكا أو أحد أن يتجاهل أو يتجاوز هذا الفعل الإنساني، وهكذا كانت قافلة الحرية كلها خير على الرغم من سقوط شهداء فيها، لقد كانت خيراً لغزة، وخيراً لفلسطين كلها وخيراً لمن شارك فيها، وقد كشفت قافلة الحرية لغزة عدداً من الحقائق، منها:

- أن الكيان الصهيوني كيان متغطرس غبي أحمق هَشٌّ.
- أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تَصلُح وسيطاً، بل هي نفسها تتحمل جزءاً من المسؤولية الجنائية والأخلاقية عما حدث.
- أن الأطر الرسمية الدولية لا قيمة لها، مثل مجلس الأمن أو غيره.
- أن أوروبا الرسمية منافقة.
- أن الحكومات العربية عاجزة.
- أن الدور التركي يتعاظم في المنطقة على حساب الدور الإيراني مثلاً، وهناك ترحيب بين الشعوب العربية والإسلامية بهذا الدور؛ لأنه لا يثير حساسية طائفية، فتركيا دولة مسلمة سُنية.

وقد حققت قافلة الحرية لغزة عدداً من النتائج الإيجابية، منها:

- اضطرار حكومة مصر إلى فتح معبر رفح؛ وهو أمر لم يتحقق من قَبْلُ بسهولة.
- اضطرار حكومات عربية إلى تجميد مشاركتها في مبادرة السلام العربية.
- اضطرار سلطة أبي مازن لإدانة إسرائيل.
- تحقيق نوع من التضامن الشعبي في مختلَف أنحاء العالم مع أهالي غزة، وأعادت قصة حصار غزة وأهلها إلى الصدارة بعد أن جرى إهمالها طويلاً.
- حققت للحكومة التركية رغبتها في تقليص العلاقات مع إسرائيل تمهيداً لقطعها في النهاية؛ لأن من المعروف أن القرار الإستراتيجي في تركيا ليس بيد وزارة حزب العدالة والتنمية، بل هو مسألة معقدة يدخل فيها الجيش والقضاء والدستور العَلماني التركي، وإذا كانت حكومة أردوغان لم تكن تستطيع تقليص التعاون العسكري التركي الإسرائيلي، أو التوجه إلى آخر المدى إلى الفضاء العربي والإسلامي؛ لأن ذلك سيثير العَلمانيين الأتراك ومجلس الأمن القومي والقضاء والجيش في تركيا؛ فإن ما أراده حزب العدالة والتنمية في التوجه إلى الفضاء الإسلامي، أو تقليص العلاقات مع إسرائيل قد أصبح مطلباً للأحزاب العَلمانية ذاتها، بل اتخذ الجيش التركي نفسه قراراً بإلغاء المناورات العسكرية مع إسرائيل؛ لأن كرامة تركيا قد امتهنت على يد الجيش الصهيوني، وسالت دماء شهداء أتراك بنيران أسلحته.

وقد يقول بعضهم: إن هذا المكسب الذي حققه حزب العدالة والتنمية داخل تركيا سيكون أمراً مؤقتاً؛ فالجيش والأحزاب العَلمانية التركية سوف تعود لامتلاك زمام المبادرة وحصار هذه الرغبة لرجال أردوغان، والولايات المتحدة الأمريكية سوف تضغط على تركيا لتحسين علاقاتها مع إسرائيل مرة أخرى، ولكننا نَرُدُّ بأن حزب العدالة والتنمية وأردوغان لا يتراجع بسهولة عن مكسب حققه، خاصة أن المجتمع التركي كان شديد الاستفزاز تجاه إسرائيل وأن الولايات المتحدة تعرف أن الصراع مع تركيا فيه خسارة مؤكَّدة للولايات المتحدة على مستوى إستراتيجيتها العالمية في الحرب على الإرهاب؛ فوجود حزب قومي ذي ميول إسلامية معقولة في تركيا ضرورة لعدم انتشار الإرهاب عن طريق تركيا أو في تركيا ذاتها ممتداً إلى أوروبا وأمريكا، وحكومة أردوغان تعرف هذا الأمر وتتصرف بثقة تجاه الولايات المتحدة.

إذا أردنا أن نستفيد من تلك التجربة، فإن علينا الدعوة إلى مزيد من القوافل لتحقيق كسر الحصار عن غزة، بل يمكننا أيضاً الدعوة إلى قوافل برية مليونية عن طريق تجميع العرب والمسلمين وأحرار العالم وكل فلسطيني في الخارج أيضاً على الحدود مع الكيان الصهيوني من خلال الحدود المصرية والأردنية واللبنانية والسورية وعن طريق قوافل بحرية كبيرة جداً أمام الشواطئ الفلسطينية المحتلة، وإذا نجحنا في تحقيق عدد من المظاهرات المليونية على الحدود ومن البحر، فربما تكون هذه هي بداية أفول إسرائيل بالفعل، ولا يعتقدون أن هذا مجرد خيال لن يتحقق، فإن الثقة في الله - تعالى - أولاً ثم الثقة في شعوبنا العربية والإسلامية، وأحرار العالم، ومنظمات المجتمع المدني ثانياً، أكبر كثيراً مما نتصور.

من الحكمة: أن تنزل من العربة في الوقت المناسب

د. يوسف بن صالح الصغير(*)

في أوقات السلم والاسترخاء تكون أنظار العامة متجهة إلى نجوم الرياضة والفن؛ فهم على كل لسان وأخبارهم تتصدر الصحف والمجلات؛ سواء الرصينة أو الفضائحية. ويمكن لأحدهم أن يكون بطل الأمة بجائزة أوسكار فاز بها أو ميدالية تحصَّل عليها.

ومن العجيب أن الحاصلين على الجوائز العلمية، مثل نوبل للطب والفيزياء لا يعرفهم إلا الخاصة من الناس. أما العسكريون فليس لهم ذكر؛ فلا أحد يتذكر من هو وزير الدفاع أو رئيس الأركان أو قائد الطيران. أما في أوقات الحرب فإن البطل القومي هو أكثر العسكريين شهرة، وبصورة أخرى فإن التاريخ العسكري هو الأساس في النجاح السياسي؛ ولذا فلا نستغرب أن رؤساء أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية كانوا قادة مشهورين أثناء الحرب مثل أيزنهاور.

ولم تكن العلاقة بين القادة السياسيين والعسكريين جيدة على الدوام، بل يشوبها التوتر والحساسية؛ خاصة عندما تكون الحروب صعبة وتطول بدون نصر واضح؛ فالسياسي حريص على إنهاء الحرب بأسرع وقت وبأقل خسائر وبنصر واضح قَدْرَ الإمكان، والعسكري حريص على النصر، بل النصر المدوي الذي قد لا يتحمله السياسي ذو الخلفية المدنية. ونحن هنا سنضرب مثلين بقائدين أمريكيين يبدأ اسم كل واحد بـ: ماك.

الأول: الجنرال ماك آرثر: كان آرثر هذا قائد القوات الأمريكية في الشرق وحاكم الفلبين المطلق، وهُزِمَت قواته أمام اليابانيين ومع ذلك استمر في قيادة القوات الأمريكية التي تضخمت واتسع مجال عملها، وتم له في النهاية إخضاع اليابان وتولى منصب الحاكم العسكري لليابان، وهو الذي أشرف على كتابة الدستور الياباني بما فيه بقاء الإمبراطور مع تجريده من الصلاحيات.

لقد كان ماك آرثر يتحكم في جزء كبير من المستعمرات الأمريكية في الشرق، أو بصورة أخرى: كان عليه المحافظة على السيطرة الغربية على المنطقة ومواجهة المد الشيوعي في كوريا وفيتنام؛ خاصة بعد الفشل في احتواء ماوتسي تونغ (الزعيم الصيني الجديد آنذاك)، وكانت كوريا هي ميدان الاختبار الأول؛ فقد جرى تقاسمها بين أمريكا وروسيا بخطٍّ وهمي، وأقيمت دولة شمال الخط تدعمها الكتلة الشيوعية وعمادها الحزب الشيوعي الكوري الذي كان يقاتل اليابانيين لتحرير كوريا ويدعو لتوحيد كوريا بضم الجزء الجنوبي الذي أقامت عليه أمريكا حكومة تابعة لها بلا قاعدة صلبة ملتزمة: إما ببقاء الجنوب منفصلاً أو داعية لتوحيد كوريا على مبادئها، هذا إن كان لها مبادئ.

إنها نقطة الضعف الكبيرة في كل ما تصنعه أمريكا من دول سرُّ بقائها الوحيد هو الدعم الأمريكي وهي غير قادرة على خوض أي صراع داخلي أو خارجي بدون توجيه أو دعم منها، إنها صورة تكررت في كوريا وفيتنام وكوبا وأخيراً في العراق وأفغانستان وفلسطين؛ إنهم يقيمون دولاً يقودها إمَّعات وشخصيات مستلبة القدرة على التصرف، يقابلها دول أو كيانات تعتمد على أحزاب عقائدية وشخصيات قيادية؛ فالكل يعرف قادة كوريا الشمالية وفيتنام الشمالية بينما طوى النسيان شخصيات أمريكا.

نعود إلى كوريا الشمالية التي اجتاحت الجنوب وجُنَّ جنون أمريكا وخاصة الحاكم المطلق للمنطقة (ماك الأول) الذي بدأ يحشد الجيوش بينما كانت أمريكا تُعِدُّ للحرب وتريد أن تستغل الأممَ المتحدة وتشنَّ الحرب باسمها. وصدر قرار مجلس الأمن بغيابٍ متعمَّد من الروس الذين يبدو أنهم كانوا يريدون أن تدخل أمريكا الحرب بأسرع ما يمكن، وتم للجميع ما أرادوه، وتكونت قوات التحالف بقيادة أمريكية وبقوات أمريكية تدعمها قوات أممية لدول كثيرة لا تبعد كثيراً عن الدول التي شاركت في فيتنام والعراق وأفغانستان.

المهم أن (ماك الأول) دخل ليضيف نصراً جديداً إلى سجلِّه؛ حيث دُمِّرت عاصمة الجنوب مرتين وجميع المدن الجنوبية والشمالية ودخل منتصراً عاصمة الشمال ولكن الحرب امتدت لسنوات بسبب مشاركة القوات الصينية المدعومة بقوة من الروس، وكان الحل الوحيد لتحقيق النصر – من وجهة نظر (ماك الأول) – هو أنه حدد عدداً كبيراً من المدن الصينية وطلب الإذن بضربها بالقنابل النووية.

نعم! ليَمُت ملايين المدنيين ولينتصر ماك نصراً يستحق أن يدخل العالمُ بعده حرباً عالمية جديدة! وكانت صدمة للرئيس الأمريكي الذي تضايق من قَبْلُ لتصرفات ماك المتعالية أثناء استقباله له وخاف عواقب بقائه في الشرق البعيد وتحت تصرفه قوات هائلة فجرى استدعاؤه واستُقبِل استقبال الأبطال وتم تعيين بديلٍ عنه وهو في نيويورك البعيدة

(*) أستاذ مشارك في كلية الهندسة – جامعة الملك سعود – الرياض.

عن مكان قوَّته.

ومن أراد أن يعرف مقدار صدمته لهذه النهاية لتاريخه فَلْيطَّلع على خطابه الوداعي في الكونجرس. لقد خرج من الساحة؛ لأنه كان يحتقر السياسيين ولا يحترم حتى الرئيس، وكان ينظر للحرب على أنها قضية تمسه شخصياً ولم يكن أي حزب قادراً على احتوائه والاستفادة من شعبيته الطاغية فتمتع بتقاعده في عالم النسيان يجتر الذكريات.

أما ماك الثاني: فلم يخض حرباً حقيقية، بل تولى فترة قيادة القوات في العراق، وتم التطبيل لنجاحه في تحسين وضع القوات الأمريكية وتخفيض الخسائر بينها؛ بحيث أصبحت حرب العراق حرباً داخلية، وجرى نقله قائداً للقوات الأمريكية وقوات حلف الأطلسي إلى أفغانستان، وقد طُلِب منه بوضوح تطبيق أساليبه الناجحة في أفغانستان وإنشاء صحوات أفغانستان؛ لكن سرعان ما اكتشف أن النجاح في أفغانستان دونه خرط القتاد؛ ولذا بدأ بطلب زيادة القوات بدعوى ضرب الخصم وتليين موقفه ووطد علاقته مع قرضاي وحكومته، ولكنه كان يتلقى الضربات اليومية من طالبان. والاتصالات اليومية قائمة من مبعوثي الرئيس حول آخر الإنجازات التي يمكن أن يستفيد منها (الرئيس).

لقد خاض أوباما الانتخابات بشعار أنه يحمل الحل الأمثل بالخروج الآمن من العراق والانتصار في أفغانستان خلال مدة قصيرة، وبينما كان الوقت يمر كان الوضع على الأرض يزداد سوءاً؛ فلقد بحثوا عن أكباش الفداء وبدؤوا بقرضاي الذي اتهموه بالفساد والتزوير واختلاس أموال الدعم ومع كل ذلك لم يجدوا بديلاً عنه. إنهم يبحثون عن نظيف يتعاون مع الاحتلال الأجنبي؟

لقد كان ماكريستال يخوض تجربة يحس فيها أنه أقرب للفشل وهو محاط بأشخاص حريصين على توريطه وحدَه؛ ولذلك قدَّم السفير الأمريكي في كابل تقريراً سلبيّاً للكونجرس عن الأوضاع. أما نائب الرئيس فهو كذلك متشكك في الإستراتيجية الأمريكية في أفغانستان... إنهم سلبيون لا يقدمون حلاً ولا يعجبهم عمل الأخرين؛ ولذا كانت خطته أن يخرج والكل يتحدث عن ماكريستال الذي لم يعطَ فرصة للنجاح؛ ولذا فإنه من الطبيعي أن يخرج بنجاح ظني من الجيش ويدخل إلى السياسة مستفيداً من أخطاء الذين أخرجوه.

لقد كان خروجه ذكياً يوحي له بمستقبل في عالم السياسة القذر؛ فقد استضافه مراسل مجلة أمريكية لمدة أسبوع وأسمعه كثيراً عن انطباعاته عن أوباما وفريقه، وكتب المراسل بعض ما يمكن نشره وسكت عن كثير، ولم ينفِ ماكريستال ما نُشِر، وكان اعتذاره اعتذاراً أمريكيا تقليدياً يقوله كل من ارتكب جريمة أو خان زوجته يتلخص بأن: هذا التصرف خطأ وأنه ليس من عادته ارتكاب مثل هذه الأخطاء. وإليك أخي القارئ بعض ما نُشِر حول الموضوع:

- ذكرت صحيفة «ذي اندبندنت أون صنداي» أن إقالة الجنرال ماكريستال لم تنتج فقط من تصريحاته كما هو معلن، بل ترجع أيضاً إلى تقرير كان قدَّمه قبل أيام من إقالته لوزراء الدفاع في دول حلف الأطلسي تضمَّن حصيلة سلبية عن الوضع في أفغانستان، وتشكيكاً في إمكانية حدوث تقدُّم على صعيد الوضع الميداني بعد ثمانية أعوام ونصف من الحرب بأفغانستان (يشبه تصرف السفير وللهدف نفسه).

- نقلت مجلة «رولينغ ستون» الأمريكية في عددها الصادر يوم ٢١ يونيو ٢٠١٠م عن ماكريستال قولَه: «هل تسألون عن نائب الرئيس بايدن؟ من هو هذا الرجل؟ هل تقصدون بايت مي؟»، مستخدماً الكنية العائلية لجو بايدن.

- أوضح ماكريستال أنه شعر بأنه تعرَّض للخيانة من قِبَل السفير الأمريكي في كابول (كارل أيكنبري) العام الماضي ٢٠٠٩م خلال نقاش في البيت الأبيض حول الإستراتيجية في أفغانستان.

وبشأن مذكرة داخلية للسفير أيكنبري تم تسريبها متضمنة تشكيكاً بجدوى مطالبة الجنرال ماكريستال بتعزيزات. قال الجنرال الأمريكي: «هذا شخص يسعى إلى حماية نفسه، وهكذا في حال فشلنا فإنه سيكون بإمكانه أن يقول: سبق أن حذرتكم من هذا».

- وسَخِر الجنرال ماكريستال كذلك من المبعوث الأمريكي الخاص لأفغانستان وباكستان (ريتشارد هولبروك) وقال بعد أن نظر الى هاتفه الجوال: «إنها رسالة إلكترونية أخرى من هولبروك لا أرغب حتى في مجرد فتحها».

- صرَّح أحد مستشاري ماكريستال بأن الجنرال لم يكوِّن انطباعاً جيداً من لقاءٍ مع أوباما في البيت الأبيض عقب تعيينه على رأس العمليات في أفغانستان. وقال المستشار وَفْقاً لمجلة «رولينغ ستون»: «كان لقاءً استمر عشر دقائق بغرض التقاط الصور، ولم يكن أوباما يعرف شيئاً عنه وعمَّن يكون ولم يُبْدِ الكثير من الاهتمام».

- زعم مسؤولون مقرَّبون من الجنرال أن مجلة رولنغ ستون، التي نشرت تصريحات لماكريستال أدت إلى إقالته، انتهكت قواعد الصحافة. وقالوا لصحيفة واشنطن بوست: إن صاحب المقالة مايكل هاستينغز نقل عن الجنرال وزملائه أحاديث سُمِح له بسماعها دون أن ينقلها. كما رفض المسؤولون تصريحاً صدر عن المدير التنفيذي للمجلة إريك بيتس أكد فيه أن مجلته راجعت القصة الخبرية بشكل دقيق مع موظفي ماكريستال قبل النشر.

- نفى المدير التنفيذي للمجلة إريك بيتس في مقابلة صحفية أن يكون هاستينغز قد انتهك قواعد النشر عندما كتب عن الأسابيع الأربعة التي قضاها مع فريق ماكريستال. وتابع قائلاً: «إن كثيراً من الأشياء التي قيلت خارج النطاق الرسمي لم تُنشر»، مؤكداً التزام المجلة بقواعد النشر في جميع الحالات.

- أما اعتذار الجنرال فإليك بعضه: «هذا خطأ يعكس ضعفاً في التقدير، وما كان يجب أن يحدث»، وأضاف: «طيلة حياتي المهنية طبقت مبادئ الشرف الشخصي والنزاهة المهنية وما ورد في هذا المقال بعيد جداً عن هذه المعايير»، ثم أردف: «أُكِنُّ احتراماً وإعجاباً كبيرين للرئيس أوباما وفريقه للأمن القومي».

من الواضح أن الجنرال يريد النزول من العربة في هذا الوقت وليكن الفشل حليف من يخلفه، وإلى اللقاء في انتخابات قادمة ليعود منقذاً. وصدق الله في وصفه لفئة من الكفار تصدق على الفئة الحاكمة في أمريكا؛ حيث قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ٤١] والخلاف الظاهر دليل على صعوبة الوضع ونُذُر الهزيمة.

الشيخ ماجلان في بحار الأديان

أحمـــــــد فـــهـــمـــي
afahmee@hotmail.com

تخيَّل أنك تعيش في مدينة الآباء والأجداد تمارس حياتك اليوميـــة في ســـلام لتُفَاجَأ ذات يوم مع أهل المدينة بســـفينة هائلة ترسو على شـــاطئها، ثم ينزل منها أناس وهم يصيحون ويصخبون. وبعد هنيهة تكتشـــف أنهـــم يُعبِّـرون عن فرحتهم بـ «اكتشـــاف أرض جديدة» (أي: مدينتـــك). وبعد فترة يجري الإعلان عالمياً عن اكتشـــاف الأرض الجديدة التي أُطلِق عليها اســـمٌ جديد وسُمِّي شعبها باسم جديد، وأُنعِم عليهم بالمصطلح «المُتحفي»: السكان الأصليون.

هكذا كان الحال في عصر «الكشـــوفات الجغرافية»؛ حيث مئات من المغامرين يجوبون البحار بحثاً عن كشف جديد(قديم) ينالون به المال والشـــهرة، ولم يمتلـــك أغلبهم مهارات وقدرات مثل المغامرين الأكثر شهرة: كريستوفر كولومبوس، وفاسكو دي جامـــا، وماجلان؛ فبعضهم قنع باكتشـــاف جزر نائية مهجورة، وبعضهـــم ذهب يبحث عن الهند فوجـــد أمريكا، وهكذا أصبح «ســـكانها الأصليون» هنوداً؛ لأن مكتشـــفها أخطأ الطريق، ثم أصبـــح الهنود أعداءً؛ لأنهم تجـــرؤوا ودافعوا عن أرض آبائهم وأجدادهم.

وفي عصرنا الحالي يعيد بعض المشـــتغلين بالدعوة والعلم الشرعي أمجاد المكتشـــفين الأوائل، ولكن تحت عنوان جديد: «الكشوفات الفقهية».

إذ يوجد عدد لا يســـتهان به ممن يجوبون الكتب والمراجع والوقائع بحثاً عن قديم يعيدون اكتشـــافه في ثوب جديد تتغير فيـــه المقاصد والمـــآلات والعلل والأحكام لتتناســـب مع غايات المكتشفين الجدد.

تخيـــل أنك تتعبد الله - تعالـــى - بحكم فقهي أجمع عليه فقهاء بلدك المشـــهود لهم بالفقه والدراية، واستقر العمل عليه مئات السنين دون تغيير، ثم فجأة يخرج بعضهم صائحاً صاخباً على طريقة «أرخميدس»: وجدتها... وجدتها... معلناً أن ملايين المســـلمين الذين تعبَّدوا الله بهذا الحكم الشـــرعي كانوا على ضلالة، والســـبب هو ظهور «أدلة جديـــدة»، وكأن الفقه يجري

إنتاجه في المعامل والمختبرات.

إن نموذج «الشـــيخ ماجلان» الذي يجـــوب الآفاق بحثاً عن حكم فقهي يعلنه «كشفاً علمياً» ثم يقلبه رأساً على عقب مسمياً الأشـــياء بغير اسمها الذي تعارف عليه الناس مئات السنين، هو نموذج متكرر يصل إلى مستوى الظاهرة، فقائمة الأحكام الفقهية المســـتهدَفة طويلة، ويمكن بالنظر إلى أوَّلها تَوقُّع ما في آخرها، مما لم يناله «المكتشفون الجدد» حتى الآن.

إنه لا يمكن بحال تكرار أخطاء السابقين من السكان الأصليين، بمعنى آخر لا يمكن أن يتحول المسلمون إلى «هنود حمر»، فالأمر يحتـــاج إلـــى نهضة علمية شـــاملة تجدد ما انـــدرس من أحكام الإسلام، وتُرسخ ما تَهدَّد منها... هذه هي الرؤية الاستباقية التي يحتاجها المسلمون حالياً، فَلْنكتَشف نحن ثوابتنا الفقهية ونجددها ونرسخها قبل أن يصلها «الشيخ ماجلان» وأمثاله.

كن شريكنا في الدعوة

من أهداف المكتب

- دعوة غير المسلمين إلى الإسلام .
- طباعة الكتب والمطويات والصحائف الدعوية .
- كفالة داعية .
- إقامة الدروس و المحاضرات .
- نسخ الأشرطة و توزيعها .
- إقامة مسابقات بجميع اللغات .

المكتب التعاوني للدعوة و الإرشاد وتوعية الجاليات بـ طلعة التمياط

للتواصل :

هاتف : ٠٤٦٧٨٤٤٨٧ ناسوخ : ٠٤٦٧٨٤٤٨٧

جوال (رسائل نصية) : ٠٥٠٦٣٨٢٣٥١

ساهم معنا تكن شريكنا في الدعوة ..

قال رسول الله صل الله عليه وسلم :

(أحب الأعمال إلى الله تعالي أدومها وإن قل) رواه البخاري ومسلم

ساهم في دعم مسيرة المكتب من خلال

استقطاع مبلغ شهري من حسابك

تساهم به في أنشطة المكتب المختلفة

للمساهمة : الرجاء زيارة أقرب فرع لمصرف الراجحي وتعبئة النموذج

رقم الحساب في مصرف الراجحي: ١٦٩٦٠٨٠١٠٢٧٠٠١٢

مرصد الأخبار

جـــــلال الـــشـــايـــب
ielshayeb@hotmail.com

المركز الخامس لمصر في مؤشر البؤس!

احتلت مصر خامس أسوأ مركز في قائمة الـ٦٠ دولة التي يغطيها مؤشـــر البؤس الذي تُعِدُّه وكالة أنباء بلومبرج؛ وأعلنت عن نتائجه الســـنوية خلال الشهر الماضي، وهو مركز متراجع بنحو ٥٥ نقطة عن العام الماضي.

ويقيـــس معدل البـــؤس تردِّي الوضـــع الاجتماعي بجمع معدلَي (البطالة والتضخم)، وبالنســـبة لمصـــر كان التضخم المساهم الأكبر في حالة البؤس بها، وهو الذي سجل متوسطاً ســـنوياً بنحو ١٠,٧ ٪ في عام ٢٠٠٩م، في مقابل معدل بطالة بنسبة ٩,١ ٪ في المتوسط، تبعاً للمؤشر.

إلا أن عثمان محمد عثمان (وزير التنمية الاقتصادية المصري) يـــرى أنه على الرغم من «قلة فرص العمل وزيادة الغلاء بســـبب الأزمة – وهو ما أدى إلى اتساع دائرة الفقراء في مصر، وانضمام ٤ ملايين فرد إليها في عامي (٢٠٠٨م – ٢٠٠٩م) – إلا أن هذا لا يعني ارتفاع مؤشر البؤس فيها أو أي شيء من هذا القبيل»، كما أنه اعتبر «أن مصر خرجت من الأزمة بأقل الخســـائر، فقد كان من الممكن أن تتدهور أحوال الناس أكثر من ذلك بكثير»، فالحمد لله أن وصلت الحالة إلى هذا المعدل فقط.

وتوضح هبة الليثي (واحدة من المشاركين في إعداد التقرير)، أنه جرى التوصل فيه إلى أن الأزمة أدت إلى ارتفاع عدد المصريين الذين يعيشـــون تحت خط الفقر إلى ٢٢ ٪ في عامي (٢٠٠٨م – ٢٠٠٩م)، مقابل ١٩,٦ ٪ في عامي (٢٠٠٤م – ٢٠٠٥م).

[جريدة الشروق: ٢٠١٠/٧/٢٥م]

المدارس الخاصة... وثمرة الاحتلال

ازدهـــرت المـــدارس الخاصة في العـــراق منذ الغزو الذي قادته الولايات المتحدة في عام ٢٠٠٣م بعد أن كانت محظورة في عهد صدام حســـين؛ وذلك مع تزايد شـــعور العراقيـــين بالإحباط نتيجة فشـــل الحكومة العراقية في توفير الخدمات الأساسية.

وعلى الرغم من المصاعب الاقتصادية فإن معظم الآباء العراقيين يتمكنون من تدبير ١٥٠٠ دولار للفصل الدراسي الواحد لإرسال أبنائهم إلى مدارس خاصة على أمل توفير مســـتقبلٍ أفضل لهم، كما تفيد بيانـــات وزارة التعليم بأن في العراق الآن ٢٠١ مدرســـة خاصة غير مدارس رياض الأطفال.

ومـــن الجدير بالذكر ما قاله محســـن علي الفريجي (مستشار وزارة التربية) من أن: «٣٥ ٪ فقط من المدرسين الحاليـــين في العراق تلقَّـــوا تدريباً مناســـباً. كما يَقرُب عـــدد التلاميذ في الفصـــل الواحد مـــن ٦٠ تلميذاً في بعض المـــدارس الحكومية العراقية البالغ عددها ١٨ ألف مدرسة».

[وكالة رويترز: ٢٠١٠/٦/٢٩م]

المشعوذون الأطفال

أكدت منظمة رعاية الأمومة والطفولة التابعة للأمم المتحدة (اليونيســـيف) في تقريرٍ لها على ارتفاع عدد الأطفال المتهمين بممارســـة الســـحر والشـــعوذة في الدول الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى، ويَعْزو هذا التقرير تنامي هذه الظاهرة إلى تفشي النزاعات، وزيادة عدد سكان المدن، وارتفاع كلفة تربية الأطفال.

وتقول اليونيسيف: إن الأطفال ذوي الأوضاع الأكثر صعوبة: كالأيتام والمشردين والمعاقين جسدياً وعقلياً، هم في مركز الخطر، ومعظم هؤلاء أولاد بين الثامنة والرابعة عشر.

وتعرض التقرير إلى العقوبة التي تنتظر من يُتَّهمون بالشـــعوذة من الأطفال؛ فهي عقوبة خطيرة كالحرق والضرب المبرح وقد تصـــل إلـــى القتل، ومع ذلك فإن تقارير أخرى تفيد بأن «طاردي الأرواح» الذيـــن يتقاضون مبالغ طائلة مقابل القيام بالمهمة قد شجعوا على تفاقم المشكلة حتى مع فرض العقوبات.

وفي النهاية أقرَّت المنظمة بأنها لا تملك الكثير لتفعله حيال الشعوذة ومواجهتها.

[دار المصدر الدولية – بريطانيا: ٢٠١٠/٧/١٧م]

يوم عالمي لحرق القرآن

في حلقة جديدة لمسلسل مناهضة الإسلام في الغرب جاءت دعوة كنيسة أمريكية إلى اعتماد يوم ١١ من سبتمبر يوماً عالمياً لإحراق القرآن الكريم؛ وذلك إحياءً لذكرى ضحايا الاعتداء الذي تعرض له مركز التجارة العالمي.

ويحث راعي كنيسة «مركز اليمامة للتواصل العالمي» القس تيري جونز (أحد أكثر المناهضين للإسلام في الولايات المتحدة ومؤلف كتاب «الإسلام من الشيطان»)، يحث أتباعه على مواجهة الفكر الإسلامي، أو ما اعتبره «شر الإسلام»، فضلاً عن أنه يرى أن القرآن يقود الناس إلى الجحيم، وهو ما يعني وجوب وضعه في مكانه داخل النار.

كما أعلن قساوسة إنجيليون أنهم سوف يحرقون القرآن موجِّهين دعواتهم للآخرين كي يحذوا حذوهم، وأسسوا لهذا الغرض صفحة على موقع التواصل الاجتماعي «فيس بوك» تحت شعار «اليوم العالمي لحرق القرآن».

ومن جانبه، ردَّ مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية (كير) بمطالبة مسلمي الولايات المتحدة بالقيام بحملة مضادة في شهر رمضان القادم وتوزيع القرآن على أصدقائهم وجيرانهم والصحفيين والمسؤولين وكلِّ مواطن أمريكي يمكن التواصل معه أو الوصول إليه؛ حيث رأى قادة المجلس في ذلك الرد الأفضل على الدعوة «المتطرفة»، كما شدد على العمل على الاستخدام الفعال لوسائل الاتصال الحديثة كالإنترنت - مثلاً - في التعريف الحقيقي بالإسلام.

[موقع إسلام أون لاين: ٢١/٧/٢٠١٠م]

الولايات المتحدة وبريطانيا استخدمتا اليورانيوم المنضب في العراق

قال وزير الدفاع البريطاني ليام فوكس في رسالة مكتوبة إلى مجلس العموم: (إن القوات البريطانية والأميركية قد استخدمت اليورانيوم المنضب في العراق في عام ٢٠٠٣م).

ونقلت وكالة الأنباء الكويتية عن ليام قوله: (إن القوات البريطانية قد استخدمت ١,٩ طن متري من ذخيرة اليورانيوم المنضب في الحرب على العراق عام ٢٠٠٣م)، حسب ما ذكرت صحيفة الصباح الحكومية.

وأشار تلفزيون (برس تي في) إلى أن هذا الإعلان يأتي في أعقاب دراسة مشتركة أجرتها وزارات البيئة والصحة والعلوم في العراق، أظهرت وجود نسب مرتفعة من التشوهات الخَلقية وإصابات بالسرطان في مجتمعات سكانية في مناطق النجف والبصرة والفلوجة. ووجدت الدراسة أن نحو ٤٠ موقعاً في مختلف مناطق العراق تعاني تلوثاً بمستويات عالية من الإشعاعات والموادِّ السامة مثل مادة الدايوكسين.

وقال فوكس: (إن وزارة الدفاع البريطاني قد زودت برنامج الأمم المتحدة البيئي بأسماء المواقع التي هوجمت باستخدام الذخيرة المحتوية على اليورانيوم المنضب)، مشيراً إلى أن الوزارة قد تبادلت المعلومات مع المنظمات الإنسانية وغيرها وقامت بتحذير العراقيين عبر اللافتات والعلامات التي تشير إلى عدم لمس أيٍّ من المخلَّفات والشظايا التي يعثرون عليها في مناطق القتال السابقة.

وأشار التلفزيون إلى أنه من المتوقع أن ترفع وزارة حقوق الإنسان العراقية دعوى قضائية ضد بريطانيا والولايات المتحدة لاستخدامهما قنابل تحوي يورانيوماً منضباً في البلد؛ حيث ستسعى الوزارة للحصول على تعويضات لضحايا هذه الأسلحة.

[وكالة حق - العراق]

تُفيد إحصائيات الأمم المتحدة بأن واحداً من كل خمسة عراقيين فوق سن الخامسة عشر يعاني من الأمية. ويصل معدل الأمية إلى ٢٨ ٪ بين النساء؛ وهو ما يعادل مِثلَي النسبة بين الرجال.

وقالت الأمم المتحدة: إن نسبة الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ستة أعوام و ١١ عاماً من الملتحقين بالتعليم الابتدائي بلغت ٨٥ ٪ في عام ٢٠٠٧م عندما كان العنف الطائفي في أوجه مقارنة مع ٩١ ٪ في عام ١٩٩٠م.

[رويترز: ٢٠١٠/٦/٢٩م]

أعلنت منظمة دولية تُعنَى بحقوق الإعلاميين مقرُّها جنيف أن ٥٩ صحفياً من ٢٥ دولة قُتِلوا خلال الأشهر الستة الأولى من هذا العام أثناء تأديتهم عملهم.

وقالت منظمة بريس إيمبل كامبين (بي إي سي): إن المكسيك تصدرت لائحة البلدان الأخطر على الصحفيين؛ حيث بلغ عدد الصحفيين القتلى فيها تسعة بسبب ما يعرف بالجريمة المنظمة التي استهدفتهم.

وجاءت هندوراس بالمركز الثاني؛ حيث قُتِل فيها ثمانية صحفيين، وتبعتها باكستان بمقتل ستة صحفيين، بينما قُتِل أربعة صحفيين في كلٍّ من نيجيريا والفلبين.

يُذكر أن عدد القتلى من الصحفيين قد ارتفع عن الفترة نفسها من العام الماضي بنسبة ١٠ ٪.

[السي إن إن: ٢٠١٠/٧/٢م]

على الرغم من الظروف الاقتصادية الصعبة التي شهدها العالم خلال الأعوام القليلة الماضية، والأزمة الاقتصادية التي مرت بها مناطق عديد، إلى جانب تدهور سعر صرف اليورو وتراجع أو كساد سوق العقارات عالمياً، على الرغم من كل ذلك فإن ملوك العالم حافظوا على ثرواتهم إن لم يزيدوها؛ غير أن القيمة الإجمالية لثرواتهم تراجعت بحدود ١٠ مليارات دولار، لتصل إلى ٩٩ ملياراً فقط، وهو رقم يقل بنحو ٣٢ مليار دولار عن إجمالي ثرواتهم في عام ٢٠٠٨م.

[جريدة القبس: ٢٠١٠/٧/٩م]

أكدت مصادر إسرائيلية أن إسرائيل باتت الدولة الرابعة في تجارة السلاح عالمياً، طمعاً في الأرباح المالية رغم عدم أخلاقيتها ومخاطرها، وبحسب محلل الشؤون الإستراتيجية في صحيفة (هآرتس) العبرية، يوسي ميلمان، فإن ١٠ ٪ من تجارة السلاح في العالم تسيطر عليها الدولة العبرية، مشيراً إلى أنها تحصد أرباحاً مالية هائلةً من صفقات السلاح.

وزاد قائلاً: إن تل أبيب تُفضِّل إبرام صفقات بيع السلاح لدول كثيرة في إفريقيا وأمريكا اللاتينية بشكل غير مباشر وبواسطة شركات خاصة تبلغ نحو ٢٢٠ شركة في محاولة لإعفاء ذاتها من مسؤولية استخدام هذا السلاح في جرائم ضد البشرية في حال وقوعها.

[المركز الفلسطيني للإعلام: ٢٠١٠/٧/١١م]

كشفت صحيفة ذي إندبندنت أون صنداي اللندنية عن أن القوات البريطانية ستنسحب من أفغانستان بحلول عام ٢٠١٤م وَفْقَ برنامج زمني سري يقضي بالبدء في خفض قوات التحالف هناك في ظرف أشهرٍ من الآن.

[أخبار الجزيرة: ٢٠١٠/٧/١٨م]

أظهر مسحٌ شارك فيه ٤٨٠٠ عراقي، نشرته صحيفة «الإندبندنت» البريطانية أن حالات السرطان زادت بنسبة ٤ أضعاف وزاد سرطان الأطفال تحت ١٤ عاماً بنسبة ١٢ ضعفاً، بينما أصبحت نسبة وفاة المواليد أكثر من ٤ أضعاف نظيراتها في المملكة الأردنية و ٨ أضعاف النسبة في الكويت.

وقالت الصحيفة: إن الباحثين كشفوا عن زيادة ٣٨ ضعفاً في الإصابة بسرطان الدم اللوكيميا و١٠ أضعاف زيادة في سرطان الثدي وسرطان الغدد الليمفاوية وأورام الدماغ لدى البالغين، بينما كانت نسبة الزيادة قد وصلت إلى ١٧ ضعفاً في اللوكيميا بين الناجين في هيروشيما.

كما أشارت الدراسة إلى تغيُّر النسبة بين المواليد الذكور والإناث؛ إذ كانت تبلغ فيما مضى ١٠٥٠ مولوداً ذَكَراً لكل ١٠٠٠ أنثى، غير أن نسبة الذكور منذ عام ٢٠٠٥م انخفضت بنسبة ١٨ ٪ لتصبح النسبة ٨٥٠ ذكراً لكل ١٠٠٠ أنثى، مؤكدة أن النسبة بين الجنسين تُعَدُّ مؤشراً لتدمير جيني كان تأثيره أقوى على الذكور من الإناث، مثلما حدث في هيروشيما.

[صحيفة المصريون الإلكترونية: ٢٠١٠/٧/٢٢م]

توقع تقرير جديد صادر من مكتب الإدارة والميزانية التابع للبيت الأبيض الأمريكي أن يصل العجز في الميزانية الأمريكية إلى رقم قياسي، وهو: تريليون وسبعة وأربعون مليار دولار؛ وهو ما يعني أن الحكومة الأمريكية تقترض نحو أربعين سنتاً من كل دولار تنفقه، كما توقع التقرير الجديد أن تصل نسبة البطالة في الولايات المتحدة في العام القادم إلى ٩ ٪.

[بي بي سي: ٢٠١٠/٧/٢٤م]

علامة تعجب

إنقاذ قرية إيطالية من البطالة!

بادر الزعيم الليبي معمر القذافي إلى إنقاذ قرية إيطالية من عوامل البؤس والكآبة المتمثلة في البطالة التي يعانيها أهالي القرية التي عرفها أثناء توجهه العام الماضي لحضور قمة العشرين بالفترة التي شهدت فيها البلاد زلزالاً قوياً تركز في مدينة لاكويلا.

وذلك بوعده تحويل أحد القصور التاريخية في أنترودوكو إلى فندق فخم، وكذلك تشييد مصنع لتعليب المياه الصحية من ينابيع أحد جبال القرية القريبة من بعض الآثار التي تعود إلى عهد الزعيم الإيطالي السابق موسيليني.

ولا ريب في أن إنقاذ البشرية من بؤس الفقر والكآبة والبطالة شيء مستحب، ولكنه في بلاده أولاً ثم في بلادنا العربية والإسلامية أمر واجب، ولو قرأ أو سمع أصحاب المدن لا أصحاب القرى في بعض البلدان الإسلامية الفقيرة (بل المعدمة) هذا الخبر، فإن لسان حالهم يقول: هلمَّ إلينا وسوف ترى من الكرم والجود ما يجعلك تنقذ بلاداً بأكلمها؛ على الرغم من الفقر والجوع وأشباح البطالة، والعنوسة ومشاكل أخرى لا تُعَد...

[الجزيرة عن ديلي تلغراف: ٢٠١٠/٦/٢١م]

متى نتعلم؟

صممت الهند جهاز «كمبيوتر» بشاشة تعمل باللمس يبلغ سعره - فقط - ٣٥ دولاراً وهو موجَّه للتلاميذ، في مبادرة تهدف إلى توفير تعليم أفضل للشباب، ومؤهلات تقنية أكبر لدعم النمو الاقتصادي في ثالث قوة اقتصادية في آسيا.

وبه سيتمكن كل التلاميذ، من المرحلة الابتدائية إلى طلاب الجامعات، من الاستفادة من هذا العرض كما أعلن وزير الموارد البشرية والتنمية كابيل سيبال للصحفيين.

وأوضح الوزير قائلاً: «هذا الأمر يندرج في إطار مبادرة وطنية لتطوير التعليم» مؤكداً على أن «حلول الغد سيكون مصدرها الهند». وتنوي الوزارة تجهيز مؤسسات التعليم العالي البالغ عددها ٢٢ ألفاً في الهند بخط سريع للاتصال بالإنترنت للسماح للطلاب باستخدام الجهاز الجديد.

وتُجري الحكومة - التي تأمل في أن تتمكن من تخفيض كلفة انتاج الجهاز إلى ١٠ دولارات - مفاوضات مع عدة مجموعات تُعنَى بالمعلوماتية لبدء الإنتاج على نطاق واسع.

فمتى يأتينا هذا التفكير لنعمل به على تطوير التعليم؟ ومتى نصنع مثل هذا الجهاز، وغيره؟ فهذه الهند تصنع كمبيوتراً، والصين تملأ الدنيا بصناعاتها، واليابان، وكوريا، وكذلك دول أصغر منا بكثير، وهل سيأتي اليوم الذي نرى فيه منتاجتنا العربية الإسلامية تملأ ولو رفاً واحداً في سوبر ماركت في أيٍّ من البلاد الأجنبية؟

[بتصرف من وكالة AFP: ٢٠١٠/٦/٢٣م]

الأقليات الإسلامية

المسلمون في تايلاند

أحمد محمود السيد
mr.ah54@hotmail.com

يزيد التعداد السكاني لـ «تايلاند» على خمس وأربعين مليون نسمة، يَدين أكثرهم بالبوذية الهندية، وتتراوح نسبة المسلمين هناك ما بين ١٠ - ١٥ ٪ من إجمالي عدد السكان. وترجع أصول معظمهم إلى منطقة «فطاني» التي عُرفَت تاريخياً بأنها كانت مملكة إسلامية مستقلة على الحدود الجنوبية لمملكة سيام التي تغير اسمها إلى تايلاند في منتصف القرن الماضي. وقد سعى المسلمون هناك إلى استعادة مملكتهم طوال العقود الماضية.

وفطاني: هي المنطقة الواقعة بين ماليزيا وتايلاند، ويرجع أصل سكانها إلى المجموعة الملايوية، ويتكلمون اللغة الملايوية ويكتبونها بأحرف عربية.

وتُحدد التقديرات السكانية عدد المسلمين في تايلاند بخمسة ملايين مسلم. وتبلغ نسبة المسلمين في فطاني أكثر من ٨٠ ٪ ويزيد عدد سكان «فطاني» عن ٣,٥ مليون نسمة. كما يعيش عدد كبير من المسلمين أيضاً في شمال تايلاند، وهم المسلمون من الأصل الصيني والبورمي. كما يعيش في وسط تايلاند المسلمون من الأصول الكمبودية والهندية والإندونيسية والعربية والإيرانية.

يذكر الفاكت بوك (موقع الاستخبارات الأمريكية) أن إجمالي عدد السكان حوالي ٤٥ مليون نسمة، ونِسَب

توزُّع الأديان كالآتي: البوذية: ٩٤,٦ ٪، والمسلمون: ٤,٦ ٪، والصينيون: ٠,٧ ٪، والآخرون: ١,٠ ٪.

وتتوزع الأجناس كالآتي: التاي: ٧٥ ٪، والصينيون: ١٤ ٪، والآخرون: ١١ ٪.

أما اللغات فهي: التاي، الإنجليزية، لهجات قومية.

ويوجد في تايلاند حوالي ٢٥٠٠ مسجد ومصلى، ويوجد في بانكوك المركز الإسلامي الوحيد في تايلاند، ويوجد العديد من الجمعيات والهيئات الخيرية والمدارس الابتدائية الإسلامية. وبعض المدارس ملحقة بالمساجد، وهناك مدارس إسلامية صيفية.

وتتدخل الحكومة في الإشراف على التعليم الديني، وترغم المدارسَ الإسلامية على قبول غير المسلمين فيها وتفرض عليهم العلوم التايلاندية.

وتمت ترجمة معاني القرآن إلى لغة التاي، وفي جنوب تايلاند تُستخدَم التراجم الماليزية للكتب الإسلامية، كما طُبعَت نسخ عربية من القرآن الكريم في تايلاند، والحاجة ماسة لترجمة الكتب الإسلامية إلى لغة التاي.

وفي تايلاند جريدتان إسلاميتان شهريتان:

إحداهما: تصدرها رابطة العالم الإسلامي وتسمى (الرابطة).

والثانية: كانت تسمى الجهاد، وقد توقفت.

وتبرز تحديات عديدة ضد المسلمين في قطاني خاصة؛ حيث تحاول السلطات البوذية التايلاندية إضعاف شوكة المسلمين وإذابتهم في الكيان التايلاندي ومن هذه التحديات:

- تغيير أسماء المسلمين وتغير أسماء القرى والولايات وإلغاء حجاب المرأة.
- الهجرة إلى قطاني: حيث تهجِّر السلطات التايلانديين البوذيين إلى قطاني للحد من الأغلبية المسلمة.
- إضعاف اقتصاديات المناطق المسلمة: وذلك بتمليك أخصب الأراضي للبوذيين.
- محاربة التعليم الإسلامي: من خلال محاولة فرض اللغة التايلاندية في الدواوين الحكومية.
- الدس الرخيص في تزييف الكتب الإسلامية.
- تشجيع البعثات التنصيرية للعمل في البلاد.

وقد تعلقت آمال المسلمين في جنوب تايلاند بحكومة الانقلاب العسكري التي أزاحت «تاكسين شيناواترا» رئيس الوزراء الملياردير الطاغية في عام ٢٠٠٨م؛ حيث وعدت حكومة الانقلاب بتحسين أحوال المسلمين والنظر في مسألة الحكم الذاتي ووقف الاعتداءات من الأكثرية البوذية، وقد كان لبعض الأعضاء المسلمين في المجلس العسكري الحاكم دور في هذا التحول، واستبشر المسلمون عندما قدَّم رئيس الوزراء الجديد اعتذاراً رسمياً لهم عن بطش الحكومة السابقة بهم، وبدء في محادثات مع قادتهم بخصوص المطالب التي ينادون بها.

لكن ما حدث هو عكس ذلك تماماً؛ حيث زادت حوادث القتل والاعتداء والبطش بالمسلمين من قِبَل الجيش والأقلية البوذية في الجنوب؛ فمنذ الانقلاب العسكري قُتِل أكثر من ألفي شخص معظمهم أطفال ونساء وشيوخ، وهو الأمر الذي دفع بعضهم إلى القول بأنه بعد مرور أكثر من ستة أشهر على الانقلاب العسكري الذي تبنَّى قادته توجهاً مَرِناً مع الانفصاليين المسلمين، حان الوقت للتخلي عن هذا التوجه والعودة إلى سياسة البطش السابقة؛ وهو ما دفع ملكة تايلاند للتخلي عن حياديتها وتوجيهها نداءً للحكومة لحثِّهم على توفير الأمن للمدنيين العزل في الجنوب أو تسليحهم وتدريبهم للدفاع عن أنفسهم؛ ولكن هذا التوجه الذي يراه بعض الناس منطقياً وعادلاً ويستهدف وضع حلول عملية تساعد المدنيين العزل، لا يخلو من مخاطر، أهمها: أنه يكرس النزعات الطائفية بين الأغلبية المسلمة التي تسكن الجنوب والأقلية البوذية التي ترى نفسها مستهدَفة أيضاً من قِبَل الانفصاليين.

والأمر نفسه حدث بعد انقلاب واضطرابات عام ٢٠١٠م حينما تعلقت آمال المسلمين ببعض شخصيات الانقلاب من العسكريين المسلمين ولكن خابت آمالهم.

المصادر المراجع:

- FACT BOOK .
- الأقليات الإسلامية في آسيا وأستراليا، سيد عبد المجيد أبو بكر، رابطة العالم الإسلامي.
- موقع المسلمون في تايلاند:

WWW.MUSLIMTHAIL.COM

- وكالة الأنباء الإسلامية الدولية (نبا).
- الجزيرة نت.
- إسلام أون لاين.
- المسلمون في تايلاند وقصة المعاناة والألم، د. إسماعيل علي (عميد كلية الدراسات الإسلامية بجامعة برينس أوف سونجيكلا بفطاني) بحث في موقع المسلمون في تايلاند.

منظمة ذي النورين الخيرية

ذي النورين
منظمة ذي النورين الخيرية

بتوفيق الله
بذل وعطاء

الخلاوي والمراكز الصيفية

القوافل الدعوية

القوافل الصحية

توزيع الإغاثات على المتضررين

بناء المساجد والمجمعات الإسلامية

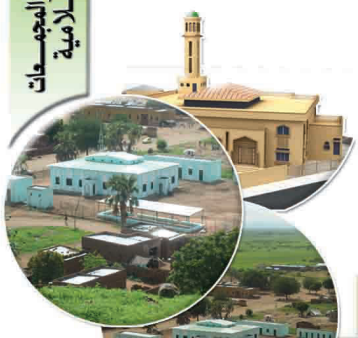

المحاضرات والدورات العلمية

المدارس والمعاهد الشرعية

الإفطارات والسلة الغذائية الرمضانية والأضاحي

الآبار الجوفية والخزانات

ذي النورين
منظمة ذي النورين الخيرية

المنظمة في سطور

هي من المنظمات الخيرية الطوعية التي آلت على نفسها تقديم المساعدة للمحتاجين والمتضررين والفقراء والمرضى، كما آلت على نفسها نشر العلم الشرعي بكافة وسائله - مقرها الخرطوم، إنشئت عام ١٤٢٣هـ بجهود ثلة من العلماء الخيرين وأهل الفضل من أصحاب التخصصات المختلفة لتكون إضافة حقيقة في ساحة العمل الطوعي والإنساني في السودان. كما تحرص المنظمة على الدعوة والتعليم عبر الدورات الشرعية الدورية.

- إغاثة المنكوبين ومواساة الفقراء والمحتاجين.
- تسيير القوافل الدعوية والصحية والإغاثية لمناطق السودان المختلفة.
- كما تسعى المنظمة إلى رفع مستوى الخدمات والمساعدات وتنمية الإنسان.
- تسعى المنظمة لبذل أقصى جهدها عبر خطة خمسية لإعمار ما دمرته الحرب في دارفور

بدعمكم ثم بتوفيق الله يستمر العطاء

المقر الرئيس: الخرطوم - م ٢٨ - المهندسين - أمدرمان

هاتف: ٢٤٩١٨٧٥١٤٤١٠+ / فاكس: ٢٤٩١٨٧٥١٧٤٠٦+

بريد إلكتروني:

zi-alnorain@hotmail.com / info@norain.org

الموقع الإلكتروني: www.norain.org

ماذا يقف خلف الارتفاع الحاد في نسبة الجنود الصهاينة «المنتحرين»؟

د. عدنان أبو عامر(*)

أرقام وحقائق:

فاجأت الأوساط العسكرية الصهيونية الجميع حين أصدرت تقريراً غير دوري يناقش ظاهرة «مقلقة»، خاصة بارتفاع نسبة الانتحار بين الجنود والضباط خلال السنوات الأخيرة.

وذكرت صحيفة «يديعوت أحرونوت» نقلاً عن مصادر عسكرية صهيونية أن هناك حالة من عدم الارتياح في صفوف الجيش، بسبب ارتفاع في عدد حالات الانتحار في صفوف جنوده.

وأشارت المعطيات الرقمية في هذا المجال إلى انتحار ١٩ جندياً صهيونياً منذ بداية عام ٢٠١٠م، في الوقت الذي بلغ فيه عدد الجنود المنتحرين عام ٢٠٠٩م بأكمله ٢١ جندياً، وهو ما يعني أن هناك ارتفاعاً في نسبة الانتحار تقارب نسبة ١٠٠ ٪ عند المقارنة مع البيانات عن الفترة نفسها من العام المنصرم.

وجاء هذا الارتفاع بعد أن استطاع الجيش خفض عدد الجنود المنتحرين خلال الأعوام الماضية؛ ففي عام ٢٠٠٥م كان في صفوف الجيش ٣٥ حالة انتحار، إلا أن هذا العدد بين الأعوام ٢٠٠٧م – ٢٠٠٩م انخفض ليصبح ٢٤ حالة انتحار في العام.

واللافت للنظر أن المعطيات الرقمية لعدد الجنود المنتحرين تتزايد في صفوف الجيش الإسرائيلي، على الرغم من الخطوات المتخَذة في مجال الصحة النفسية في الجيش للحد من هذه الظاهرة.

اتساع الظاهرة:

على صعيد ذي صلة، أفاد التلفزيون الصهيوني نقلاً عن معطيات وزارة الصحة بأن خُمُسَ المنتحرين في الكيان الصهيوني من الفتيان، وتوجد أعلى نسبة بين البنات اللواتي تتراوح أعمارهن بين ١٦ – ٢٧ عاماً، ووصلت نسبة محاولات الانتحار إلى ٢٠٧ حالات لكل ١٠٠ ألف نسمة.

ونشرت الوزارة تقريراً تحت عنوان «ضياع في إسرائيل»، لمتابعة حجم ظاهرة الانتحار. والنتائج التي يُظهِرها التقرير مقلقة جداً، وتشير الإحصائيات إلى أنه منذ الثمانينيات من القرن العرشين وحتى أوائل القرن الحادي والعشرين تضاعف عدد المنتحرين.

ففي عام ١٩٨٠م انتحر ٢١١ شخصاً، وفي عام ٢٠٠٠م وصل العدد إلى ٣٩٤ شخصاً، وبين عامي ١٩٩٦م – ٢٠٠٠م وصل متوسط عددهم ٣٥٠ حالة سنوياً، خُمُسُهم من الفتيان الذين تقل أعمارهم عن ٢٤ عاماً، وخُمُسٌ آخر من كبار السن الذين تزيد أعمارهم عن ٦٥ عاماً، والارتفاع المقلق لا يكفي؛ ففي عام ٢٠٠٣م حدثت ٤١٧ حالة انتحار، بينها ٦٥ حالة من قِبَل الفتيان.

وبين سنوات من ١٩٩٦م – ٢٠٠٢م سُجِّلت ٣٦٠٠ محاولة انتحار سنوياً، تمَّ نقلها لغرف العناية المركَّزة المختلفة، ١٥٠٠ شخص من الرجال، و٢١٠٠ من النساء.

خطوات للمواجهة:

أشارت صحيفة «معاريف» إلى عدد من الخطوات التي أعدتها قيادة الجيش لمكافحة الظاهرة، منها توعية الضباط من أجل التعرف على الجنود الذين يواجهون أزمات نفسية،

(*) كاتب فلسطيني.

والعمل على خفض عدد الجنود الذين يخرجون بإجازة ومعهم سلاحهم الشخصي.

وقد صرحت جهات داخل الجيش الصهيوني بأن معظم حالات الانتحار ليس لها علاقة بالخدمة في صفوف الجيش، إلا أن عام ٢٠٠٨م شهد توجيه تُهَم جنائية ضد ضابطين لعدم منعهما انتحار جندي ظهرت عليه بوادر أزمة نفسية، وفي المقابل حوكم أحد ضباط الصحة النفسية لعدم تقديمه العلاج النفسي اللازم لأحد الجنود في الوقت المناسب.

وقد علقت جهات عسكرية على الموضوع بقولها: «الحديث يدور عن موضوع على قدر كبير من الحساسية، وكثير من الاجتماعات والمشاورات تقام حول هذا الموضوع، والتي تدرس كلاً من الحالات على حِدَة لمعرفة لماذا وكيف حدثت؟».

إن الجدير بالذكر أن هناك عاملاً واحداً مشترَكاً بين الجنود المنتحرين في الجيش الصهيوني، وهو أن معظمهم ممن يخدمون بشكل دائم في الخدمة النظامية الإجبارية، التي يطلق عليها «شيروت كيفع» في صفوف الجيش.

العجز والإخفاق:

في وقت سابق، قرر مراقب جهاز الأمن الصهيوني فتح تحقيق حول عمليات الانتحار في الجيش الصهيوني بعد إثبات عجزه عن معالجة الظاهرة، في ظلِّ ارتفاع عدد حالات الانتحار خلال الأعوام القليلة الماضية.

كما دفع تزايد الظاهرة إلى إبلاغ الجيش للكنيست عن عدة خطوات لمواجهتها، بعد التحقيقات التي نشرتها بعض الصحف المحلية، لا سيما صحيفة «هآرتس» التي أكدت انتحار مجنَّد واحد كل أسبوعين.

ورفعت جهات عسكرية توصيات كثيرة لمواجهتها، إلا أنها لم تطبق. وتفيد التحقيقات المنشورة بأنه خلال الأعوام الماضية لم تهتم قيادة الجيش بالأمر بالشكل المطلوب.

وكشف التحقيق أيضاً أنها لم تعتدِ الإعلان عن حالات الانتحار، ولذلك فإن الغالبية العظمى منها لم يعرف بها عامة الصهاينة، وهو ما جعل رئيس هيئة الأركان السابق «دان حالوتس» يجري نقاشاً سنوياً خاصاً بهيئة الأركان العامة لمناقشة ظاهرة الانتحار في الجيش.

وأثبت عدد من التقارير غير الرسمية، أن الانتحار بين الجنود يعدُّ السبب الأساسي في وفاتهم داخل الجيش، أكثر من القتلى في العمليات والمواجهات العسكرية وحوادث العمل.

وحسب معطيات عام ٢٠٠٥م، انتحر ما لا يقل عن ٣٠ جندياً وضابطاً، وأفاد مسؤولون عسكريون عملوا على علاج الظاهرة أنها لم تحظَ بالاهتمام المطلوب في السابق؛ لذلك لم ينجح الجيش في تقليص عدد المنتحرين، مثلما نجح في تخفيض عدد القتلى من الجنود في حوادث الطرق والتدريبات.

وتشير الإحصائيات إلى أن معدل انتحار الجنود بلغ قبل انتفاضة الأقصى ٣٠ جندياً سنوياً، وهي النسبة الأكثر ارتفاعاً في العالم، وازدادت بشكل كبير منذ اندلاعها، ومهما تكن هذه النسب فإنها تشكل أزمة في إسرائيل.

رفض حمل السلاح:

على صعيد قيادة الجيش، وفي إطار مواجهتها لظواهر الانتحار بين الجنود، فهي تواصل خطواتها لتقليص عدد البنادق المنتشرة في أيديهم.

وحسب خطة تمَّ إقرارها مؤخراً، ستُسحَب البنادق ممن لا يحتاجون حملها في أثناء مهامهم؛ كالجنود العاملين في الوحدات الداخلية، أو من يمرون بدورات تأهيل غير هجومية ولا ضرورة لحملهم السلاح، على أمل أن تؤدي هذه الخطوة لانخفاض الانتحار بينهم.

وجرى العمل في خطتين جديدتين لمواجهة ظاهرة الانتحار بين الجنود هما:

الخطة الأولى: أقرها رئيس قسم القوى البشرية، وتتمثل بتقليص حيازة الأسلحة بين الجنود الذين لا يحتاجون إليها، بعد أن أثبتت تجربة الماضي أن أغلبية حالات الانتحار بينهم تتم بالسلاح الشخصي، وهو ما يسهل عملية الانتحار.

الخطة الثانية: ويجري في إطارها حصول المسؤول العسكري على معلومات مفصَّلة عن حياة الجنود الذين يخدمون تحت إمرته، وليس فقط معلومات سطحية كالتعليم والثقافة، حتى يستطيع التعامل معه كما يجب؛ فعلى سبيل المثال سيجري تسجيل شروط الخدمة حول كل جندي، وسيحصل الضابط المسؤول على معلومات عن عائلته، ووضعهم الاقتصادي، وعن أي حادثة شاذة حصلت في حياته في أثناء الخدمة أو قبلها.

وجرى نقل المعلومات الجديدة للقادة في عشر وحدات داخل الجيش، وخلال نصف عام نشرت المعلومات في جميع الوحدات.

وحسب التوجيهات، سيطلب من كل ضابط التعرف على تفاصيل حياة جنوده، وعلى سبيل المثال لو أن جندياً قُدِّم للمحاكمة العسكرية بسبب مخالفات داخل الخدمة، يمكن معرفة سبب الحالات الخاصة لهروبه من الجيش مثل: هل هرب بسبب الضائقة الاقتصادية في بيته، وأنه يريد العمل للتخفيف من هذه الضائقة؟ إلى غير ذلك.

البلد الطيب... وأرض الدماء
بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأمريكية
ميلاد الحضارة الإسلامية

أ. د. عبد الحليم عويس(*)

خلاصة الفلسفة الأمريكية السياسية والفكرية الطبقية تقوم على فكرة: (الاستعمار القذر) الذي يقوم على سرقة الأرض وطرد أصحابها الأصليين أو قتلهم أو تهميشهم؛ بحيث لا يملكون من خيار سوى القبول بالتنازل للمستعمر

دعونا نفكر في أصحاب هذه الأسماء التي عانت في مكة ما عانت، وعانت في البحث عن الحقيقة وفي الالتزام بها أكثر مما عانته من تعذيب واضطهاد، من قريش وغيرها.

فهذا النبي العظيم الذي عانى من أهل مكة والطائف أشد المعاناة لدرجة بلغت به حدَّ اللجوء إلى الله خالقه يشكو إليه ضعف قوَّته وقلَّة حيلته وهوانه على الناس، ويقول لله: «يا أرحم الراحمين! أنت ربي ورب المستضعفين... إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملَّكته أمري... إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي... ولكن عافيتك هي أوسع لي»(١).

إن هذه الكلمات تعكس الحالة الصعبة التي وصل إليها رسول الله ﷺ بعد موت السيدة خديجة – رضي الله عنها – وعمِّه أبي طالب؛ فأصبح أهل مكة يتحكمون فيه وفي أتباعه ويذيقونهم صنوف العذاب في كل يوم. فلما لجأ إلى الطائف وجد منهم شرَّ استقبال وشرَّ معاملة؛ إذ سلطوا عليه سفهاءهم يرمونه بالحجارة.

كان هذا ما انتهى إليه أمر الرسول ﷺ حتى بدأت بشائر الفَرَج في بيعَتَي العقبة: الأولى والثانية، وجاءت الهجرة، فهاجر الرسول ﷺ وهو مهدَّد بالقتل، تلاحقه قريش وترصد الجوائز من أجل الإمساك به حيّاً أو ميتاً.

هذا النبي المعذَّب من قِبَل قومه، والمطارَد في هجرته بعيداً عنهم، واللاجئ إلى أهل يثرب، وهؤلاء العظماء الذين استقبلوه في يثرب أروع استقبال... هذا النبي ﷺ سوف يؤسس في المدينة التي هاجر إليها دولة (عقيدة وفكرة) وسيراسل من هذه المدينة الصغيرة ملوك العالم عارضاً عليهم الإسلام؛ مع أن الفرق بينه وبينهم في القوة المادية فرق عظيم وكبير.

وهذا صهيب الرومي الذي هاجر من مكة فطارده أهلها؛ ليمنعوه من الهجرة، وقالوا له: جئتنا صعلوكاً فقيراً والآن تهاجر بمالك، فساوَمَهم على أن يدلَّهم على ماله، ويتركوه يهاجر، فصدَّقوه؛ لأنهم يعلمون أن أصحاب محمد لا يكذبون، كما أن إمام المتقين محمداً كانت عنده أمانات لأعدائه فأمر علي بن أبي طالب أن يرد الأمانات إلى أهلها؛ لأنه ﷺ بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق... فهكذا كانت هجرة الرسول، وهكذا كانت هجرة صاحبه صهيب الرومي الذي ترك

(*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية، رئيس تحرير مجلة التبيان.

(١) مجمع الزوائد للهيثمي.

لهم كل ماله ودخل المدينة بلا مال، فاستقبله الرسول ﷺ، وقال له: «يا أبا يحيى! ربح البيع»[1]؛ لأنه آثر الصدق واشترى دينه بكل ماله.

أما صاحبنا (بلال الحبشي) الذي كان عبداً وحرره أبو بكر، ونال من التعذيب قدراً أرهق حتى الذين يعذِّبونه ففرحوا عندما عرض أبو بكر أن يشتريه. هذا العبد الحبشي الذي كان يُلقى على رمال الصحراء الحارة ويوضع الحجر على بطنه، ويساوَم على دينه، فيقول: «أحدٌ أحد فردٌ صمد» حتى يئس معذِّبوه منه وتعبوا فباعوه. هذا العبد الذي أعتقه أبو بكر سيصبح واحداً من هؤلاء الذين يصنعون الدولة والحضارة في (يثرب)، تلك التي أصبحت (مدينة) رسول الله ﷺ.

– وقل مثل ذلك في زيد بن حارثة الذي دخل مكة عبداً وأعتقه الرسول ﷺ وتبنَّاه (وذلك قبل إلغاء التبنِّي إسلامياً) بعد أن رفض العودة لوالده وعمه، وقال للرسول: (أنت الوالد والعم) هذا الصحابي سيصبح أيضاً واحداً من بُنَاة دولة الإسلام في المدينة.

– وكذلك (مصعب بن عمير) الذي آثر الفقر على ثراء أمه، والذي أصبح أشهر داعية، وسفيراً للإسلام، غدا واحداً من العظماء الذين قامت على أكتافهم دولة الإسلام في المدينة.

– وأما صاحبنا (سلمان الفارسي) الذي ظل يبحث عن الدين الحق، وينتقل من بلد إلى بلد حتى دلَّه أحد الرهبان على يثرب، وقال له: إن نبياً من بني إسماعيل سيظهر في هذه المدينة قد حان وقته، فجاء إليها ينتظر لقاء هذا النبي لينضم إلى بُنَاة هذه المدينة، قاعدة الحضارة الإسلامية العالمية. وسرعان ما يصبح سلمان الفارسي – مَثَّله مَثَل بلال الحبشي، وصهيب الرومي – واحداً من بُنَاة الدولة والحضارة الإسلامية في المدينة.

لقد خرج المهاجرون من مكة في جُنْح الليل خوفاً من الملاحقة تاركين دُورهم وعقاراتهم لأعدائهم المتربصين بهم في مكة وجاؤوا إلى إخوانهم (أهل المدينة) من الأوس والخزرج وهم الأنصار، لا يدرون كيف سيستقبلونهم وهم على هذه الحالة من الفقر والضعف، لكنهم فوجئوا بموقف إخوانهم الأنصار (أوسهم وخزرجهم) الذين صارت قلوبهم ملائكية بالإيمان؛ فأصبحوا أزكى قلوباً، وأبعد الناس عن الأَثَرة والأنانية والعنصرية: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وعقد الرسول ﷺ بين المهاجرين الفقراء الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله، وبين إخوانهم الأنصار عَقْد (المؤاخاة) التي جعلتهم في المدينة نسيجاً واحداً يقوم على الحب والتكافل والإخلاص لله ولرسوله، ومن هؤلاء المهاجرين وأولئك الأنصار ظهرت دولة العقيدة الناشئة التي ستمتد بأغصانها وفروعها إلى كل بلاد العالم.

إنها دولة تقوم على الدفاع لا على الهجوم، وكل ما تطمح إليه أن يفتح الناس أبوابهم وبلادهم للتعرف عليها، وبعد ذلك من حقِّهم أن يرفضوها أو يقبلوها؛ لأنه من أصول الدين الذي أرسله الله إليهم: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾. [الكهف: ٢٩]

وهي دولة تسعى إلى السلام دائماً ولو كان فيه بعض الإجحاف، كما فعلت في صلح الحديبية.

– ولم تلبث هذه القلة المؤمنة التي ساحت في الأرض وهي تحمل أخلاق الإسلام وقيَمه وعقيدته السمحة ورسالته الإنسانية، وتنشر العدل والحب والسلام، لم تلبث أن نجحت

(١) المعجم الكبير للطبراني.

– بالمبادئ التي قدَّمتها للإنسانية – في أن تجعل الناس يدخلون في دين الله أفواجاً عن رضا واقتناع وحب، ولم تلبث هذه القلة أن مكَّن الله لها في الأرض؛ لتقيم الصلاة وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتفرض العدل، وتنشر الإيمان بالله ورسوله عبر كل بلاد العالم.

الإمبراطورية الأمريكية: الميلاد والمسيرة:

تلك هي قصة قيام الدولة الإسلامية والحضارة الإسلامية؛ فكيف كانت قصة (قيام الإمبراطورية الأمريكية) التي ما جنى العالم منها خيراً قط؟ حتى التكنولوجيا التي تفوَّقت فيها، جعلتها بلاءً على العالم، وأبادت بها شعوباً وكانت أول قوة في التاريخ تستعمل القنابل الذرية.

لقد قامت أمريكا منذ بدايتها ونشأتها على هجرة مجرمين: من خريجي السجون وقُطَّاع الطرق والمحكوم عليهم بأحكام قضائية في بريطانيا وغيرها، فضلاً عن الطامحين الباحثين عن الثروة والمال؛ حتى لو كان ذلك بأسوأ الطرق.

وإذا كنا قد أشرنا – بكثير من الإيجاز – إلى ظروف نشأة الدولة الإسلامية، وإلى العناصر التي قامت عليها: من أحرارٍ ضحَّوْا بكل شيء، وهم المهاجرون، ومن عبيدٍ ذاقوا الأمرَّين حتى وجدوا مدينة الكرامة والحرية والعبودية لله وحده، ومن أنصار أحبُّوا مَنْ هاجر إليهم وآثروهم وعقدوا معهم بأمر رسول الله ﷺ (عقد المؤاخاة)، وكانوا يلتقون جميعاً خمس مرات في كل يوم، يصلون لله وحده في المسجد الذي أقامه الرسول دعامةً أساسيةً من دعائم الدولة.

إذا كنا – كما ذكرت – قد أشرنا إلى هذه البداية لدولة الإسلام في المدينة، فمن الضروري أن نتحدث بشيء من التفصيل عن بداية مسيرة الإمبراطورية الأمريكية التي تعاني منها البشرية أشدَّ المعاناة منذ نشأت وقامت وحتى اليوم.

بدأ ميلاد أمريكا وظهورها على مسرح التاريخ عندما نجح البرتغاليون في ميادين الكشوف الجغرافية؛ فتمكن الملاَّح البرتغالي (أمريكو فيسبوتشي) عام ١٤٩٧م من القيام برحلات عديدة أوصلته إلى البرازيل في أمريكا الجنوبية.

وخلال الفترة من عام ١٤٩٢ إلى عام ١٥٠٤ اكتشف (كولمبس) في رحلاته الأربع جزر البهاما، وجزر هايتي، وكوبا، وجامايكا، والساحل الشرقي لأمريكا الوسطى، والساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية.

وبقي كولمبس طول حياته (ومعاصروه كذلك) يجهلون أنهم اكتشفوا عالماً جديداً. هو: أمريكا.

اسم أمريكا:

مهما يكن من أمر؛ فإن اسم (أمريكا) أُطلِق على هذا العالم الجديد؛ نسبة إلى العالِم (أمريكو فيسبوتشي) الذي استطاع أن يكتشف ساحل البرازيل، وأخذ بعد عودته إلى أوروبا ينشر أخبار سفره بالكتابة عنها حتى طغت شهرته على شهرة كولمبس.

الطبقات:

كانت طبقة رجال الأعمال هي الصفوة في مجتمع قِوامه التملك، ولم تستطع أن تتحداها طبقة أخرى.

وكانت الأرستقراطية الصناعية الأمريكية من أعنف الأرستقراطيات التي ظهرت في العالم، ولكنها في الوقت نفسه من أشدِّها انطواءً على الذات، وفي الإمكان التنبؤ بأن هذا يسيء للديمقراطية في المستقبل وقد يقضي عليها.

وفي مقابل الطبقة الأرستقراطية ثمَّة تناقض مشابه يسود طغمة الغوغاء الصغيرة بالرغم من أنهم يعتبرون أنفسهم جزءاً من الأغلبية الأمريكية، لكنهم يتحدثون ويتصرفون كما لو كانوا هم أنفسهم الأقلية الضحية؛ وذلك بهدف السيطرة على الحياة الأمريكية كلها: مصارفها، ونقاباتها العمالية، وحكومتها، وكلياتها، ونظامها المدرسي، ووسائل الإعلام الكبيرة فيها، وهيئتها القضائية، بل حتى محكمتها العليا.

لقد عاشت أمريكا بيتاً منقسماً على نفسه؛ إذ طالما منعت الأقليات من الوصول بالطرق العادية إلى الكثير من فرص الاختيار، وكان يحال بينهم وبين عمليات الاختصاص العادية.

وصفحة أمريكا الطبقية السوداء كانت مفتوحة ومستمرة؛ فالزنوج المخطوفون من إفريقيا والهنود الحمر الذين يخطَّط لإبادتهم، بقيت سياسة حية مستمرة.

والزنوج مجموعة سلالية هي أوضح في معالمها عن الأمريكان أنفسهم؛ لأنها منعزلة كالقبيلة الإفريقية التي جاءت منها. والمأساة الكبرى في أمريكا تتمثل في طبقة الأمريكيين الأصليين (الهنود الحمر).

وخلاصة الفلسفة الأمريكية السياسية والفكرية الطبقية تقوم على فكرة: (الاستعمار القذر) والاستعمار القذر، هو: الاستعمار الذي يقوم على سرقة الأرض وطرد أصحابها الأصليين أو قَتْلهم أو تهميشهم؛ بحيث لا يملكون من خِيار سوى القبول بالتنازل للمستعمر والرضى ببقايا الطعام والشراب؛ فالأرض تُسرَق أو تؤخذ منهم بالقوة، ولذلك أباد

البيض في مستعمرتهم الجديدة نحو عشرين مليون هندي دون أن تطرف لهم عين أو يعانوا من وخزٍ للضمير، ولم تتوقف فلسفة الإبـــادة الجماعية الأمريكية؛ تلـــك التي قضت - تقريباً - على وجود الهنود الحمر كشعب قائم متمتع بالسيادة على أرضه؛ فهي إذاً فلسفة تتعامل بها أمريكا من أيامها تلك.

وأمريـــكا إلى اليوم لم تعترف مطلقاً بعدد الهنود الحمر الذين تعرَّضوا للإبادات الجماعية والجرائم الإنســـانية في أمريكا. وتمتلئ المقررات الدراسية التي يدرسها الطلاب في المدارس الابتدائية الأمريكية بـــآلاف المغالطات التاريخية، وحشـــدٍ من الأكاذيـــب التي برعوا فـــي تأليفها عن حقيقة الهنود الحمر ســـكان أمريكا الأصليين قبل مجيء الإنسان الأبيض للقارة... وهناك شـــهادة لهوارد سيمبون في مقدمة كتابه: (دور الأمـــراض في التاريخ الأمريكي) يقول فيها: إن المســـتعمرين الإنجليز لم يجتاحوا أمريكا بفضل عبقريتهم العصرية، بل كانوا ينشـــرون الأوبئـــة الفتاكة بقصد الإبادة الجماعية؛ حيث برعوا في سياســـة العمل بالســـخرة التي طُبِّقـــت على البقية القليلة الباقيـــة من الهنود الحمر الذين نجوا من تلك الإبادات، وعلى الزنوج الذين كانوا يســـرقونهم بالجملة من قلب إفريقيا، وطبَّقوا الأســـاليب غير الإنسانية والمروعة في حق هؤلاء، ومارسوا ضدهم التجويع الإجباري والترحيل الجماعي، وشتى أساليب تقويض المعنويات. وكان نظام الســـخرة من أفتك أسلحة الأوبئة التي نشروها وسط الهنود الحمر.

وذات يوم تحرك الضمير الأمريكي وأراد إنصاف طبقة العبيد... فرفضت الولايـــات الجنوبية ذلك، وقامت الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب.

لقد حاولت الولايات الجنوبيـــة الانفصال عندما أعلن الشـــماليون رَفْضَهم للرقيق؛ لبشاعة نظام الرق في أمريكا، وهو النظام القائم على خطف الأفارقة واستعبادهم، فضلاً عن الزنوج والهنود الحمر في أمريكا.

وفي ٤ مارس ١٨٦١م أعلن الرئيس الأمريكي (لينكولن) رَفْضَه الاعتراف بالانفصـــال معتبراً إياه باطلاً من الناحية القانونية، ولم يقبل الجنوبيون كل المرونة التي أبداها الرئيس (لينكولن)، ومن ثَـــمَّ بدأت الحرب الأهليـــة؛ فعيَّن الرئيس لينكولن (جرانت) قائداً عاماً لقوات الشمال.

واســـتطاع القائد الميداني الشمالي (جرانت) أن يخترق صفـــوف الجنوبيين ويقضي علـــى كل المقاومة الجنوبية من جورجيا إلى الأطلسي.

ومـــن ثَمَّ بدأت مفاوضات الاستســـلام، وانتهت الحرب الأهلية في مايـــو ١٨٦٥م. وقَبْلها بقليل قُتل الرئيس لنكولن على يد ممثل معتوه وهو يشاهد تمثيلية في مسرح بواشنطن. وبذلك قُضِي من الناحية القانونية على نظام الرق؛ وإن كانت آثاره قد امتدت اجتماعيـــاً وأخلاقياً وتمييزاً عنصرياً حتى عصر قريب.

استقلال أمريكا:

ولأسباب استفزازية كثيرة من جانب بريطانيا التي كانت أمريكا تابعـــة لها اندلعت الحرب بـــين بريطانيا والولايات الأمريكية عام ١٧٧٥م وهي ما تسمى بـ: (حرب الاستقلال). وفي العاشـــر من مايـــو من ذلك العـــام اجتمع الكونجرس الأمريكي وقرر إنشـــاء جيش أمريكي موحَّد من كل الولايات التي اشتركت في المؤتمر.

وفـــي ٤ يوليـــو ١٧٧٦م صدر إعلان (الاســـتقلال) عن بريطانيا الذي دبَّجه قلم (توماس جيفرســـون) موقَّعاً عليه من الولايات الإثنتي عشـــرة الحاضـــرة، وقامت حروب بين الطرفين انتهت بهزيمة بريطانيا وانتصار أمريكا.

ومـــن ثَمَّ بـــدأت المفاوضات مع بريطانيا على أســـاس الاعتراف باستقلال أمريكا من غير قيد أو شرط، وتَبِع ذلك مفاوضات الحدود ومصائد الأســـماك، والديون الإنجليزية، ثم وُقِّعـــت الهدنة بين أمريكا وإنجلترا في ٢٠ يناير ١٧٨٢م، وبعد الظفر بالاســـتقلال وضعت أمريكا أنظمة جديدة لأمة مستقلة ذات حكومة مركزية.

وكان دليل العمـــل يقُوم على (مبدأ مونرو) الذي يقضي بتفرُّغ الولايات المتحدة للنَّظر في قضاياها الداخلية، وعدم السماح لأحد بالتدخل في شؤونها، وكذلك عدم تدخُّلها في شؤون الآخرين.

أمريكا والحضارة الحديثة:

عندمـــا نُطِـــل على العشـــرينيات من القـــرن الماضي، ســـنجد أن أمريكا لم تعد الدولة المنعزلة؛ فقد انتهت مبادئ (مونرو) وبدأت أمريكا تبرز كقوة أولى؛ وبعد أن كانت تابعة لبريطانيا، أصبحت بريطـانيا تقف في الظل خلف أمريكا، بل أصبحت أوروبا كلها مـا عدا ألمـانيا في حاجة إلى أمريكا، مباشرة أو بطريقة غير مباشرة.

وبما أن أمريكا لا تعرف العواطف؛ فقد ســـاعدت هذه الدول على حساب الاستعمار القديم، وعلى رأسه الاستعمار

البريطاني والفرنسي والإسباني... وغيرهم، وبدأت أمريكا تشعر بقوَّتها العالمية، وبأنها فوق الجميع.

ولِمَ لا؛ وهي النصير الأكبر لأوروبا في الحربين العالميتين: الأولى والثانية؟

ولئن كانت قد دخلت الحرب الأولى في نهايتها بعد عِلْمها بتحريض الألمان للمكسيك بمهاجمة أمريكا، وكانت نتائج الحرب بين قتيل وجريح تقترب من عشرين مليوناً. أما الحرب الثانية، فكانت نتائجها ٦٢ مليون قتيل، وتكلفت تريليون دولار أمريكي، بمشاركة نحو مليون جندي.

- ولأول مرة، وبدون أية أسباب معقولة، استعملت القنابل الذرية في تدمير (هيروشيما ونكازاكي)؛ مع أن اليابان كانت قد استسلمت.

- وكانت البضائع والصناعات الأمريكية قد أصبحت الأكثر انتشاراً في العالم، ولم يكن هناك منافس لأمريكا في الازدهار الصناعي والزراعي والتجاري؛ فهي الأغلى والأعلى والأَرْوَج.

ومع نهاية الحرب، كانت أمريكا قد بدأت سياسة جديدة، وهي: سياسة السيطرة على العالم، والدخول في معارك ضارية؛ من أَبْرَزها معاركها في فيتنام التي قتلت فيها أمريكا مليوني فيتنامي، وكذلك الحرب الكورية، وأيضاً الفلبين عندما طردت الإسبان منها... وأخيراً أفغانستان والعراق، وفلسطين من خلال اليهود، والصومال من خلال الأحباش.

مما لا شك فيه أن أمريكا كانت السباقة - ما عدا جاجارين الروسي - والأقدر في استغلال الفضاء، كما أنها رزأت البشرية بأبشع وسائل الإبادة، وكانت سباقة فيها بطريقة جنونية. ولم تترك أمريكا شيئاً إلا أبدعت فيه، لكن الميزان اختل في يدها؛ فقد اعتمدت ميزان القوة وتركت ميزان الحق والعدل والرحمة؛ حتى وهي تنادي بحقوق الإنسان ومحكمة العدل والجنايات ومقاومة الإرهاب، كانت تتاجر بهذه الشعارات.

إن حضارة أمريكا المعاصرة موصولة بحضارتها القديمة، بعصر إبادة الهنود الحمر وعشرة ملايين إفريقي زنجي وإبادة مليوني فيتنامي، ثم إبادة ثلاثة ملايين إنسان في العراق وأفغانستان بقيادة مجرم واحد اسمه: بوش.

أمريكا شؤم في البداية وشؤم في النهاية:

قبل أن نبدأ في الحديث عن نهاية أمريكا، نُذكِّر بما قلناه عن الدولة والحضارة الإسلامية، وكيف أنها قامت على الحب والرحمة والتكافل بين العبيد والأحرار، والمهاجرين والأنصار، وكيف كانت أستاذاً وقدوة للبشرية في الأخلاق والعفو والتسامح، حتى دخل الناس خلال القرون أفواجاً في الإسلام.

فهي أمة الرحمة التي وصف الله النبي المرسل إليها بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

لكن أمريكا قامت على أشلاء أكثر من عشرين مليوناً من الهنود الحمر الذين تعرَّضوا للإبادة بوحشية، وعلى أشلاء عشرين مليون إفريقي مات نصفهم في المحيطات، ووصل النصف كعبيد؛ بعد أن خُطفوا من إفريقيا السوداء.

وقد دخل الأمريكان الجدد الهاربون من بريطانيا وأوروبا مع وطنهم الأصلي (بريطانيا) في حرب ضارية انتهت باستقلالهم، ثم دخلوا في حرب دامية بين شمالهم وجنوبهم من أجل تحرير الرقيق الذين فاق ظلمهم كل الحدود.

وبعد خروج أمريكا من مرحلة العُزلة التي فرضتها مبادئ «مونرو» دخلت الحربين العالميتين: الأولى والثانية. وظلت تعربد في العالم إلى أن ظهر (بوش الابن)؛ فكان أحطَّ رئيس أمريكي في القرن العشرين، وبلغت وحشيَّته عندما اخترع بالتعاون مع اليهود ومع بعض أجنحة المخابرات حادث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م ليعلن بعده - من غير أي تحقيق - حرباً صليبية على كل المسلمين؛ فصار كل مسلم إرهابياً؛ حتى في داخل أمريكا وظهرت عشرات الكتب باللغات الأجنبية تكشف (لعبة سبتمبر القذرة)، والأهم أنه بعد هذه (اللعبة القذرة) استطاع (بوش الابن) أن يقتل ثلاثة ملايين مسلم في أفغانستان والعراق.

لقد قام الطيران الأمريكي والبريطاني في أفغانستان بأكثر من (٤٧٠٠) طلعة أسقط خلالها (١٢٠٠٠) قنبلة تحتوي على اليورانيوم المنضَّب الذي كان سبباً في حدوث تلوُّث هائل في أفغانستان، وتم قتل أكثر من (١٠,٠٠٠ مقاتل) وتشريد ستة ملايين مدني خارج أفغانستان، يتعرضون للموت والجوع، وتشريد (مليون مدني) داخل أفغانستان، وتم قتل الأسرى بالجملة؛ فقد قُتِل (٦٠٠) أسير في قلعة جانجي في يوم واحد، وحُمِل معتقلون كثيرون من المسلمين

إلى قواعد عسكرية أمريكية خارج أمريكا وحُرِموا من كل الحقوق الإنسانية؛ حتى من حق الدفاع عن أنفسهم بواسطة محامين... وقد سُجِّلت (٦٠,٠٠٠) ألف حادثة عنف ضد المسلمين في أمريكا خلال السنة التالية لأسطورة سبتمبر أو لعبة سبتمبر القذرة.

وما جرى لأفغانستان جرى مثله - تقريباً - في العراق وقد سكتت أمريكا عن قَتْل مائة ألف قتيل في البوسنة والهرسك وعن (مائة ألف) مُعتَقَل ظلماً وعن (أربعين ألف) معتقلة اغتُصِبَت الكثيرات منهن، وعن (٤٠٠,٠٠٠) أصبحوا بلا مأوى يعيشون في درجة برودة تصل إلى ٣٠ درجة تحت الصفر، ومليون ونصف مليون مشرَّد.

واستمر ذلك حتى رضيت البوسنة بأقلِّ ما يمكن من الحقوق، وكان الصرب المغرورون قد بالغوا كل المبالغة وتحدَّوا أمريكا وأوروبا، بل العالم كله؛ فتحركت أمريكا وأمرتهم بالتوقف بعد أن تركت لهم فرصة ارتكاب كل تلك الجرائم التي كانت تجري تحت سمعها وبصرها.

لكن ربك لأمريكا ولكل القوى الظالمة بالمرصاد.

وكما كانت البداية تعيسة دموية فها هي أمريكا (التي لم تتراجع يوماً عن هذه السياسة) تبدأ في السقوط، وكما يقول المؤلفان (هاري فيجي، وجيرالد سوانسون) في كتابهما: «سقوط أمريكا قادم... فمن يوقفه؟»: إن أمريكا انتهت فعلاً؛ فمنذ سنة ١٩٩٥م وصلت ديونها إلى أكثر من ٥٦,٦ تريليون دولار؛ أي: تسعة أضعاف واردات الضرائب وستصل فوائد الديون إلى ٦١٩ مليار دولار... وقد عرض المؤلفان لبعض مراحل الانهيار الأمريكي؛ فَفي عهد الرئيس جونسون (١٩٦٤ - ١٩٦٨م) بلغ العجز الكلي للسنوات الخمس ٤٤,٨ بليون دولار، وفي عهد نيكسون (١٩٦٩ - ١٩٧٤م) بلغ العجز الكلي للسنوات الست ٦٧ بليون دولار، وفي عهد (ريغان) (١٩٨١ - ١٩٨٨م) بلغ العجز الكلي للسنوات الثماني (٣٤,١) تريليون دولار، وفي عهد (بوش الأب) والد الرئيس الدموي (بوش الابن)، والذي حكم من ١٩٨٩ - ١٩٩٢م بلغ العجز الكلي للسنوات الأربع ٤٠,١ تريليون دولار.

وقد ذكر محمد حسنين هيكل من مصادره التي ينقل عنها: أن الناتج القومي الأمريكي كله لن يكفي لسداد الفوائد فضلاً عن الديون في عام (٢٠٢٠م)؛ أي أن الدخل الأمريكي كله في عام (٢٠٢٠م) (أي: بعد عشر سنوات) سيكون مُلْكاً للدائنين لأمريكا؛ فكأن أمريكا لن تصبح مُلْكاً للأمريكان في هذا التاريخ.

ومع ذلك فإن أمريكا لا تزال تعالج الأخطاء بالأخطاء؛ فتركبها الصهيونية وهي تخضع لها، وتعتمد على القوة وحدها، وليس لديها مساحة للعدل أو الحق أو الرحمة، بل إنها تزداد سرقة ونهباً لثروات شعوب الأرض، ولا سيما النفط أو المعادن الأخرى، معتمدة على قوَّتها العسكرية، وما زالت تبدِّد أموالها في حروب لا نهاية لها؛ فقد أعلنت زيادة الميزانية العسكرية في بداية حربها على أفغانستان؛ فأصبحت (٣٠٠) مليار دولار سنوياً، مع أن ميزانية الصين العسكرية - على ضخامتها - تبلغ (٤٠) مليار، وميزانية اليابان العسكرية أيضاً تبلغ (٤٠) مليار. والصين واليابان دائنتان لأمريكا بمبلغ لا يقل عن ١٢٠٠ مليار دولار.

لكنه جنون العظمة العسكرية الأمريكية التي تدفعها - بقيادة الصهيونية لها - إلى الهاوية، وبمساعدة رؤساء مجرمين من أمثال (بوش الابن) الذي استراح ضميره عندما أعلن الحرب الصليبية على المسلمين وقتل ثلاثة ملايين مسلم.

أخيراً:

إن التاريخ يعيد نفسه في أمريكا بين البداية التعيسة حين قامت على أنقاض الهنود الحمر والزنوج المخطوفين، وبين النهاية الدموية القذرة في الحرب الصليبية المستمرة والظلم الدولي الذي يمارَس على المسلمين في فلسطين وفي السودان وفي كل مكان؛ حتى في داخل أمريكا.

ورضي الله عن أبطال (دولة المدينة): من العبيد والأحرار، والمهاجرين والأنصار؛ إنها البلد الطيب الذي يخرج نباته بإذن ربه.

أما أمريكا (البلد الذي خَبُث والأرض التي ازدهرت بالدماء) فنسأل الله لها الهداية، أو الانتقام الشديد، كما انتقم من عاد وثمود، وما ذلك على الله ببعيد.

وصدق ربنا في قوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾. [الأعراف: ٥٨]

وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

فهيا أيها العباد الصالحون! يا أحفاد (دولة المدينة المنورة)! تهيؤوا لقيادة الأرض وإنقاذ سفينة الإنسانية.

الحَراك السياسي والثقافي في المرحلة الراهنة

أمين الدميري

تتردد على مسامعنا في هذه الأيام، ونقرأ في بعض الصحف وأجهزة الإعلام وفي أماكن متفرقة من العالم الإسلامي دعاوى غريبة وكأنها حَمْلة منظمة ضد كل ما هو إسلامي؛ محمِّلة الإسلام وزْر التخلف والجهل الذي تعاني منه بلاد المسلمين وأن المخرج من ذلك هو إبعاد ما تبقى للمسلمين من إسلامهم؛ حتى لو كانت بعضَ مظاهرَ ورسوم، والدعوةُ إلى تطبيق مذاهب وافدة وشعارات مشبوهة وعقائد باطلة. والراصد لهذه الدعاوى وتلك الحملة يجدها في غضون الأشهر القليلة المنصرمة كالآتي:

١ - الغارة على الحجاب الشرعي: ففي إيقاع منسجم متناغم مع العالم الغربي نجد منظومة متكاملة تتحرك في مواقع وأوساط رسمية وإعلامية - وكأن يداً واحدة تحركها - لمنع المنتقبات من دخول الجامعات وبعض الوزارات. ومتابعات وتصريحات تعبِّر عن انزعاج شديد من انتشار النقاب بين فتيات ونساء المسلمين؛ فهو يمثل خطراً على المد العَلماني، وعودةً إلى الوراء، وأنه اتهام للرجل بأنه لا يستطيع التحكم في غرائزه؛ فهو رمز لضعف الرجل[١]. والعجيب - كما عودنا العَلمانيون - أنهم يكيلون بمكيالين؛ فينادون بالحرية ويقبلونها في السفور ويرفضونها في الحجاب؛ لا يزعجهم التبرج ثم يتكلمون عن التحرش وكأنهما قضيتان منفصلتان.

٢ - الدعوة إلى بناء الدولة المدنية الحديثة: فقد دار الحوار مع بعض العَلمانيين حول أهمية بناء الدولة المدنية التي تفصل بين الدين والسياسة، والتي تقوم أساساً على التشريع في ظل رقابة الرأي العام، وعلى مبدأ المواطنة[٢]، وبعضهم الآخر أبدى انزعاجه من محاولات (تديين) الدولة؛ بمعنى فرض الطابع الديني على الدولة، وهو أمر في غاية الخطورة، ويمكن أن يؤدي إلى كارثة[٣].

والإستراتيجية التي تفرض نفسها على جميع أبناء المجتمع هي تدعيم الدولة المدنية في مواجهة دعاوى الدولة الدينية التي ترجع إلى دستور وقانون يشكلان معاً إطارها المرجعي بوصفهما من صنع البشر، ولا بد من مراجعة الدستور الذي يمثل الإطار المرجعي الرئيس للدولة المدنية؛ بحيث لا يكون هناك أي نص ملتبس يشير إلى الدين (فالدين لله والوطن للجميع)[٤].

لا شك - فيما أرى - أن جهاتٍ غربية ترصد التطورات والأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية في بلدان

(١) على حدٍّ قول مسؤولة رفيعة المستوى، جريدة المسائية: ٦/٥/٢٠١٠م.

(٢) حسب ما ذكر المفكر السيد ياسين في جريدة الأخبار القاهرية في: ١١/٤/٢٠١٠م.

(٣) حسب زعم المفكر جابر عصفور في حوار معه بجريدة الأخبار في: ١٣/٤/٢٠١٠م.

(٤) والكلام للمفكر جابر عصفور سالف الذكر.

العالم الإسلامي، وتتابع التوجهات العَلمانية ومدى نجاحها في فرض آرائها إعلامياً وشعبياً؛ وهو ما جعل صيحة الغارديان البريطانية تصرح بأن العَلمانية أصبح لها جذور راسخة وانتشار في بلدان العالم الإسلامي، وأن هناك حَراكاً سياسياً في صالح العَلمانية.

٣ - الدعوة إلى إحياء المذهب الأشعري: فقد عُقدَت عدة ندوات ومؤتمرات أكد المشاركون فيها على ضرورة استدعاء تراث أبي الحسن الأشعري لمواجهة الجمود والتفرق والتخلف الذي أصاب المسلمين، ومن أجل وحدة الأمة الإسلامية، مؤكدة أنه سيؤدي إلى تصحيح مفاهيم العقيدة، وتضييق الفجوة بين المذاهب الإسلامية[١].

غير أن من أعجب وأخطر الدعاوى التي أعيد طرحها هي الدعوة إلى تجديد علم الكلام لمواجهة التحديات الفلسفية المعاصرة، أو إنشاء علم كلام جديد يعبِّر عن روح التدين الإسلامي ومقاصده[٢]، وقد كرر فحوى هذا الكلام العالم المغربي د. حسن الوراكلي، والماليزي: د. محمد الطاهر الميساوي بالإضافة إلى بعض عُلماء الأزهر، غير أن ما لفت الانتباه وأثار عندي قدراً هائلاً من التعجب هو ما صرَّح به مسؤول ديني رفيع المستوى وهو يثني خيراً على (د. حسن حنفي)، وأنه صاحب السبق في الدعوة إلى إحياء التراث الأشعري، وإنشاء علم كلام جديد من أجل مصلحة الوطن، ومن أجل التجديد والتنوير، والنظرة النقدية لثقافتنا الموروثة، وكذلك دعوته إلى إنشاء علم استغراب في مقابل علم الاستشراق، فيقول: (ولا يجوز لأي باحث في هذا الصدد أن يتجاهل جهود د. حسن حنفي؛ فقد بادر منذ عقدين من الزمان بمحاولة لتأسيس علم استغراب في إطار مشروعه الكبير عن التراث والتجديد)[٣]، ولست بصدد بيان فكر حسن حنفي المفكر العضوي أو (سبينوزا) الشرق أو صاحب النموذج الجبهوي لإنجاز المشروع العربي النهضوي (الشبيه بطائر رأسه الليبرالية، وقلبه الناصرية، وجناحاه اليسار الإسلامي والماركسيون)، حسب ما وصفه به د. محمود إسماعيل في كتابه: نقد حوار المشرق والمغرب بين حنفي والجابري؛ ولكن الجديد هو ظهور هذا التناغم

(١) د.وهبة الزحيلي في الملتقى الخامس لرابطة خريجي الأزهر، اللواء الإسلامي العدد ١٤٧٧: ١٣/٥/٢٠١٠م.
(٢) الباحث السوداني د. إبراهيم محمد زين، المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

ففي إيقاع منسجم متناغم مع العالم الغربي نجد منظومة متكاملة تتحرك في مواقع وأوساط رسمية وإعلامية، وكأن يداً واحدة تحركها لمنع المنتقبات من دخول الجامعات وبعض الوزارات، ومتابعات وتصريحات تعبِّر عن انزعاج شديد من انتشار النقاب بين فتيات ونساء المسلمين

بين بعض علماء الأزهر وبين منظري العَلمانية والإسبينوزية الشرقية الناقدة للتراث القديم. يقول د. حسن حنفي: (وبدأت نواة الوحدة الوطنية الثقافية بين العَلماني المسلم في الجامعة، والمسلم العَلماني في الأزهر؛ بين المثقف الذي اكتشف الإسلام، والمسلم الذي اكتشف الثقافة وعادت إلى الأزهر روحه، وتصدَّر الحركة الوطنية أسوة بالجامعة العَلمانية)[٤]، وبهذا ظهر التناغم وانكشف التوجه والموجِّه.

٤ - الحوار حول السلفية: وهو الحوار الدائر الآن بعد الضربات المجهضة لتيار الإسلام السياسي؛ سواء كان الجهاد أم الإخوان. ولا أستطيع أن أحدد أو أكشف النوايا حول استدعاء التيار السلفي وأقطابه للنزول بهم أو به في الحَراك السياسي الدائر الآن؛ فهناك مقالات وتحليلات في هذا الشأن ولعلها محاولات لكشف وإظهار ردود الأفعال من جانب أو آخر؛ كالتي كتبها الكاتب عبد المنعم منيب الصحفي بجريدة الدستور وأثار ردود أفعال متباينة، ولا أستطيع أن أجزم بأن هناك محاولةً أو تفكيراً للقضاء على هذا التيار بعد أن أدَّى دوره في المرحلة المنصرمة.

(٤) دعوة للحوار، ص ٣١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م.

الفرق الباطنية: المنهاج والتاريخ

أ. د. محمد أمحزون

ازدهرت الحركات الباطنية نتيجةً للمذهبية والركود اللذين ضربا الفكر الإسلامي السُّني ومؤسساته، ونتيجةً للمظالم الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تمارسها السلطات القائمة وقتئذٍ.

وكان المناخ مناسباً لهذه الحركات لتنفث سمومها في عصر ضعف الخلافة العباسية؛ حيث سقطت هيبة المسلمين، واستشرت الأدواء الفكرية الخبيثة لهذه الحركات السرية الهدامة، وتعرَّض سلاطين المسلمين ووزراؤهم وقادتهم العسكريون وعلماؤهم للاغتيال وهم على أسرَّتهم، إلى غير ذلك من الظواهر المفجعة التي امتلأت بها كتب التاريخ قاطبة، وكانت أكبر عوامل نجاح الحملات الصليبية والمغولية.

وجدير بالذكر أن الفكر الباطني في الأصل هو حَلْقة في سلسلة المحاولات التي قامت بها سلالات الأرستقراطيات الفارسية التي فقدت امتيازاتها بانهيار حكم الأكاسرة، وهي ترمي إلى استعادة ذلك المجد الغابر.

ولتحقيق هذا الهدف لجأتْ إلى أساليب وشعارات جديدة، تتفق مع المنعطف العقائدي والحضاري الذي تحوَّل إليه الشعب الفارسي بعد الفتوحات الإسلامية. وهذه الأساليب الجديدة تتجلى في الشعوبية والباطنية والتشيُّع الغالي، وإحياء اللغة الفارسية.

على أن بداية ظهور الفكر الباطني كانت في القرن الثاني الهجري، ثم نشطت الحركات الباطنية في القرن الرابع الهجري وما تلاه؛ حيث ضمَّت بين صفوفها جماعات مختلفة، يجمعها هدف مشترك؛ هو إفساد العقيدة الإسلامية وتدمير المؤسسات العلمية والحكومية السُّنية التي تمثل هذه العقيدة؛ فقد ضمَّت فلاسفة ومفكرين كإخوان الصفا، وشعراء كأبي العلاء المعري، وعلماء كأبي حيان التوحيدي وابن سينا. كما أفرزت دولاً كالعبيديين والصفويين، وحركات كالقرامطة والحشاشين.

ولا نبالغ حين نقول بأن من الفرق الخطيرة جداً التي ابتليت بها الأمة الإسلامية عبر تاريخها المديد وإلى يوم الناس هذا - إن لم تكن هي أخطر الفرق على الإطلاق - الفرق الباطنية بمختلف أطيافها.

ولا نشك لحظة واحدة بأن هذه الطوائف الخارجة عن الدين وتحمل فكراً متناقضاً مضطرباً هداماً، هي طوائف مخذولة وفئات مرذولة، وهي مأوى لكل من أراد هدم الإسلام، بل كانت في بعض مراحل التاريخ الإسلامي عوناً للصليبيين والوثنيين التتار الذين جاؤوا لغزو المسلمين في عُقر دارهم.

والمعروف عن الفرق الباطنية تدبير المؤامرات وتهييج الفتن وحَبْك الدسائس في طول البلاد وعرضها. وقد ابتلي أهل السُّنة خاصة بها بلاءً عظيماً. وكانت أفكارها وأفعالها عبر التاريخ الإسلامي شاهدة على زيغها وضلالها وسوء اعتقادها. وأسست دولاً في المغرب والمشرق الإسلاميَّين سامت خلالها المسلمين صنوف الاضطهاد والتنكيل؛ بفرض الأفكار الدخيلة والبدع عليهم وتفضيل النصارى، ومصادرة أموالهم، واستباحة دمائهم، كدولة العبيديين في بلاد المغرب والدولة الصفوية في بلاد فارس.

كما قامت حركتا (القرامطة والحشاشين) بكثير من الغارات وأعمال السلب والنهب وترويع الآمنين وقتل الأبرياء. وظهرت من بين هذه الفرق جماعة إخوان الصفا التي لبست لَبُوس العلم لخداع الناشئة وعوام المسلمين والتلبيس عليهم، فنشرت بينهم الفكر الوثني الفلسفي باسم الحكمة.

وفي العصر الحديث برزت كيانات سياسية من هذه الفرق كالنصيرية والدروز، مكَّن لها الاستعمار الغربي واستعملها كوسيلة لإضعاف كيان الإسلام من الداخل، وعرقلة جهود المسلمين في الوحدة والبناء والتنمية.

وعندما نمعن النظر في أسلوب عمل هذه الفرق جميعاً، نلاحظ أن القواسم المشتركة بينها كثيرة، ومقاطع الاتفاق بينها جلية، كأنها تسير على منهاج واحد.

ومن خصائص هذا المنهاج:

• السرية والتكتم في حالة الاستضعاف، وعند الظهور والغلبة ينادون بآرائهم جهاراً ويعلنون ما كانوا يخفون. كما كان المستجيب لهم المنضوي تحت لوائهم لا يعرف شيئاً عن الدرجة التي تلي درجته، ولا يعرف أصحابَ الرتب الأخرى في الدعوة.

• الاستدراج والحيلة: فهم يُظهرون الإسلام، وحبَّ آل البيت، والعفاف والتقشف، وترك الدنيا، والإعراض عن الشهوات؛ وذلك لاستمالة الناس إليهم. ويخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه بعد أن يظفروا منه بالانقياد والموالاة لهم. ويتوسل دعاتهم بوسائل وحيل كثيرة لاصطياد الأتباع، وهي: التفرس، والتأنيس، والتشكيك، والتعليق، والربط، والتدليس، والتلبيس، والخلع، والسلخ.

• انتهاز الفرص: وذلك باستغلال ظروف الناس المعيشية المتدنية وعواطفهم الملتهبة للإصلاح، برفع شعارات براقة، واتخاذ الدين مطية لبلوغ أهدافهم.

• التلبيس على العوام: بطرح أسئلة محيرة عليهم، ثم إشعارهم بأنهم في حاجة إلى التسليم وقبول كلِّ ما يعرض عليهم؛ لأنهم كالطفل يغذى باللبن، ثم بعد ذلك بما أقوى منه.

• التدرج والمرحلية: باعتماد أسلوب التدرج في بث الفكرة والتلطف في عرضها على الناس؛ ففي المرحلة الأولى ينادون بالتشيع لآل البيت، وفي مرحلة ثانية يقولون بالرجعة والعصمة والتقية، وفي مرحلة ثالثة يقولون ببطلان ما عليه أهل ملَّة الإسلام. كما كانت التعاليم تُعطَى للمستجيبين على شكل خطوات مرحلية تتدرج من المبادئ البسيطة إلى التأويلات الفاسدة التي يراد منها إبطال أصول الإسلام وأحكامه.

• التخطيط: وخططهم تدل على دهاء وخبث، وحنكة وذكاء في الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ومعرفةٍ بنفسية الناس، وظروفهم وبيئاتهم؛ فقد كانوا يختارون بدقة الزمان والمكان والأشخاص لتنفيذ خططهم.

• الاهتمام بالمراكز والخلايا والحلقات: وذلك لاستقطاب الأتباع والأنصار لدعوتهم، وتكوين التلاميذ الذين يُلقَّنون تعاليم الدعوة.

• غربلة المعلومات: وذلك بتعيين مخبرين تنحصر مهمتهم بنقل أسرار الدولة الحاكمة ومعلومات عن حكام الأقاليم وأخبار المجتمع السُّني إلى مركز الدعوة الرئيسي؛ ليُصَار إلى دراستها وغربلتها واستغلال خيرها وشرها لمصلحتهم.

• التراتبية والنظام: فالدعوة مراتب ودرجات وذات مستويات تصعد من القاعدة إلى القمة؛ ولذلك فهي أربع مراتب عند إخوان الصفا وسبع مراتب عند الحشاشين.

وبالجملة، فإن كشف عقائد هذه الفرق الهدامة وأساليبها التنظيمية لَحَرِيٌّ بهتك سترها وكشف حقيقتها أمام أعين المسلمين حتى لا يُخدَعوا بما يروِّجه تلاميذ المستشرقين من المؤرخين العَلمانيين والباطنية المعاصرين الذين يلقِّنون تاريخ القرامطة والعبيديين (الفاطميين) والحشاشين والصفويين، وفكر إخوان الصفا للنشئ الجديد على أنه تاريخ يُعتَز به، ومَثَلٌ يفتخر به، تأسيّاً بالمدارس الغربية التي تُعلِي من قيمة هذه الفرق المارقة، التي تجتمع معها على شيء واحد؛ وهو محاربة الإسلام وإفساد عقائده وتهميش شرائعه.

كذلك ينبغي الحذر من محاولة دعاة الباطنية في عصرنا هذا نشرَ أفكار هذه الفرق الهدامة بأسلوب ماكر ودهاء خبيث باعتبارها من كتب التراث، والترويج لهذه الفرق على أنها كانت تنشد العدل الاجتماعي والحرية والمساواة، وتشويه الحقائق التاريخية، واستعمال الإسقاط التاريخي، كما هو حاصل في كتب فرهاد دفتري ومصطفى غالب وعارف تامر ومحمود إسماعيل وأسعد علي وآخرين...

القلق الفكري

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

من الظواهر التي لا تكاد تخطئها العين في ساحتنا الدعوية: بروز أفراد يحملون فكراً (إسلامياً)، لكنه فكر قلق غير متوازن يزداد جنوحاً وتفلّتاً؛ كلما زادت الموضوعات التي يعالجونها. والطريف أن بعضهم يفتعل حولها أحياناً معارك جانبية، ويغرق في منازلات عنترية، ويُشعرون أنفسهم ومَنْ حولهم بأنهم يحملون لواء التجديد الفكري والإصلاح المنهجي، ثم تراهم يجتهدون في تكبير الصغار، واصطناع الرموز!

أهم ما يميز هؤلاء: أنهم يطرحون خطوطاً عريضة بعناوين كبيرة، تشوبها الضبابية وعدم الوضوح، لا تخلو غالباً من تباين وتناقض. وحقيقة الحال أن كثيراً من هؤلاء لا يدرون ما يريدون، ولا إلى أين يسيرون؟ بل إن غاية ما عندهم: الانقلاب على الذات، ومحاولة التفلت من تبعات البيئة الدعوية التي نشؤوا وترعرعوا فيها.

من أهم أسباب هذا القلق والاضطراب:

أولاً: ضعف البناء الشرعي والفكري: وهو ما يؤدي إلى خللٍ وقصور في فهم النصوص والأحكام الشرعية، واضطرابٍ في أخذها والاستدلال بها، بل أبعد من ذلك؛ حيث نرى في أرائهم أحياناً أن بعض الأفكار المعاصرة وقيم الفكر الغربي ومصطلحاته هي الأصل الذي يُحتَكَم إليه، والمعيار الذي توزن به الاجتهادات. وقد لا يتجرؤون على رد النصوص الشرعية التي تخالفها، لكنهم قد يتكلفون الحيدة عنها، أو التأويل والتعسف في فهمها والاستدلال بها.

وصنيع هؤلاء مما حذرنا منه المولى - جل وعلا - في قوله: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢-٣]، وهو مخالف لأمر الله - عز وجل - بالتسليم التام للنصوص الشرعية، كما قال - سبحانه وتعالى -: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وضعف العلم الشرعي أحد الأسباب الرئيسة لتطاول بعض هؤلاء المتفيهقين، ثم انحرافهم عن جادة الصواب؛ وهذا أحد مقتضيات قول النبي ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقَ عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»[1].

وأحسب أن بعض هؤلاء ممن يتطلع إلى الوصول إلى الحق ويحرص عليه، لكن الأمر كما قال عبد الله بن مسعود

(١) أخرجه: البخاري في كتاب العلم، رقم (٣٤)، ومسلم في كتاب العلم، رقم (٢٦٧٣).

– رضـــي الله عنه –: (كم من مريد للخير لن يصيبه)[1]؛ ولهذا فإن الواجب أن يستوفي الباحث الشروط العلمية للوصول إلى الحق؛ ليسلم بإذن الله – تعالى – من الشطط والانحراف.

ثانيـــاً: الانفتاح غير الواعي علـــى مصادر فكرية ومعرفية جديدة عليهم (مثل كتابات الجابري وحسن حنفي والعروي... ونحوهم): وجعل كتابات هؤلاء نداً لكتابات أئمة الإسلام الأثبات المجمَع على إمامتهم. فتنشأ عندهم حيرة مردُّها إلى الشبهات المثـــارة، ثم تتوالد لديهم بعض الأســـئلة والمشـــكلات الفكرية والمنهجية التي لم يحسنوا الإجابة عنها أو التعامل معها.

ومع كثرة الحديث عن ذم الانغلاق، والدعوة إلى الانفتاح، ســـقط بعض هؤلاء في معتركات صعبـــة، وراحوا يتقحمون فيها، ويكثرون التنقـــل بين الأهواء[2]، ويخوضون في قضايا فكرية معقدة بآليات هشـــة هزيلة، وهذا في تقديري سبَّب لبعضهم صدمـــة معرفية حادة أدت إلى التذبذب والانهزام، وإلـــى تبنِّي آراء نبتت من خليط غيـــر متجانس من الأفكار والاجتهـــادات العلميـــة والعملية. وصـــدق العلاَّمة محمد الخضر حســـين؛ إذ قال: (الآراء الفاســـدة والشُّبه المغوية، تربي في النفوس الضعيفة أذواقاً سقيمة)[3].

ثالثاً: من أعظم ما يعصم الإنســـان من فتنة الشهوات، وســـطوة الشبهات: ســـلامة التدين، وعمق الصلة بالله، عز وجل. وكثير من أدواء النفوس إنما تنمو وتترعرع عند ضعف الإيمان، وقصور التربية.

ومن أكثر أدواء النفس خفاءً وخطورة: العُجب والاعتداد بالرأي؛ فهو باب عريض من أبواب الفساد والسقوط؛ ولهذا قـــال النبي ﷺ: «ثلاثٌ مهلكات: شـــحٌّ مُطـــاع، وهوى متَّبع، وإعجاب المرء بنفســـه»[4]. فإذا اجتمـــع الهوى والعُجب في النفس ازداد هلاكُ الإنسان، ومن دقائق الملاحظة التي تدل على النباهة وعمق البصيرة قول عبد الله بن المبارك – رحمه الله تعالى –: (لا أعلم في المصلين شراً من العُجَب)[5].

وبعـــض الناس إذا قرأ كتاباً أو كتابـــين، وكتب مقالة أو مقالتين، اســـتعلى بنفســـه، وطار بها عجباً، وظن أنَّه أصبح مفكراً من كبار المجددين المبدعين، ولا يزال التيه يسيطر على عقله وفكره حتى يؤدي به إلى ازدراء مَنْ حوله، والتقليلِ من شأنهم، والاستخفاف بهم، بل التطاول عليهم إذا خالفوه!

ومما يحســـن التنبيه عليه في هذا السياق: أن المستعلي برأيه إذا أخطأ في مســـألة اســـتنكف استنكافاً شديداً عن الاعتـــراف بالخطأ، والرجوع إلى جادة الصواب، وقد يدفعه استعلاؤه إلى مزيد من التعصب والاستمساك بالخطأ، ظناً منه أنَّ سبيل الرفعة إنما يكون بالتعالي والتعاظم!

رابعاً: ومن أدواء النفوس أيضـــاً: التطلع إلى الصدارة، والبروز نحو الأضواء، والمســـارعة إلـــى التزيُّن أمام الناس: وقد بيَّن النبي ﷺ خطورة ذلك بذكر مَثَل واضح جَلِي، فقال ﷺ: «ما ذئبان جائعان أُرسِلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال، والشرف لدينه»[6]. وهذه هي الشهوة الخفية التي كان يخافها شـــداد بن أوس – رضـــي الله عنه – على أصحابه[7].

وكثير ممن يقع في هذا الداء لا يسلم من أحد أمرين:

أحدهما: القدح في سلامة القصد، وحُسْن النية، وكفى بهذا إثماً وفساداً.

الثاني: التشبع بما لم يعطَ.

لكن ما علاقة هذا بالقلق الفكري؟

الحقيقة أن وهـــج الأضواء، وبريق الإعـــلام، يدفع بعض الناس أحياناً إلى التعالم، وإلى الرغبة في التميز، وقد لا يتحقق ذلـــك – عند ضعف البضاعـــة – إلا بالإغراب، والحرص على تتبع الأغلوطات، ومخالفة العلماء والتيار الســـائد ليس بسبب الاجتهاد العلمي، ولكن المخالفة لمجرد المخالفة.

خامســـاً: قصور العلماء والدعاة فـــي الحوار مع هؤلاء الشباب، والتهاون في استيعابهم: وهو ما أوجد قطيعة فكرية وفجوة تربوية معهم، وزاد من حدَّتها أن بعض العلماء والدعاة ربما احتدَّ أحياناً في تسفيه أفكارهم أو التقليل من شأنهم، فأدى ذلك إلى اســـتفزازهم، وتعصبهـــم، ومقابلتهم لغيرهم بالعزة فـــي الرأي والمعاندة، والإعـــراض عن نقد الآخرين، والاستفادة من آرائهم.

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه: (١/٦٨-٦٩)، ولهذا الأثر طرق كثيرة، صحح بعضها الهيثمي في مجمع الزوائد: (١/١٨١).

(٢) قال عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ: (من جعل دينه عرضاً للخصومات أكثر التنقل)، رواه: اللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة (١/١٢٨)، والآجري في الشريعة (ص٥٦). وعبد الله ابن الإمام أحمد في السنة (١/١٣٨).

(٣) رسائل الإصلاح: (١/٩٩).

(٤) أخرجه: البزار، كما في كشف الأستار عن زوائد البزار، رقم (٨٠)، وحسنه الألباني لشواهده في السلسلة الصحيحة، رقم (١٨٠٢).

(٥) سير أعلام النبلاء: (٨/٤٠٧).

(٦) أخرجه: الترمذي، رقم (٢٣٧٦)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٧) قال شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ: (يا بقايا العرب، يا بقايا العرب، إنما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية) وفسر أبو داود الشهوة الخفية بحب الرياسة، انظر: شرح حديث أبي ذر لابن تيمية (ص٢٥).

جمعية البر الخيرية بالمروة ببلاد العوامر

مشروع الوقف الخيري

بأذن الله

بدعمكم يتحقق أمل

بدعمكم تنفرج كربه

بدعمكم يكتمل البناء

وقف الايتام وتفريج الكربات

قال جابر رضي الله عنه :لم يكن احدا من أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم ,ذو مقدرة إلا أوقف

أوقف لك ولوالديك ولمن تحب

حساب الوقف الراجحي ٣٣٧٦٠٨٠١٠٢٢١٠٣٨

حساب الوقف الاهلي ٣٠٣٦٢٤٠٩٠٠٠١٠٥

العنوان جمعية البر الخيرية بالمروة (بلاد العوامر) رقم الحساب (الراجحي ٣٣٧٦٠٨٠١٠٢٢٢١٨) (الأهلي ٣٠٣٦٢٤٠٩٠٠٠١٠٥)

للتواصل القنفذه العرضية الشمالية بلاد العوامر ص.ب ٤٦ الرمز البريدي ٢١٩٥٢ فاكس ٠٧٧٣٨٢٠٨٥

البريد الإلكتروني J_almarwah@hotmail.com جوال ٠٥٠٤٥٨٩٢٦٧ جوال ٠٥٠٤٥٨٤٢٥٧

ابعد انسابيع ٠٥٩٨٨٩٨٦٣٢

الآن

الآن

فعل اشتراكك في جوال

بالبيان

ضمن شبكة zain

أرسل رسالة فارغة إلى ٧٠٤٠٤٧

للاشتراك أرسل رسالة فارغة إلى

STC ٨٨٠٠٤

موبايلي mobily ٦٣٦٣٩٣

رسائلنا تحكي أهدافنا

وقف الوفاء

Al-Wafa'a Trust

لعزيزٍ فقدتّه

بـ 1000 ريال

لن ينقطع عمله بعد موته

الزاد الخيري ببريدة

تحت إشراف جمعية البر الخيرية

للمساهمة مصرف الراجحي

SA5480000212608010300337

0553841111 - 0503841111 - 063841111

الحملة الإعلامية على نفقة

الراعي الرسمي: الفهاد — شركة أحمد سليمان الفهاد وأولاده المحدودة — Ahmed Sollman Al Fahhad & Sons Ltd., Co.

الراعي الماسي: القرعاوي للعقارات

الراعي الفضي: أميانتيت AMIANTIT

الراعي البرونزي: القرعاوي ALQARAWI — TOYOTA موزع معتمد لقطع تويوتا الأصلية — موزع معتمد لدى شركة عبداللطيف جميل

الراعي البرونزي: ندى NADA

الراعي المشارك: العثيم OTHAIM — العثيم القابضة AL OTHAIM HOLDING

ملحق

مجلة إسلامية شهرية جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة الخامسة والعشرون . العدد ٢٧٧ . رمضان ١٤٣١ هـ . أغسطس/سبتمبر ٢٠١٠ م

وقفة ببابِ الرحمن

مشروعك الرمضاني

لعلكم تتفكرون!

منهج القرآن الكريم في بيان العقيدة الإسلامية

أكل الحلال وحلاوة المناجاة

كيف نحيا بالقرآن؟

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

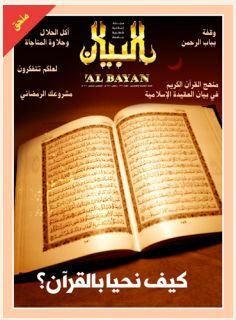

افتتاحية الملف

٢ كيف نحيا بالقرآن؟
التحرير

ملف العدد

٣ كيف نحيا بالقرآن؟
د. عبد الرحمن المحمود

٦ لعلكم تتفكرون!
عبد اللطيف بن عبد الله التويجري

١٠ منهج القرآن الكريم في بيان العقيدة الإسلامية
د. عثمان بن جمعة ضميرية

١٨ معالم في الدعاء
أحمد ذو النورين

٢٤ أَكْلُ الحلال وحلاوة المناجاة
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

٢٧ وقفة بباب الرحمن
الحسين الورزاني

٢٨ قراءة في كتاب: المراحل الثمان لطالب فهم القرآن
أحمد رمضان مقرم النهدي

٣١ مشروعك الرمضاني
مشعل عبد العزيز الفلاحي

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

الإخراج الفني
خالد حسن عمارة

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan-magazine.com

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
هاتف خدمة العملاء مباشر: ٢٢٥١٩٦٧
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٢٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة : شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩
هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١ .
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع:
هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ – ٤٥٥٧٨١١ – ٤٥٥٧٨١٢ – فاكس: ٤٥٥٧٨١٩ .
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩ .
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩ .
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص.ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥

كيف نحيا بالقرآن؟

ما السبب في تلك اللوثة الفكرية التي هاجت بعواصفها المريبة، حتى أسقطت بعض المسلمين في مستنقعات الإلحاد والعملنة والتغريب..؟!

ما السبب في ذلك التمرد القيمي، والتفلت الأخلاقي، والتمزق الاجتماعي، الذي يغشى بعض المجتمعات الإسلامية؟!

ما السبب في تلك الذلة والمهانة التي سيطرت على بعض النفوس، فأصبح العدو يستبيح كرامتها، ويتطاول على حرماتها ومقدساتها؟!

لقد هجرنا كتاب الله ـ عز وجل ـ علماً وعملاً، فألبسَنا الله ـ تعالى ـ لباس الذلِّ والمهانة، وأصبحنا أمة مستباحة الحمى مهيضة الجناح. فُتِنَ بعض المعاصرين بمدارس الفكر الغربي، وعظموا من شأن الفلاسفة والمفكرين الماديين، وذهبوا بعيداً في تمجيد نظرياتهم وأطاريحهم في الفكر والثقافة والاجتماع والسياسة، وأصبحت هي المعيار الذي تُمَيَّز به الأفكار، والميزان الذي توزَن به الآراء؛ فتاهوا في بيداء القلق والاضطراب والتبعية، وأصبحت قلوبهم وعقولهم خاوية لا روح فيها ولا حياة. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٤ – ١٢٥].

إنَّ الطريق الصحيح لنهضة الأمة ورفعتها إنما هو بالعودة الصادقة إلى كتاب الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وكل كبوة أو هزيمة تقع فيها الأمة إنما هي بمقدار بُعدها وإعراضها عن كتاب الله، تعالى.

لقد رفع الله ـ عز وجل ـ هذه الأمة بالقرآن العظيم، وشرَّفها به على سائر الأمم؛ فهو طريق السؤدد والنصر، وشهر رمضان المبارك فرصة عظيمة لتجديد الصلة بكتاب الله ـ تعالى ـ تلاوةً وحفظاً، تدبراً وفهماً، علماً وعملاً.

والحياة بالقرآن هي الحياة الطيبة التي تسعد بها الأمة وتنتصر.

كيف نحيا بالقرآن؟

د. عبد الرحمن المحمود

كيف كان حال السلف مع القرآن؟ وكيف أصبحت حالنا معه؟ ولماذا ضعفت متر لة القرآن في نفوسنا وصارت صلتنا به أقل من صلتنا بالجرائد ووسائل الإعلام؟

ما الذي تغيَّر حتى صرنا إلى هذه الحال؟ هل تغيَّر القرآن؟ أم تغيرنا نحن في عيشنا وحياتنا مع القرآن؟ وما مقياس الأمم في رِفعَتِها وضَعَتِها وفي عزَّتها وذُلِّها؟

روى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله - تعالى - يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين»[1].

وهذا يشمل الفرد، والقوم، ويشمل أيضاً الأمة؛ فمن أقبل على القرآن من هؤلاء نال الرفعة والمكانة، ومن أعرض عنه عوقب بالذلة والمهانة.

وبهذا الميزان النبوي للقرآن عرف سلفنا الصالح - رحمهم الله تعالى - مكانة القرآن ومنزلته وأثره، فجعلوا القرآن عماد حياتهم، تلاوةً وتعلُّماً وتعليماً وعملاً؛ فالصغير ينشأ بتعلُّم القرآن، والأسرة تربَّى بالقرآن، والعلم يُفتَتَح بتعلُّم القرآن وحِفْظِه، ومدارس العلم كلها أساسها وعمادها القرآن، ومساجدهم معمورة بالقرآن، وعباداتهم وصلواتهم، ومجالسهم وسَمَرهم، وأسفارهم وتنقلاتهم، وجهادهم وفتوحاتهم... كل ذلك إنما عماده القرآن، أما أحكامهم وقضاياهم وعلاقاتهم، فلا تخرج عنه أبداً.

لقد كانت - حقاً - أمة تعيش وتحيا بالقرآن؛ فكان من أمرها ما كان، وهذه بعض صور تعامل سلفنا الكرام مع هذا الكتاب العزيز:

١ - عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالليل حين يدخلون، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل؛

(١) رواه مسلم: (٨١٧)، وابن ماجه: (٢١٨)، والدارمي: (٣٣٦٥)، من حديث عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

وإن كنت لم أرَ منازلهم حين نزلوا بالنهار»[1].

٢ - وعن أبي الأحوص الجشمي قال: إن كان الرجل ليطرق الفسطاط طروقاً - أي يأتيه ليلاً - فيسمع لأهله دوياً كدوي النحل (أي بالقرآن). قال: «فما بال هؤلاء يأمنون، ما كان أولئك يخافون؟»[2].

فهذه حالهم وصفتهم مع القرآن، وهي صفة عامة لأمصار المسلمين؛ ولذا كانوا يأمنون ولا يخافون. قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: «إن هذا القرآن مأدبة الله؛ فمن دخل فيه فهو آمن»[3].

٣ - وعن الحسن البصري - رحمه الله - أنه قال: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل وينفِّذونها بالنهار»[4].

وهكذا القرآن: عبادة وذكر لله - تعالى - مع تدبر وتفهُّم يعقبه تطبيق وعمل.

٤ - وحامل القرآن هو حامل لراية الإسلام في كل ما تحتاجه هذه الراية من عزم وقوة، وجِدٍّ وفتوة. قال الفضيل بن عياض - رحمه الله -: «حامل القرآن حامل راية الإسلام، لا ينبغي له أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو، تعظيماً للقرآن»[5].

٥ - أما أحوال السلف مع القرآن تدبراً وخشوعاً فأمر معروف؛ حتى إن الإمام التابعي الثقة قاضي البصرة زرارة بن أوفى العامري الحرشي (أبو حاجب البصري) الذي روى له الجماعة وكان من العباد، روى بَهز بن حكيم قصة وفاته فذكر أنه أمَّهم في الفجر في مسجد بني قشير فقرأ حتى بلغ قوله - تعالى -: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر: ٨ - ٩] فخرَّ ميتاً. قال بهز: فكنت فيمن حمله.

لقد كان القرآن عند سلفنا أساسَ الحياة، وأساس المناهج لا يزاحمه أي علم أو أي منهج آخر، وكانت العلوم الأخرى كلها تأتي بعده تبعاً.

فالذي يدخل في الإسلام كان أوَّل ما يتعلمه القرآن.

والوفود التي كانت تفد على رسول الله ﷺ كانت تتعلم القرآن وتأخذ معها ما تستطيعه منه.

وكان مقياس الرجال ومعرفة أقدارهم تبدأ بمدى معرفتهم وحفظهم للقرآن.

فهذا رسول الله ﷺ يقدِّم الشاب الصغير عمرو بن سلمة على مشيخة قومه وكبارهم ليقول له بعد أن عرف أنه أحفظهم للقرآن: «اذهب فأنت إمامهم»[6].

وهذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو خليفة جعل شُوَّاره من القراء، وأدخل معهم عبد الله بن عباس - على صغره - لتميُّزه بحفظ القرآن والعلم به؛ فعن ابن عباس- رضي الله عنهما - قال: «كان القراء أصحابَ مجلس عمر - رضي الله عنه - ومشاورته كهولاً كانوا أو شباباً»[7].

وحِفْظُ القرآن كان أول ما يُبدَأ به في تعليم الصغار. وحِلَق الشيوخ كانت تبدأ بالقرآن بالنسبة لطلاب العلم. وعيب كبير أن يبدأ طالب علم بفن من الفنون الشرعية قبل تعلُّم القرآن وحفظه. ومحفوظات الطلاب كانت تتركز في البداية على القرآن.

والخلاصة: أن التعليم في الأمة الإسلامية كلها كان أساسه وعماده القرآن وعلومه وتفسيره.

هذا حال سلفنا مع القرآن؛ فقارِنوه بأحوال أمة الإسلام في عصرها الحاضر، فستجدون سؤالاً يثور في نفوسكم: ولكن كيف ضعفت هيبة القرآن في نفوسنا وحياتنا ومعاملاتنا؟ وهل هناك وسيلة أو وسائل يمكن أن تعود بها تلك المنزلة لهذا القرآن العظيم؟

والجواب: نعم! هناك وسائل كثيرة؛ لأنَّ القرآن باقٍ ومحفوظٌ لم يتغير ولن يتغير مهما تغيرنا نحن أو حاول أعداؤنا أن يغيرونا أو يصرفونا عنه.

وإنِّي ذاكرٌ عدداً من المسائل والقضايا حول هذا الموضوع الكبير: كيف نحيا وأمةَ الإسلام بالقرآنِ؟

أولاً: المعرفةُ والإدراكُ الحقيقي لمنزلةِ هذا القرآنِ، وأنه كلامُ الله - تعالى - لا يُقاسُ بكلام البشرِ مهما كانوا، وينبني على هذا أمرٌ مهمٌّ، ألا وهو الثقةُ بنصوصِه ثقةً مطلقةً، والتصديقُ الجازمُ بكلِّ ما جاء به من حقائقَ وأحكام، تتعلق بالفرد وبالأمة في جميع شؤونها العبادية والأخلاقية

(١) رواه البخاري: (٤٢٣٢)، ومسلم: (٢٤٩٩)، عن أبي موسى، رضي الله عنه.
(٢) إسناده صحيح، رواه ابن المبارك في الزهد: (٨٩)، ووكيع في الزهد أيضاً: (١٥٢).
(٣) رواه ابن المبارك في الزهد: (٧٨٧)، وابن أبي شيبة: (١٠/ ٤٨٤).
(٤) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي: (٢٧)، تحقيق نبيل البصارة.
(٥) المصدر السابق: (٧٢)، وقد رواه عنه أبو نعيم في الحلية: (٨/ ٩٢)، والآجري بإسناد صحيح.

(٦) لم أقف عليه، والذي وقفت عليه ما ثبت في صحيح البخاري: (٤٣٠٢)، وسنن أبي داود: (٥٨٧)، والنسائي: (٢/ ٧١)، وأحمد: (٥/ ٣، ٧١)، ولفظه: (قال رسول الله ﷺ: فإذا حضرت الصلاة فَلْيُؤَذِّن أحدكم، وَلْيؤمَّكم أكثركم قرآناً، فنظروا، فلم يكن أحد أكثر قرآناً من الركبان فقدموني بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين) الحديث.
(٧) رواه البخاري: (٤٩٧٠).

والاجتماعية والنفسية والتشريعية...

فـــلا مجال لصوت أنْ يعلو فوق القـــرآن، ولا لمتعالم أنْ يتعالـــمَ على القرآن، فيعملَ في نصوصه تحريفاً وتعطيلاً، أو أن يُشكِّكَ في شيءٍ منْ حقائق القرآن ومعانيه، أو أن يأخذَ منه ما يَشتهي ويتركَ ما خالفَ من هواه، أو أن يجعلَه عِضين مفرَّقاً يؤمنُ ببعضه ويكفرُ ببعضه الآخر؛ وإنما هو التســـليم الكامل لله – تعالى –: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً﴾ [النساء: ٨٧].

وهذا التســـليم لا يخـاطبُ به فئـة معينة كالحكـام – مثلاً وهم مخاطبون – وإنَّما يخاطب به كل فرد في خاصة نفســـه وحياته وعباداته ومعاملاته. وينبغي لكل مسلم أن يعلمَ أنَّ هذا القرآن كما وصفه علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –: (فيه نبأ ما قبلكم، وخبرُ ما بعدكم، وحُكْمُ ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، مـــن تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيـــره أضله الله، وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلَق عن كثرة الرد، ولا تنقضـــي عجائبه، وهو الذي لـــم تنتهِ الجن إذ ســـمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ [الجن: ١ – ٢].

من قال به صدق، ومن عمل به أُجِر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدِي إلى صراط مستقيم)[1].

إنَّ من المؤســـف أننا قد نصدِّق بهـــذا نظرياً، لكننا في الحقيقة نكاد نشـــكك فيه عملياً. وهذا من أخطر أمراضنا، وهذا يمثل التباين بين النظريـــة والتطبيق، والقول والعمل، والدعاوى والحقائق في الواقع.

وهناك أمر آخر، وهو أنه قد يظن ظانٌّ أنَّ بعض الحقائق التي جاءت فـــي القرآن، مثل وعد اللـــه بنصرِ المؤمنين، أو كتابة الذلة على اليهود، ونحو ذلك قد تخلفت، فتضعف ثقته بالقرآن، ويظن أنه محتاج إلى أن يتأوَّل أو يحرف النصوص القرآنية لتتوافق مع الواقع.

وهذا خطأ كبيرٌ يؤدي إلى أن يقلب المسألة؛ بحيث يجعل ما يراه في الواقع هو الأصلَ وما جاء في القرآن تابعاً له.

إنَّ الواجب أن نوقن يقيناً تاماً أن ما جاء في القرآن حق وصدق لا شـــك فيه أبداً، وأنَّ تخلُّـــف وعد الله أو ما يقرره من حقائق تتعلق بالأمم أو بمخالفي شـــرع الله وأحكامه من هذه الأمة أو من غيرها من الأمم، إنما هو لتخلف الأسباب التي ذكرها الله – تعالى – مثل تخلِّي المسلمين عن دينهم، أو عدم قيامهم به علـــى الوجه الأكمل، أو وقوعهم في الذنوب والمعاصي التي تجعلهم يستحقون العقوبات... وهكذا.

إنَّ خلاصة هذا الأصل – الذي بدأنا به – أنه يقومُ على أنَّ جميع مـــا جاء به القرآن حق وصدق لا شـــك فيه، وأنَّ المسلم – وهو يقرأ القرآن ويتدبر معانيه – عليه أن يستحضرَ ذلـــك في كل آية، وفي كل قصة، وفي كل حكم، وفي كل أمر وفي كل نهي، وفي كل توجيه جاء به هذا الكتاب الكريم.

فلا مجال لصوت أنْ يعلو فوق القرآن، ولا لمتعالم أنْ يتعالمَ على القرآن، فيعملَ في نصوصه تحريفاً وتعطيلاً، أو أن يُشكِّكَ في شيءٍ منْ حقائق القرآن ومعانيه، أو أن يأخذَ منه ما يَشتهي ويتركَ ما خالفَ من هواه.

إن حقائق القـــرآن كثيرة، وهي ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال.

وإليكم نماذج فقط من هذه الحقائق:

– قال – تعالـــى –: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَـــن ذِكْـــرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَـــةً ضَنكاً﴾ [طه: ١٢٤].

– وقال – تعالى –: ﴿وَلَن يَجْعَـــلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١].

– وقـــال – تعالى – عن اليهود: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢].

– وقال – تعالى –: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾. [محمد: ٧]

– وقـــال – تعالى –: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَـــا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

– وقال – تعالى –: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

– وقـــال – تعالى – عـــن الربا: ﴿يَمْحَـــقُ اللَّهُ الرِّبَـــا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

(١) أخرجه الترمذي: (٢٩٠٦)، وأحمد: (١/ ٩١)، وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي إسناده مجهول وفي الحارث مقال. اهـ والدارمي: (٣٣٣١) وقال محققه: وقد روي مرفوعاً وموقوفاً كلاهما بالإسناد نفسه وهو ضعيف إسناداً لكنه كلام حسن صحيح. اهـ

لعلكم تتفكرون!

عبداللطيف بن عبدالله التويجري
a44t@hotmail.com

الواجب على المكلَّف أن يشغل نفسه بهذه العبادة الجليلة في حدودها ومجالاتها المنضبطة، ويتعاهدها في جميع الأحوال؛ وذلك أن التفكير السليم يوصل صاحبه إلى الخير في الدنيا والآخرة

لقد أنعم الله - عز وجل - علينا بنعم عظيمة سخَّرها لنا لنعرفه ونعظمه، ونعبده ونوحده، محققين الغاية التي من أجلها خلقنا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وإن من أعظم هذه النعم نعمة العقل الذي هو آلة التفكير، وقد ورد الحديث عن هذه النعمة في أكثر من موضع في كتاب الله، عز وجل. قال - سبحانه وتعالى -: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

ولقد جاء في القرآن الكريم الحث على التفكير في مواضع عديدة؛ حيث وردت مادة: (التفكر) في حوالي تسعة عشر موضعاً في القرآن الكريم[١]، وخُتمَت سبع آيات[٢] من كتاب الله بقوله - تعالى -: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في إشارة إلى أن هذه الآيات العظيمة التي تُذْكَر قبلها؛ لا ينتفع بها إلا ذوو العقول المتفكرة.

وفي مواضع أخرى جاء التشنيع والتوبيخ على القوم الذين عطلوا عقولهم وتفكيرهم، كما في سورة الحج: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

(١) ينظر كتاب: تدبر القرآن بين النظرية والتطبيق، لرقية العلواني: صفحة: (١٩).
(٢) كما في سورة يونس الآية (٢٤) والرعد الآية (٣) والنحل في موضعين الآية (١١) و (٦٩)، والروم الآية (٢١)، والزمر الآية (٤٢)، والجاثية الآية (١٣).

فضل التفكر وأهميته:

إن هذه الآيات وغيرها تُظهر للمتأمل أهمية العقل والتفكير، وأنها نعمة ربانية عظيمة اختص اللهُ بها الإنسانَ، وجعلها مناط التكليف، وميَّزه بها عن غيره من بين سائر الجمادات والعجماوات، وقد نص بعض العلماء على أن منزلة التفكُّر تعد من أفضل الأعمال وأشرفها[1]؛ «وذلك لأن الفكرة عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف الجوارح؛ فكان عمله أشرف من عمل الجوارح»[2].

ولقد كثر الحث في كتاب الله - تعالى - على هذه العبادة الجليلة[3]؛ نظراً لأهميتها وفضلها العظيم؛ حيث إنها تورث العلم والمحبة، والنور والإيمان، وهي عبادة أهل الصلاح والتقوى، يقول الحسن بن عامر: سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب الرسول ﷺ يقولون: إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان: التفكر[4].

مجالات التفكر وثماره:

جاء في التعريفات للجرجاني أن المراد بالتفكر هو: إعمال القلب في النظر في الأدلة[5].

وما يعنينا من الأدلة هنا أنها الآيات الواردة في كتاب الله - عز وجل - امتثالاً لقوله - تعالى -: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ولو تأملنا مجال التفكر في آيات القرآن لبرز لنا مجالان عظيمان أشار إليهما الإمام ابن القيِّم في كتابه القيِّم: مفتاح دار السعادة[6]:

فالمجال الأول هو: التفكر في الدليل القرآني: وفيه يكون التفكر في آيات الله المسموعة التي حث الله - عز وجل - على التفكر فيها وتدبُّرها في أكثر من نص في القرآن الكريم كقوله - تعالى -: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقوله - تعالى -: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]؛ وذلك أن المرء يتفكر في هذه الأدلة حين سماعها أو تلاوتها، وما تتضمنه من دلائل باهرة تحث على توحيد الله والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

(١) يقول الحسن - رحمه الله تعالى - : (إن من أفضل العمل: الورع والتفكر). ينظر: (الزهد، لابن المبارك، صفحة: (٩٦).
(٢) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٨٠).
(٣) ينظر إحياء علوم الدين: (٤/ ٤٢٣).
(٤) تفسير ابن كثير: (٢/ ١٨٥).
(٥) ينظر التعريفات، للجرجاني، ص: (١٦٧).
(٦) ينظر مفتاح دار السعادة: (١/ ١٨٧).

ويتفكر أيضاً فيما جاء فيها من معجزات ودلائل وبشارات ونذارات وعبرة وأحكام، ونحوها، ويتفكر في معجزة ألفاظه، وعظمة أحكامه، وقوة حججه وبراهينه... إلخ.

فهـذا التفكر يورث في القلب محبـةَ الخالق وتعظيمَه، وإخلاص العبادة لـه، والتوكل عليه، وزيادة الإيمان واليقين، وغير ذلك من مقامات العبودية وأعمال القلوب.

والمجـال الثاني: التفكر في الدليـل العياني: وهو آياته المشـهودة، ولقد أثنى الله - عـز وجل - على من يتفكر في ذلك، فقال - تعالى -: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

وقد ثبت في صحيح ابن حبان وغيره مرفوعاً: «لقد نزلت عليَّ الليلة آيةٌ ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها... ثم تلا هذه الآية»[1].

فتأمَّل - رحمك الله - كيف أن الآيات الواردة في القرآن تلفت الأنظار إلى الآيات المشـاهَدة من أجل إعمال التفكر، وتأمَّل أيضاً كيف خُتمت بالدعوة والحث على التفكر.

تفكـر - مثلاً - في قولـه - تعالى -: ﴿وَهُوَ الَّـذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِـيَ وَأَنْهَارًا وَمِـن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِـي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَـاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣] وتفكر أيضاً فـي هذه الآية، وما فيها من تجانس وتماثل وعبرة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِـكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْـكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَـلَ بَيْنَكُم مَّـوَدَّةً وَرَحْمَـةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَـاتٍ لِّقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الـروم: ٢١] وتفكر في هذا المشهد البديع، والإعجاز الفريد: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّـجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَـرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨ - ٦٩].

إلى غير ذلك من الآيات العظيمة المشـاهَدة في الآفاق، والمعجزات الباهرة المتقنة في هذا الكون الفسـيح؛ فمشهد السـماوات والأرض، ومشهد اختلاف الليل والنهار، ومشهد جميع المخلوقات، في تناسقها وإبداعها، لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا، ولو تلقيناه كمشهد جديد تتفتح عليه العيون أول مرة؛ لاهتزت له مشـاعرنا، ولأحسسنا أن وراء ذلك حكيماً يدبر، وعليماً قادراً: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

ومن جميل ما يحكى في هذا الباب ما قاله ابن الجوزي عن نفسـه: (عَرَضَ لي في طريق الحـجِّ خوفٌ من العرب، فسـرْنا على طريق خَيْبَرَ، فرأيت من الجبال الهائلة والطُّرق العجيبـة ما أذهلني، وزادت عَظَمَةُ الخالق - عز وجل - في صدري، فصار يعـرض لـي عند ذكـر الطُّرُق نـوع تعظيم لا أجده عند ذكر غيرها، فصحـتُ بالنفس: ويحك! اعْبُري إلى البحـر، وانظـري إليه وإلى عجائبه بعين الفكر، تشاهدي أهوالاً هـي أعظم من هذه. ثم اخرجي إلـى الكون والتفتي إليه؛ فإنَّك ترينَهُ بالإضافة إلى السماوات والأفلاك كَذَرَّةٍ في فلاةٍ. ثم جولي في الأفـلاك، وطوفي حولَ العرشِ، وتلمَّحي ما في الجِنان والنيران. ثـم اخرُجي عن الكُلِّ، والتفتي إليه؛ فإنك تشـاهدين العالم في قَبْضَةِ القادر الذي لا تقفُ قدرتُهُ عند حدٍّ. ثم التفتي إليكِ، فتلمَّحي بدايتكِ ونهايتك، وتفكري فيمـا قبل البداية، وليس إلاَّ العـدمُ، وفيما بعد البلى، وليس إلاَّ الترابُ.

فكيفَ يأنسُ بهـذا الوجودِ من نَظَرَ بعـين فِكْرِهِ المبدأَ والمنتهـى؟ وكيف يغفَـلُ أربابُ القلوب عن ذكـر هذا الإله العظيم؟)[2].

التفكر في هذا الزمن:

إن الملاحظ على كثير من المنتسـبين إلى الإسـلام في زمننا يجد أنهم أصناف في تعاملهم مع التفكير:

فقوم شُغِلوا عن التفكير السليم بتفكير عقيم، واستبدلوا الـذي هو أدنى بالذي هـو خير فأصبـح تفكيرهم الدائم فـي الدنيـا وملذَّاتها وزخرفها؛ فهم في تفكير وشـغل في الليل والنهار، وأوصدوا على أنفسـهم مجال التفكير النافع فتشوَّشَـت العبادات، وقلَّ التفكير والاهتمام بالآخرة، ونسي كثيرٌ منهم نفسـه ومحاسبتها، وتذكيرها بما خلقت له، وإلى أين مصيرها[3].

وقـوم جنحوا فـي التفكير إلى ما وراء حـدود العقل، واقتحموا أموراً لم يعطَ العقل القدرة على إدراكها وتصوُّرها، فعظموا العقل وقدَّموه على النقل فوُكِلوا إليه، فازدادوا حيرة وشكوكاً.

وقوم تبلـد عندهم التفكير فأصبحوا ينظرون إلى آيات

(١) ينظر: صحيح ابن حبان: (٦٢٠). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: (١٤٦٨).

(٢) صيد الخاطر: (٢٧٥، ٢٧٦).

(٣) عن ذي النون أنه قال: (لا يتفكر القلب لغير الله، إلا كان عليه عقوبة). حلية الأولياء: (٣٨٣/٩).

الله المسموعة والمشهودة فلا يتحرك فيهم شيء؛ وكأنه حدث عادي يمر عليهم بدون تفكر ولا اعتبار!

وقوم عطَّلوا تفكيرهم، وأسلموا عقولهم وتفكيرهم إلى غيرهم، فصاروا لا يرون إلا بأعينهم ولا يفكرون إلا بتفكيرهم، فقلدوا غيرهم وعطلوا تفكيرهم؛ فالحق ما قالوه والصحيح ما صححوه[1].

والواجب على المكلَّف أن يشغل نفسه بهذه العبادة الجليلة في حدودها ومجالاتها المنظبطة، ويتعاهدها في جميع الأحوال؛ وذلك أن التفكير السليم يوصل صاحبه إلى الخير في الدنيا والآخرة؛ لأن «أصل الخير والشرِّ من قِبَل التفكر؛ فإن الفِكْرَ مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والترك والحب والبغض، وأنفعُ الفِكْرِ الفكرُ في مصالح المعاد، وفي طريق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد، وفي طرق اجتنابها»[2].

دعوة للتطبيق:

إننا نعيش في زمن كثرت فيه الفتن، وتلاطمت فيه المحن، وكثرت فيه المنكرات، زمنٍ يحس فيه المؤمن الصادق بغربة شديدة، لا يسليه فيها، ولا يذهبها عنه إلا العيش مع القرآن الكريم، والتفكر في معانيه، والنهل من معينه، والاتجاه إليه اتجاهاً صحيحاً بكامل أحاسيسه ومشاعره، بقلبه وقالبه: تلاوة وتدبراً، وتفكراً وتطبيقاً؛ فالعيش - مع القرآن الكريم - مزية لا تعدلها مزية، ومرتبة لا تفوقها المراتب؛ لأنه الملاذ عند الفتن، والمنقذ عند المصائب والمحن.

وإن مما يحزُّ في نفوس المصلحين والغيورين في واقعنا المعاصر بُعْدُ المسلمين عن القرآن الكريم، والعيش في رحابه، والتدبر في آياته، والتفكر في معانيه، والاطلاع على مقاصده وحكمه العظيمة؛ حيث إن استشعار ذلك كله هو الطريق الصحيح الموصل للامتثال والتعظيم لله رب العالمين، وهو الطريق الموصل أيضاً للفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

إنها دعوة للجميع للتفكر والتأمل في المجالات التي أمرنا الله - عز وجل - بالتفكر فيها والاعتبار بما فيها من الهدايات والمعاني؛ فالتفكر السليم أصل الخير على العبد في معاشه ومعاده.

إنها دعوة للتفكر في عَظَمة القرآن الكريم، والتفكر في

(١) ينظر كتاب: أفلا تتفكرون، صفحة: (٨، ٩).
(٢) الفوائد، لابن القيم: (١٩٨).

إننا نعيش في زمن كثرت فيه الفتن، وتلاطمت فيه المحن، وكثرت فيه المنكرات، زمن يحس فيه المؤمن الصادق بغربة شديدة، لا يسليه فيها، ولا يذهبها عنه إلا العيش مع القرآن الكريم، والتفكر في معانيه، والنهل من معينه، والاتجاه إليه اتجاهاً صحيحاً بكامل أحاسيسه ومشاعره، بقلبه وقالبه: تلاوة وتدبراً، وتفكراً وتطبيقاً؛ فالعيش - مع القرآن الكريم - مزية لا تعدلها مزية، ومرتبة لا تفوقها المراتب؛ لأنه الملاذ عند الفتن، والمنقذ عند المصائب والمحن.

معانيه وآياته والعيش في رحابه.

وهي دعوة للتفكر في آيات الله في الآفاق والأنفُس، وفي نعمه الظاهرة والباطنة.

وهي دعوة للتفكر في سِيَر الأنبياء والصالحين والمجددين، في سِيَرهم مع أقوامهم، وفي أحوالهم، وفي عاقبة أمرهم.

وهي دعوة للتفكر في النفس ومحاسبتها وإصلاحها وتهذيبها وتزكيتها.

ودعوة للتفكر في الدنيا والآخرة، وحقيقة كلٍّ منهما[3].

إنها دعوة للتفكر في آلاء الله ونعمه، وأمره ونهيه؛ من أجل تجديد الإيمان، وفتح آفاق العلم والإحسان، وشغل القلب بأعظم الأعمال، والتعرف على عَظَمة الخالق - جل في علاه - والافتقار إليه، والانطراح بين يديه، والتلذذ بمناجاته، سبحانه وتعالى.

إنها دعوة لإحياء هذه العبادة الجليلة «عبادة التفكر» موجَّهة لكل مسلم؛ كلٍّ على قدر استطاعته، في البيت والمدرسة والمسجد؛ لنحيا حياة قرآنية ربانية.

وإنها فرصة أيضاً لاغتنام هذا الشهر الفضيل الذي هو شهر القرآن لجعله بداية الانطلاق، وفرصة اللحاق بركب السلف الأخيار، الذين عرفوا فضل هذه النعمة فأعطوها حقها، وعَوَّدوا قلوبهم عليها[4]، فوصلوا إلى ما وصلوا إليه من الخير والفلاح، ولقد صدق القائل:

إذا المرءُ كانت له فكرة
ففي كلِّ شيءٍ له عبرة[5]

(٣) ينظر كتاب: أفلا تتفكرون، فقد بسط القول في جميع ما ذُكر.
(٤) قال أبو سليمان الداراني: «عوِّدوا أعينكم البكاء، وقلوبكم التفكر». ينظر: حلية الأولياء: (٩/ ٢٧٤).
(٥) كان الإمام سفيان بن عيينة كثيراً ما يتمثل هذا البيت. ينظر حلية الأولياء: (٧/ ٣٠٦).

منهج القرآن الكريم
في بيان العقيدة الإسلامية

د. عثمان بن جمعة ضميرية

المقدمة:

يقوم الإسلام على الإيمان أو العقيدة التي تكوّن القاعدة الأساس في بناء الدين، ومنها ينطلق المؤمن، ويضبط كلّ حركته بضوابطها، وهي تفسّر للإنسان طبيعةَ وجودِه ونشأتَه وغايتَه، و مصيره، وترسمُ له معالم صلتِه باللّه - تعالى - وبالحياة والأحياء والكون من حوله، وعليها تقوم أحكام الشريعة والنظام والأخلاق في كل جوانب الحياة.

وقد انصرفت عناية بعض العلماء في مرحلة من مراحل تدوين علم العقيدة إلى الجدل والرد على المخالفين بأسلوب ومنهج يتفق مع منهج أولئك المخالفين، فتأثروا بالمنهج الفلسفي الإغريقي، وفسَّروا القرآن على ضوء الفكر اليوناني، فكان لا بدَّ من إعادة الأمر إلى نصابه بالعودة إلى المصادر الصحيحة الموثوقة في دراسة العقيدة؛ وهي القرآن الكريم والسُّنة النبوية.

وسننظر في المنهج الذي سلكه القرآن الكريم في بيان العقيدة الإسلامية وغَرْسِها في النفوس وتثبيتها في القلوب ليكون لها أثرها في السلوك، وسنعرض وسائل هذا المنهج ومسالكه، بما يتفق مع طبيعة هذا البحث الموجز.

المنهج الفطري أو الوجداني:

يقرِّر القرآنُ الكريم حقيقةً كبيرةً، وهي أنَّ الإنسان قد خلقه الله على فطرة سليمة تتجه إلى بارئها وتلجأ إليه؛ فقد جُبِلَت النفوس على معرفة خالقها - تعالى - منذ أن أخذ الله - تعالى - العهد والميثاق على أبناء آدم؛ حيث قال - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وكل مولود في هذا الوجود يولد على الفطرة؛ ولذلك يخاطب الله - تعالى - الإنسان ويذكِّره بهذه الفطرة بأسلوب

وجداني حي؛ ليوقظ إحساسه بالأمور الإيمانية والعقيدة، وأهمها: توحيد الله - تعالى - وإفراده بالعبادة وما يتفرع عن ذلك من قضايا الاعتقاد، وليزيل عن هذه الفطرة ما قد يغشاها أو يحرفها عن طريقها السوي من مؤثرات أُسَرية أو اجتماعية، أو من عادات وتقاليد وأوهام وخرافات، أو من غواية وشهوات ومصالح مادية تهبط بالإنسان وتنحرف به عن الجادة.

يقول الأستاذ محمد المبارك: (القرآن يخاطب الإنسان ويثيره عن طريق منافعه ومصالحه وحاجاته وملذاته، وعن طريق قضاياه ومشكلاته؛ ليحرك تطلُّعه وقلقه إلى معرفة الحقيقة ذات الصلة بحياته الحاضرة ومصيره البعيد، ويجعله بذلك متهيئاً للتفكير في الله، ومستعداً لقبول نتائج المنطق السليم مع منفعته)[1].

وليس الوجدان هو الإحساس أو صفة من صفاته؛ ولكنَّه وعاء الشُّعور بما ينشأ عن إدراك المعاني.

والقرآن الكريم يثير الوجدان بطريقته الجميلة المعجزة، ويزيل الغشاوة التي ترين على القلب وتجعل الحسَّ يتبلَّد، ويَعْرِض آيات الله في الكون في صورة حيَّة ينفعل بها الوجدان كأنها جديدة يشهدها الإنسان لأول مرة. وحين ينفعل بها الوجدان ويتأثَّر، ويتحرك الخيال لتتبع المشهد المعروض وتتحرك المشاعر بشتى الانفعالات، عندئذ يوجِّهه (أي القرآن الكريم) إلى أنَّ وراء هذه المشاهد كلِّها قدرة الله المعجزة، وأن صانعها وبارئها هو الله، سبحانه وتعالى؛ فينبغي إذن عبادة ذلك الإله القادر، والتوجُّه إليه وحدَه بالعبادة دون سواه؛ والتلقِّي عنه في كل أمر من الأمور.

مجالات المنهج الفطري:

بهذه الطريقة الوجدانية الحية يتحدث القرآن الكريم عن الكون بضخامته ودقته المعجزة؛ وعن ظاهرة الموت والحياة، وعن إجراء الرز ق، والأحداث، وقدرة الله التي لا تُحَدُّ، وعن علم الله الشامل للغيب؛ كلُّ ذلك بطريقة فذَّة تجعل الإنسان يستقبل هذه الأمور كلَّها كأنَّه يراها ويلاحظها لأول مرة؛ فينفعل بها وجدانه ويستيقظ لحقيقة الألوهية:

١ - ففي آيات الله الكونيَّة:

يعرض لنا القرآن الكريم جانباً منها بطريقة تصويرية أخَّاذة، ويرسم لها صورة شاملة متكاملة، ويطوف بنا في مجالات رحبة كثيرة، ثم يخلص إلى النتيجة والتوجيه والقناعة الوجدانية، كما في قوله - سبحانه وتعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠ - ١١].

٢ - وفي ظاهرة الحياة والموت:

يتحدَّث القرآن الكريم كثيراً عن أصل الحياة وظهورها، وعن ظاهرة الموت بعد الحياة؛ ليهزَّ الوجدان بهذه الظاهرة المعجزة التي كثيراً ما يمرُّ الإنسان بها دون أن يلتفت إليها؛ أو دون أن يعطيها حقَّها من الاهتمام؛ مع أنها جديرة أن تبعث في نفسه هذا التساؤل: من الذي خلق الحياة في هذه الخلية الحية؟ وعندما تموت هذه الخلية: من الذي سلبها هذه الحياة؟ ولماذا لا تستمر هذه الحياة؟... إلخ.

وهنا يجيء جواب الفطرة ومنهج الفطرة في القرآن؛ ليزيل الغشاوة عن النفوس، ويتحدث عن الموت والحياة حديثاً يهزُّ الوجدان فيصحو من تبلُّده، ويتيقظ لحقيقة الألوهية والربوبية التي يرجع إليها الموت والحياة؛ كقوله - تعالى -: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١].

وليس هذا في مجال الإنسان فحسب؛ بل في مجال المخلوقات الأخرى كذلك. قال الله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١].

٣ - وفي الرزق بأنواعه و ألوانه:

وهو من أشد الأمور التي تربط القلب بالله - سبحانه - وتحرك الفطرة والوجدان؛ إذ يذكِّرنا الله - تعالى - في كتابه الكريم بأنَّه - سبحانه - هو الذي يُفيضه على الإنسان دائماً، فقد تكفَّل الله - تعالى - للإنسان بكل ما يحتاجه؛ من طعام وشراب وملبس ومسكن وهواء، ومن تسخير لكل الموجودات كي ينتفع بها الإنسان، وجعلها تسير على نظام يتفق مع حياة الناس وحاجاتهم.

(١) انظر العقيدة في القرآن الكريم، محمد المبارك: (ص٨١).

ويَعْـرِض القرآنُ الكـريم موضوعَ الـرزق بطريقة توقظ الفطرة وتحرك الوجدان لمعـرفة الله – تعـالى – ولمعـرفة أنه – سـبحانه – المتفرِّد بهذا الـرزق والعطاء، وأنه هو الرزَّاق ذو القوة المتين، وأنَّ الأرزاق كلَّها من عند الله، وأنَّ الإنسـان مهما بذل من جهد فهو لا ينشئها في الحقيقة، وإنما يعمل فيها بسنَّة الله ومشيئته، ولكن المنشئ والخالق هو الله – تعالى –: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٦٣ – ٧٤].

فإذا كان الأمر كله لله – تعالى – في إنبات الزرع، وإنزال الماء من المزن، وتيسـير النار والوقـود... فإن في هذا كله تذكرة وتبصرة؛ ثم ينتهي السـياق حين يهزُّ الوجدان بذلك العرض كله بدعوة الإنسـان – وهو في حالة تأثُّره وانفعاله الوجداني هذه – أن يسـبِّح باسـم ربه العظيم الذي أفاض عليه كل تلك الأرزاق والخيرات، والنعم الظاهرة والباطنة.

٤ – وتجري الأحداث حول الإنسان وفي خاصة نفسه من مولده إلى مماته:

بعضُها أحداثٌ كونيَّة: كالليل والنهار وتعاقُبِهما المسـتمر، وطلوع الشـمس وغروبها، وطلوع القمر وتدرُّج أوجُهه من أوَّل الشـهر حتى يكون بدراً؛ ثم يتضاءل حتى يختفي، والسـحاب والمطر والرعد والبرق، وتعاقب الفصول... إلخ. وبعضُها أحداثٌ من محيط البشـر: من ميلاد وموت، وصحة وضعف، وطفولة وشباب وكهولة وشيخوخة، وغنى وفقر، وعز وذل... إلخ.

٥ – أمـا علـم اللّه للغـيب:

فإنه علم شـامل محيط في كل جانـب من جوانبه في الماضي وفي الحاضر وفي المسـتقبل، وقد يحاول الإنسـان شـيئاً من ذلك بوسـائل وأسـباب ولكنه يعجز عنه؛ أما الله – سبحانه وتعالى – فإنه يعلم الغيب كله؛ لأنه هو العليم بكل ما في السـماوات والأرض؛ وكلِّ ما حدث وما يحدث؛ لأنه منشـئ الأحداث. والقرآن الكريم ينبِّه الوجدان البشري إلى هـذه الحقيقة، فيقول الله – تعالى –: ﴿اللَّـهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٨ – ٩].

ففـي الآية الكريمة دليل على عظمة الله وشـمول علمه للغيب في كل المجالات التي ضربت الآية الكريمة أمثلة عليها: في مجال الإنسان، وفي مجال الحيوان (مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى)؛ فمن الذي يحصي هذا كله، ومن الذي يعلم خصائص كلِّ حَمْل تحمله كل أنثى؟ إنه لا أحد يسـتطيع ذلـك إلا الله – تعالى – الذي جعل كلَّ شـيء عنده بمقدار، ولا يغيب عنه إسـرار بالقول ولا خطرات في النفس... فأين يغيب عن الله شـيء واحد من أعمال الإنسان؟ فكل شيء مسجل ومحفوظ وسيجزى الإنسان عليه: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْـقُطُ من وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وهنا يجدر التذكير بأن هذا المنهج الوجداني (أو الفطري) الذي يسـلكه القـرآن الكريم لغرس العقيدة لا يقتصر على جانب واحد من جوانبها.

وفي ختام هذه الفِقْرة حسبنا أن نؤكِّد أنَّ القرآن الكريم يلفت النظر إلى خصائص الفطرة والمواقف العلمية التي تعيد إليها نقاءها وصفاءها باعتبار أن هذا كله يصلح منهجياً إلى اعتبار الفطرة قاعدة من قواعد أخرى، فيتكون منها جميعاً منهج خاص يتميز به الإسـلام حـين يصطنعه منهجاً لبناء العقيدة الصحيحة في نفوس الأفراد والجماعات.

المنهـج العقلـي:

إنَّ المنهج العقلي الذي يسـلكه القـرآن الكريم في بيان العقيدة وغرسها في النفوس يأتي متسقاً مع المنهج الفطري ومتكاملاً معه؛ ولذلك فـإنَّ القرآن الكريم لم يكن مقصوراً على مجرد الخبر عن وجود الله – تعالى – ووحدانيته وسائر أركان العقيدة، وإنما أقام البراهين العقلية التي بها تُعْلَم العلوم الإلهيَّة؛ فكان منهجه ومنهج جميع الأنبياء – عليهم السلام – الجمع بين الأدلة العقلية والسمعية (الشرعية)[1]. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحُسْـن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية، دلَّ عليها القرآن وهدى الناس إليها؛ فإن نفس كون الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن، ومخلوقاً من نطفة ثم من علقة... فإن هذا يعلمه الناس كلُّهم بعقولهم، فهو إذنٌ عقليٌّ؛ لأنه بالعقل تُعلَم صحته، وهو شرعيٌّ أيضاً)[2].

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٩ /٢٢٦، ٢٢٧.
(٢) انظر: النبوات، لابن تيمية: (ص٤٨).

والإسلام ينوِّه تنويهاً كبيراً بالعقل ويُعلي من مكانته وقيمته؛ ونجد شـاهداً على ذلك في الآيات القرآنية التي تنزَّلت بشأنه؛ فالعقل هو هبة الله للإنسـان، ولذلك جعله الله - تعالى - سبباً للتكليف ومناطاً للمسـؤولية؛ وحثَّ على استعماله فيما خُلق له (أي العقل) وفي المجال الذي يستطيعه، ورسم له المنهج الصحيح للعمل والتفكُّر، وأحال عليه في القضايا الكبرى الرئيسية: كمعرفة الله - تعالى - ووحدانيته، وصحة النبوة، والبعث بعد الموت؛ فإنَّ إدراك هذه القضايا إدراكاً كلياً عاماً إنما يكون بالعقل. وإن كان هـذا لا يعني أن نجعل العقل حاكماً على مقررات الدين؛ فإن العقل من شـأنه أن يتلقى عن الوحـي، وأن يفهم ويدرك؛ فإن للعقول حدّاً تنتهي إليه لا سبيل لها إلى مجاوزتها.

مجالات المنهج العقلي:

والقرآن الكـريم يخاطب العقل ويُقنع الإنسـان بالمنطق السهل المؤثر في النفس بأسلوب حي جذاب؛ حيث يوجِّه نظره إلى آيات اللـه في الكون والرزق والحيـاة والموت والأحداث الجارية كما سبق الحديث عنها في المنهج الفطري الوجداني، ولكنه مرة أخرى يعرض لها؛ وبأسلوب ومنهج عقلي يؤدي في النهاية إلى الغاية ذاتها، وهي إدراك حقيقة الألوهية وما يتفرع عنها من حقائق وقضايا الإيمان والعقيدة:

١ - ففي مجال الإلوهية:

يعرض القرآن الكريم آيات القدر والخلق، ومظاهر الموت والحياة، فيقول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٥٧ - ٧٤].

وقـد تقدَّمت هذه الآيات الكريمـة في المنهج الفطري؛ وهي كذلك مثـالٌ على المنهج العقليِّ؛ لما فيها من أسـلوب منطقيٍّ يتصف بالحيوية؛ لما فيها من الأسـئلة الموجَّهة إلى المخاطَب والإجابة عنها إلـى أن يصل إلى النتيجة المطلوبة التـي بُدئ بها لإيراد الدليل عليها، مع تعدُّد الأمثلة المأخوذة من حياة الإنسان وما يحيط به.

ولو تأمَّل الإنسـان بعقله وفكره آيـات الله المبثوثة في الأرض وفي النفس والآفاق، لأيقن بأن وراء هذه الآيات قدرةَ اللـه - تعالى - وأنها دليل علـى وحدانيته، فتجب طاعته، والالتـزام بأمره ونهيه، وخلع ما يُعبَـد من دونه من الأنداد والشـركاء. قال الله - تعالى -: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٢١].

وبالأسلوب العقلي المنطقي تأتي أدلة الوحدانية، كقوله - تعالـى -: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾. [المؤمنون: ٩١]، وكما قال - تعالى -: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢١ - ٢٢]. والبراهين العقلية في القرآن ذات طريقة حيَّة وبأسـلوب يمكن أن تفهمه الخاصة والعامة؛ كلٌّ بقدر طاقته.

٢ - وفي مجال النبوات أيضاً:

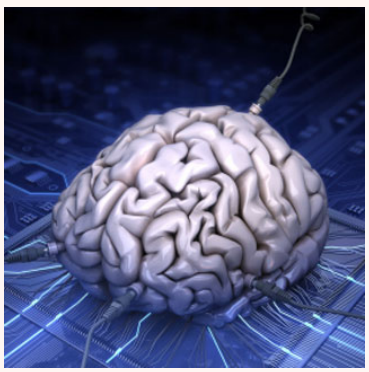

يخاطب القرآنُ الكـريم العقـلَ، ويوجِّهه إلى معرفة صدق النبيِّ ومصدر القـرآن، وأنـه هو الوحي المنـزَّه عن الخطأ والاختلاف، فيقـول الله - تعالى -: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

فإن سلامة القرآن من الاختلاف والتناقض، مع سلامته في الأسلوب الذي يجري على منهج واحد، دليلٌ عقليٌّ على أنه من عند الله، تعالى؛ فلو كان من عند غير الله لظهر فيه ذلك التفاوت[1].

٣ - وفي السمعيات:

يقيم القرآنُ الكريم الدليلَ العقليَّ على البعث والحساب؛ فإن العقل يمنع أن تكون الحياة عبثاً؛ وأن يُترك الإنسان سدىً دون تكليف ولا محاسبة ولا جزاء يفرِّق فيه بين المؤمن والكافر،

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي: ١٠/٢٠٢.

وبين التقي والعاصي الفاجر، فيقول الله – تعالى –: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٣٦ – ٤٠].

وكذلك يحكم العقل بأنَّ من قَدَر على الخلق في المرة الأُولَى فهو على الإعادة أقدر: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٣٧].

والذي ينبغي أن نُلمح إليه في آخر كلامنا عن المنهج العقلي: أن الإسلام بيَّن للعقل الطريقَ الذي ينبغي أن يسير فيه حين يريد النظر في مسألة بعينها؛ والطرائق مختلفة والأساليب متعددة؛ ولكل مسألة من المسائل ما يناسبها من طرائق النظر وأساليب الفكر.

فإذا كان موضوع النظر هو مسائل الإلوهية، فإن العقل أمامه طريقان:

أحدهما: أن ينظر في الكون ويتأمَّله ليستنتج من ذلك أن له موجداً، ثم ينظر في تناسق هذا الكون وانسجامه ليعلم أن موجده واحد عالم حكيم خبير.

والطريق الثاني: أن ينصت إلى هذا الإله الذي آمن به حينما يتحدث عما يجب وعما يجوز وما يستحيل على هذا الإله من أسماء وصفات.

أما حين يكون الحديث في مجال النبوة – مثلاً – فإن الإسلام يوجِّه العقلَ وِجْهةً أخرى، فيطالبه بالنظر في إثبات دعوى النبوة من جهات ثلاث:

الأولى: النظر في تاريخ مدعي النبوة.

والثانية: فيما جاء به هذا النبي من العقائد والشرائع.

والثالثة: أن ينظر فيما ادَّعاه من الخوارق والمعجزات[1].

وأخيراً: فإن هناك توازناً واتساقاً بين هذا المنهج العقلي والمنهج الفطري السابق؛ وهذا أيضاً يمكن أن يكون منهجاً آخر؛ فنقول: إن القرآن يسلك منهجاً عقلياً ووجدانياً في الوقت نفسه لبيان حقائق العقيدة والإيمان.

منهج الجدل والردّ على الانحرافات:

لقد ألمحنا فيما سبق بيانه إلى أن الفطرة قد تنحرف، وأن الكتب السابقة قد دخلها التحريف والتبديل. وكان لهذا أثره في شيوع الانحرافات والضلالات عند الأمم السابقة؛ فكان لهم معتقدات وتصورات باطلة؛ وكان لهم شبهات طارئة؛ لذلك وقفوا وقفة جائرة ظالمة من دعوة النبي ﷺ إلى التوحيد؛ لذلك أبرز القرآن الكريم تلك الانحرافات، وجادل أصحابها، وأزال شبهتهم، وأقام عليهم الحجة بكل طريقة.

ومن خلال الجدل والحِجَاج والرد والمناقشة لمعتقدات الجاهليين – أيّاً كانوا – تبرز العقيدة الصحيحة التي تتفق مع الفطرة السليمة ويقبلها العقل الصريح.

مجالات منهج الجدل والرد على الانحرافات:

ومن أعظم الانحرافات والضلالات التي رد القرآن الكريم على أصحابها: إنكار الألوهيَّة والربوبيَّة والشرك فيهما، وإنكار البعث والنبوة، وانحراف اليهود في تصوُّرهم للإله؛ وانحراف النصارى وشركهم؛ حيث ادَّعوا أنَّ لله ولداً وأنه ثالث ثلاثة. وهناك انحرافات أخرى تتمثل فيما كان عليه الصابئة والمجوس وغيرهم:

١ – **فقد ردَّ الله – تعالى – على منكري الربوبية** الذين نسبوا الإحياء والإماتة إلى الدهر؛ وهم الصورة الأُولَى للإلحاد الذي عرفته بعض المجتمعات المعاصرة، فقال الله – سبحانه وتعالى –: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]. وبذلك يبيِّن القرآن الكريم أنَّ الإلحاد لا يقوم على شيء من العلم، وإنما هي الظنون والأوهام والأهواء. وقد سبق في المنهج الفطري والعقلي ما يوضح أن وجود الله – تعالى – حقيقة لا يشك فيها عاقل؛ وأن الأدلة كلها قامت على ذلك عقلاً وشرعاً وواقعاً.

٢ – **ردَّ القرآن الكريم على المشركين** ألوان الشرك الذي وقعوا فيه؛ حيث عبدوا الأصنام، وبعضهم كانوا يعبدون الجنَّ أو الملائكة ويزعمون أنها تشفع لهم عند الله... إلخ. وبيَّن القرآن الكريم حقيقة الأمر في ذلك بطريقتين:

الأولى: بيان أن الله وحدَه هو الخالق المدبِّر لهذا الكون؛ فلا أحد يشاركه في الخلق ولا في التدبير. قال الله – تعالى –: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَـهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن

(١) انظر: عقيدتنا وصِلَتُها بالكون، د. طه الدسوقي: (ص ١١٠ – ١١٣).

يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَـهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩ – ٦٤].

الثانيـــة: بيـان عجـز أولئـك الشـــركاء المزعـومين عن أن يملكوا لأنفســـهم ضراً أو نفعاً؛ فكيف ينفعون غيرهم أو يضرونهم؟ يقول – تعالى –: ﴿أَيُشْـرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَـيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلا يَسْـتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُـمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَـوَاءٌ عَلَيْكُـمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُـونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَـادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُـوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِـينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْـتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١ – ١٩٨].

٣ – **وعندما ادعى المشركون العرب أنّ للّه** أولاداً وبنات متابعةً لليهود الذين قالوا: إن عُزيراً ابن الله، ومضاهاةً لقول النصارى الذين قالوا: عيسى ابن الله، عندما قالوا ذلك ردَّ الله – تعالى – عليهم، ونزَّه نفسه عن ذلك، فقـال – سبحانه وتعالى –: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠ – ١٠٢].

٤ – **وعندما تنكّر العرب للبعث والجزاء،** وعجبوا من ذلك أشدَّ العجب واستبعدوا أن يكون هناك حياة أخرى بعد الموت... عندئذٍ حكى الله – تعالى – ذلك عنهم، ثم أقام الأدلة على البعث بتوجيه أنظارهم وعقولهم إلى آيات الله في هذا الكون وقدرته – سبحانه – التي تتجلى في عظمة هذه المخلوقات لأول مرة؛ فكيف لا يقدر على الخلق مرة أخرى؟ وتأمَّل هذه الآيات الكريمة بأسلوبها المعجز الأخّاذ. قال الله – تعالى –: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١ – ١٥].

٥ – **ولما انحرف اليهود والنصارى في تصوُّرهم عن الله وقدرته،** ردَّ عليهم أفكاراً كثيرة، كما في قوله – تعالى –: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]؛ ردّاً على اليهود الذين زعموا أن الله – سبحانه وتعالى – استراح في اليوم السابع.

وعندما زعموا أنهم أبناء الله وأحبَّاؤه، أو أنهم شعب الله المختار، ردَّ عليهـم بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَـارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّـهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَـرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَـاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

المنهج الإرادي العملي:

الإرادة البشـرية مخاطَبة في الإســلام منـذ اللحظة الأُولَى التي يتعرض فيها الإنسان للإنذار ثم لعوامل تصديق الرســول. واســتجابة الإرادة لهذا الخطاب هي (التسليم) أو الاستســلام: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْـلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

وفي هذا يقول الإمام أبو جعفر الطحاوي – رحمه الله –: (ولا يثبتُ قدَمُ الإســلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام؛ فمـن رام علْـم مـا حُظِـر عنه علمُه، ولم يقنع بالتسليم فَهْمُه، حَجَبَه مرامُه عن خالص التوحيد وصافي المعرفة وصحيح الإيمان، فيتذبـذبُ بين الكفر والإيمان والتصديـق والتكذيب والإقرار والإنكار؛ موسوســاً تائهاً شــاكّاً زائفاً؛ لا مؤمناً مصدِّقاً ولا

جاحداً مكذِّباً)[1].

ويقـــول الإمام العلاَّمة ابـــنُ السَّـــمْعَاني – رحمه الله –: (الأصلُ في الدِّين الاتِّباعُ؛ والعقولُ تبعٌ؛ ولو كان الدين بُني على المعقول وجب ألَّا يجوز للمؤمنين أن يقبلوا أشـــياء حتى يعقلوا. ونحن تدبَّرنا عـــامة ما جاء في أمر الدِّين: من ذكر صفات الله – عـــزَّ وجلَّ – وما تعبَّد الناس من اعتقاده؛ وكذلك ما ظهر من بين المسلمين وتداولوه بينهم وتناقلوه عن سلفهم إلى أن أسندوه إلى رسول الله ﷺ: من ذكر عذاب القبر وسؤال الملَكين... أمور لا تُـــدرَك حقائقُها بعقولنا، وإنمـــا ورد الأمر بقَبولها والإيمان بها؛ فإذا سمعنا شـــيئاً من أمور الدِّين و عَقَلناه وفهمناه، فللَّه الحمد في ذلك والشـــكر ومنه التوفيـــق، وما لم يمكننا إدراكه وفهمـــه ولم تبلُغْه عقولُنا آمنَّا به وصدَّقنا واعتقدنا أنَّ هذا من ربوبيَّته، تعالى)[2].

مجالات المنهج الإرادي العملي:

وهنـــا نذكر بعـــض الآيات التي تتوجه إلى إرادة الإنسان مباشرة تقتضي منها التسليم، وهي علـــى وجه خاص، الآيات الكريمة التي جاءت في صيغة التقرير:

١ – ففي مجال الإلهيّات يقـول الله – تعـالى –: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

٢ – وفي مجال النبوات يقول الله – تعالى –:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٠ – ٢٣].

٣ – وفي مجال السمعيات يقول الله – سبحانه وتعالى –: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]. وهذه الآية الكريمة وما سبقها قد جاءت في صياغة تقريرية موجَّهة للإرادة للتسليم[3].

منهج تثبيت العقيدة والتذكير بالله:

وإذا كانت المناهج السابقة مسالك لبيان العقيدة، فإنها بعد وجودها وبيانها تحتاج إلى أن نتعاهدها، وأن نعمل دائماً علـــى تثبيتها في النفس، فيكون لهـــا الأثر الفاعل في نفس صاحبها؛ فلذلك نجد في القرآن الكريم و في السُّنة النبوية وسائلَ لتثبيت الإيمان في النفس البشرية، منها:

التذكير الدائم بعظمة الله – تعالى – وآيات قدرته في الآفاق وفي النفس؛ حتى يخشع القلب ويستسلم: والتذكير بأن الله مع الإنسان يراه ويراقبه ويحصي عليه أعماله؛ ثم يحاسبه عليها يوم القيامة حتى تصبح تقوى الله جزءاً لا يتجزأ من مشاعر القلب، وركيزة ثابتة في حالة السرَّاء والضرَّاء؛ ففي السراء يذكر الله شاكراً لأنعمه، وفي الضراء يذكر الله صابراً ومتطلعاً إليه – سبحانه – ليكشف عنه السوء.

يظل القرآن يكرر هذه التوجيهات حتى ترسخ في النفس، وحتى يصبح اللّه حاضراً في القلب لا يغفل الإنسان عن ذكره؛ فتستقيم مشاعره، ويستقيم سلوكه، ويصبح عبداً ربانياً مقرَّباً إلى اللّه في الدنيا والآخرة

ويورد القرآن القصص التي تثبِّت الإيمان ومنها: قصص الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين الذين صبروا على الأذى حتى جاء نصر الله، وقصص الكفار الذين كذبوا وعاندوا حتى دمر الله – تعالى – عليهم بكفرهم.

وأخيراً يرسم القرآن صوراً محبَّبَة للمؤمنين وصفاتهم، وما ينتظرهم من الجزاء في الآخرة مخلَّدين في الجنات، وصوراً كريهة منفِّرة للكافرين وصفاتهم وما ينتظرهم من الجزاء في الآخرة مخلَّدين في النار وما ينالهم فيها من العذاب يوم القيامة. ويظل القرآن يكرر هذه التوجيهات حتى ترسخ في النفس، وحتى يصبح الله حاضراً في القلب لا يغفل الإنسان عن ذكره؛ فتستقيم مشاعره، ويستقيم سلوكه، ويصبح عبداً ربانياً مقرَّباً إلى الله في الدنيا والآخرة؛ فيرزقه الله الطمأنينة والسعادة في الدنيا، ويمنحه في الآخرة جنته ورضوانه.

الخاتمة:

(١) انظر: العقيدة الطحاوية بيان السُّنة، للطحاوي: (ص٨٢).
(٢) انظر: صون المنطق والكلام، للسيوطي: (ص١٨٢).
(٣) هذه الفقرة مقتبسة من (مداخل إلى العقيدة الإسلامية)، د. يحيى هاشم فرغل: (ص١١٨) وما بعدها.

بعد هذه اللمحات السريعة، يَحسُن أن نختم هذه المقالة بكلمات عن مميزات المنهج القرآني في عرض العقيدة الإسلامية، ثم نعقب بأهم النتائج:

١ - إن هذا المنهج يتميز:

أولاً: بكونه يعرض (الحقيقة) كما هي في عالم الواقع، بالأسلوب الذي يكشف كل زواياها وكل جوانبها وكل ارتباطاتها، وكل مقتضياتها، وهو مع هذا الشمول لا يعقِّد هذه الحقيقة ولا يلفُّها بالضباب، بل يخاطب بها الكينونة البشرية في كل مستوياتها.

وثانياً: بكونه مبرأً من الانقطاع والتمزق الملحوظَين في الدراسات (العلمية) والتأملات (الفلسفية)؛ فهو لا يُفرِد كل جانب من جوانب الكل الجميل المتناسق بحديث مستقل كما تصنع أساليب الأداء البشرية؛ وإنما هو يعرض هذه الجوانب في سياق موصول، يستحيل مجاراته أو تقليده.

وثالثاً: بكونه - مع تماسك جوانب الحقيقة وتناسقها - يحافظ تماماً على إعطاء كلٍّ جانب من جوانبها مساحتَه، التي تساوي وزنه الحقيقي في ميزان الله؛ وهو الميزان، كما أنَّ هذه الحقائق لا يطغى بعضها على بعض في التصور الإسلامي.

ورابعاً: بتلك الحيوية الدافقة الموحية، مع الدقة والتقرير والتحديد الحاسم؛ وهي تمنح هذه الحقائق حيوية وإيقاعاً وروعة وجمالاً لا يتسامى إليها المنهج البشري في العرض ولا الأسلوب البشري في التعبير. ثم هي في الوقت ذاته تُعرَض في دقة عجيبة، وتحديد حاسم؛ ومع ذلك لا تجور الدقة على الحيوية والجمال، ولا يجور التحديد على الإيقاع والروعة[1].

٢ - إن القرآن الكريم ومعه السُّنة النبوية هو مصدر هذه العقيدة الذي يتفق مع الفطرة والعقل:

وفيه الغَنَاء والكفاية، وهو الهداية والنور، وهو في الوقت ذاته سبب الهداية إلى أقوم طريق في العقيدة والعبادة والأخلاق والتشريع، ولا يجوز أن نحمله على الآراء والمقررات البشرية

إن القرآن الكريم ومعه السُّنة النبوية هو مصدر هذه العقيدة الذي يتفق مع الفطرة والعقل، وفيه الغَنَاء والكفاية، وهو الهداية والنور، وهو في الوقت ذاته سبب الهداية إلى أقوم طريق في العقيدة والعبادة والأخلاق والتشريع.

القابلة للصواب والخطأ، بل ينبغي أن يكون هو المهيمن عليها المصحح لأخطائها والمقوِّم لمنهجها، ويكون فهمه وتفسيره قائماً على مناهج فهم النصوص في اللغة التي نزل بها مع البيان المعصوم من النبي ﷺ.

٣ - ويَحسُن في هذا المقام التأكيد على: وجوب دراسة مباحث العقيدة والإيمان وما يتصل بها دراسة موضوعية من القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ، بطريقة تتناسب مع المخاطَبين في هذا العصر من حيث طريقتُهم في التفكير وأسلوبهم في التعبير، مع المحافظة على المفاهيم الإسلامية، دون انتقاص أو تحريف.

ولذلك ينبغي أن نشير أيضاً إلى القضايا الفكرية والعقدية التي تطفو على الساحة اليوم، ومن ثَمَّ دراستها بأسلوب يتفق مع روح العصر، ويستفيد من مقررات العلوم القطعية ونتائجها، دون مجافاة لروح النصوص الشرعية الصريحة الصحيحة؛ إذ إن صحيح المنقول يتفق مع صريح المعقول.

ولعل هذا المقام يتسع لتوصية أخرى تتصل بالاهتمام بالتراث الإسلامي الذي خلَّفه لنا علماء السلف - رحمهم الله تعالى - في باب العقيدة والإيمان، مما كتبوه تحت عنوان: (الفقه الأكبر) أو (الشريعة) أو (العقيدة) أو (التوحيد) قبل أن يتأثر هذا العلم بالمؤثرات الأجنبية التي أثَّرت في (علم الكلام).

والحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبيِّنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) انظر: تفصيل ذلك في كتاب: مقومات التصور الإسلامي: (ص٦٥ / ٦٨).

معالم في الدعاء

أحمد ذو النورين

مقدمة:

لـمَّا كان الدعـاء يعني انطـراح العبد بين يدي اللـه - تعالى - لجـأً وافتقـاراً وعجزاً، وســؤاله له على وجـــه الابتهـال في تقديسٍ وتحميدٍ كان مـــن أبلغ أمـــارات العبودية وأجلِّ درجات العبادة وأشـــرف مستويات القرب؛ لذلك أرشـــد الله - تعالى - إليه عباده ووفَّق له خاصتـــه من خَلْقه، فقال - تعالى -: ﴿ادْعُونِي أَسْـتَجِبْ لَكُـم﴾ [غافـر: ٦٠]، وقال: ﴿وَإِذَا سَـأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّـي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْـوَةَ الـدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. فـــإذا غفل النـاس عن دعائه - جل شأنه - وهجروا مسألته في سـاعات الرخـاء وفترات الغفلـة، والتمسـوا القوة والنصرة والحماية في قوى الأرض الهزيلة، فإنهم حين تُلجئُهم الشـــدة ويضطرهم الكرب، تزول عن فطرهم غشاوة الغفلة، ويرجعون إلى ربهم منيبين مســـتكينين مهما كانت غفلتهم قبل ذلك، وأيّاً كان جبروتهم ومكابرتهـــم. قال - تعالى -: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِـفُ السُّـوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]. إن هذه الآية لتلمس وجدان البشر خاصة المؤمنين منهم وهي تذكِّرهم بخوالج أنفسهم، وواقع أحوالهم. عندما يضطرون في لحظات الكربة والضيق فلا يجدون لهم ملجأً إلا الله فيدعونه ليكشـــف عنهم الضر والسوء؛ ذلك أنه حين تضيق الحَلْقة، وتشتد الخنقة، وتتخاذل القوى، وتتهاوى الأســـناد، وينظر الإنســـان حواليه فيجد نفســـه مجرَّداً من وســـائل النصرة وأسباب الخلاص؛ لا قوته، ولا قوة غيـــره تنجده. بل إن كل ما كان يُعِدُّه لســـاعة الشدة قد زاغ عنه أو تخلَّى؛ وكل من كان يرجوه للكربة قد تنكر لـــه أو تولى. وفي هذه اللحظة لا بد أن تســـتيقظ الفطرة فتلجأ إلى القوة الوحيدة التـــي تملك الغوث والنجدة، فيتجه الإنســـان إلى الله - تعالى - ولو كان قد نســـيه من قَبْلُ في ساعات الرخاء؛ فهو الذي يجيـــب المضطر إذا دعـــاه، وهو وحدَه الذي يجيبه دون ســـواه، وهو وحدَه الذي يكشف عنه الســـوء، ويردُّه إلى الأمن والسلامة، وينجِّيه من الضيقة الآخذة بالخناق[1]. فالخلق كلهم مفتقرون إليه يســـألونه جميع حوائجهم بلسان الحال، أو بلســـان المقال سؤالاً مستمراً، فهو وحدَه الغني - ســـبحانه - بذاته، واســـع الجود والكرم والإحســـان. قال - جلَّت عَظَمَته -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّـاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وفي هذا الإطـار أودُّ أن أميط اللثام عن بعض معالم الدعاء:

المعْلَم الأول: تعظيم الله - تعالى - وإجلاله وخشيته:

(١) انظر: في ظلال القرآن: (٥/ ٢٦٥٨).

ذلك أنه قبل أن تمخر سفينة الداعي عباب الدعاء لا بد أن يستحضر جلالة المدعو وكمال قدرته وعظمة سلطانه؛ فيقدِّم بين يدي دعائه من أصناف تمجيده وحَمْده والثناء عليه بما هو أهله - جلَّت عَظَمَته - ما يهيئ فواتح الإجابة ومقاليد الرحمة؛ فذلك هو المنهج الرباني الذي علَّمنا القرآن إياه؛ ففي سورة الفاتحة - كما في الحديث القدسي - قال الله - تعالى -: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل؛ فإذا قال العبد: «الحمد لله رب العالمين» قال الله - تعالى -: حمدني عبدي، وإذا قال: «الرحمن الرحيم» قال الله - تعالى -: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: «مالك يوم الدين» قال: مجَّدني عبدي: (وقال مرة: فوَّض إليَّ عبدي)، فإذا قال: «إياك نعبد وإياك نستعين» قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧] قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[1].

هكذا علمنا رسولنا الكريم ﷺ كما جاء عن فضالة ابن عبيد - رضي الله عنه - أنه قال: (سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلاً يَدْعُو فِي صَلاَتِهِ لَمْ يُمَجِّدِ اللَّهَ - تَعَالَى - وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجِلَ هَذَا». ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ رَبِّهِ - جَلَّ وَعَزَّ - وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ»)[2].

وكذلك بيَّن النبي ﷺ ذلك المنهج في (سيد الاستغفار) الدعاء الجامع لمعاني التوبة المستهَل بتعظيم الله - تعالى - والثناء عليه بكمال أوصافه - جلَّت عَظَمَته - والمشفوع باعتراف العبد بأضعف حالاته ليبلغ بذلك أقصى غاية التضرع والاستكانة والخضوع لله - جل شأنه - كما جاء في حديث شداد بن أوس - رضي الله عنه -: أن النبي ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرِّ ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. قال: ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»[3].

المعْلَم الثاني: إفراد الله - تعالى - بالدعاء والاستعانة:

لأن الدعاء هو العبادة، والعبادة لا تُصرَف إلا للخالق الرازق، سبحانه. قال - تعالى - مبيناً منهج المؤمنين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: إياك نوحِّد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك. و ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على طاعتك وعلى أمورنا كلها. وقال قتادة: يأمركم ربكم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أموركم كلها[4]. ودعاء غير الله رغم أنه شرك ومذلة فإنه كذلك مناف للفطرة التي فطر الله - تعالى - عباده عليها. يقول - جلَّت عَظَمَته -: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

ثم هو مُهْوٍ في دركات جهنم. يقول - تعالى -: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] فأمر - سبحانه - عباده أن يخلصوا الدعاء له وحدَه، ورتَّب الإجابة على ذلك. وبيَّن سفاهة وظُلمَ من يدعون غيره، فقال - جل ذكره -: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ [الرعد: ١٤]، وقال: ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، وكما جاء في وصية النبي ﷺ لابن عمه عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»[5]؛ فلا مَعدِل عن دعاء الحي القيوم الذي أمر نبيه ﷺ أن يبلِّغ الداعين قربه - جلَّت عَظَمَته - منهم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

لكن الدعاء لا بد فيه من الإخلاص لله - تعالى - وترك مسألة ما سواه من الأنداد، فلا تكون الرغبة في طلب نفع أو دفع ضر إلى أحد غيره، تعالى وتقدس؛ ذلك أن إخلاص الدعاء لله - جلَّت عَظَمَته - من أعظم أنواع العبادة، فوجب إخلاصه له - جل شأنه - فلا يُسأل إلا هو وحدَه. قال - تعالى -: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال - تعالى -: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال - تعالى -: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]؛ فالمؤمن موقن بأنه لا إله يُعبَد بحق إلا الله الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء من نفع وضُرٍّ، وعطاء ومنع، ومَنْ يقينه ذلك يلزم أن يخلص الدعاء له وحدَه في كل رخاء يعيشه وكل شدة تَعرِض له، ويعلم أنه إنما قُدِّر عليه البلاء ليدفعه إلى صدق الالتجاء ويوجهه إلى إخلاص الدعاء حتى يفرِّج عنه كربه ويزيل غمه ويوسع رزقه ويرفعه

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وأنه إذا لم يُحسِن الفاتحة ولا أمكنه تعلُّمها قرأ بما تيسر له من غيرها، ح (٣٩٥)، من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الوتر، باب الدعاء، ح (١٤٨١)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب ما جاء في جامع الدعوات عن النبي - عليه السلام - ح (٣٤٧٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وكذلك صححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار، ح (٦٣٠٦).

(٤) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٧)، ط: دار الفكر.

(٥) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، ح (٢٥١٦)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وكذلك صححه الألباني.

بمصيبته؛ فإنه - سبحانه - المستحق لأن تتعلق به القلوب صدقاً، وتتجه إليه الأفئدة التجاءً قاطعة أملها من الالتفات إلى المخلوقين؛ فاصدُقوا الله - يا رعاكم الله - في إخلاص الدعاء له - جلَّت عَظَمَته - واجتهدوا في إظهار الفاقة والتضرُّع إليه - عز وجل - ينجزْ لكم ما وعدكم من الإجابة، فإنه يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. واستجيبوا لأمره فقد ربط إجابةَ دعاء عباده بالاستجابة لأمره، وأخلصوا له فإن الإخلاص إكسير العمل. يقول الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: «لقد دلَّ قوله - تعالى -: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥] أن الإجابة مشترطة بالإخلاص»[١].

والإخلاص في الدعاء يستوجب الاعتقاد بأن المدعو هو القادر وحدَه على قضاء حاجة السائل، يقول الإمام القرطبي: «فَمِنْ شرط الداعي أن يكون عالماً بأنْ لا قادر على حاجته إلا الله، وأن الوسائط في قبضته ومسخَّرة بتسخيره، وأن يدعو بنيَّة صادقة»[٢].

المعْلَم الثالث: إظهار الذلة والافتقار إلى الله - تعالى - والتضرع والخشوع والرغبة والرهبة والانطراح بين يديه، سبحانه:

قال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥]؛ ذلك أن العبودية هي الافتقار إلى الله ابتداءً... كما أن الاستعانة هي الافتقار إلى الله انتهاءً. والافتقار إلى الله - تعالى - شأنه عظيم؛ إذ هو حقيقة العبودية ولبُّها فلا يسقط الافتقار إلى الله - سبحانه تعالى - عن المؤمنين في الدنيا ولا في الآخرة، بل هم في الآخرة أشد افتقاراً إليه وإن كانوا في دار العز لشوقهم إلى لقائه[٣]. فبالدعاء تُنَال مرضاة رب العالمين وبتركه يكون سخطه، وتلك هي السُّنة كما جاء في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»[٤]. إلا أن ذلك الدعاء لا بد أن يقارنه التضرع إلى الله - تعالى - وإظهار الضعف والحاجة إليه - سبحانه - ويلازمه التوكل والاستعانة به - جل شأنه - فيكتمل الاعتماد بالقلب عليه - جلَّت عَظَمَته - وتتم الثقة به في حصول المحبوبات واندفاع المكروهات ولا يتسنى ذلك إلا حين يعلم الداعي حاجته المطلقة وضرورته التامة إلى الله وحدَه؛ فالمؤمنون حقاً إنما يكون توكُّلهم عَلَى الله، لاَ يَرْجُونَ سِوَاهُ، وَلاَ يَلُوذُونَ إِلاَّ بِجَنابِهِ، وَلاَ يَسْأَلُونَ غَيْرَهُ ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك لا شريك له، ولا معقِّب لحكمه، وهو سريع الحساب[٥]. وعن الحسن قال: إذا أصاب الناسَ من قِبَل السلطان بلاء، فإنما هي نقمة فلا تستقبلوا نقمة الله بالحميَّة. ولكن استقبلوها بالاستغفار وتضرعوا إلى الله. وقرأ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦][٦].

إن معرفة الله - سبحانه وتعالى - بأسمائه الحسنى مما يزيد الإيمان،

المعْلَم الرابع: الدعاء بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا:

إن معرفة الله - سبحانه وتعالى - بأسمائه الحسنى مما يزيد الإيمان، كما قال الشيخ السعدي - رحمه الله -: «إنَّ الإيمان بأسماء الله الحسنى، ومعرفتها يتضمَّن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع هي رَوْح الإيمان ورُوحُه، وأصله وغايته؛ فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته ازداد إيمانه وقوي يقينه»[٧]. ومنهج النبي ﷺ في الدعاء استهلاله بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ حُزْنٌ: اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ؛ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ بَصَرِي وَجِلاَءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي إِلا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحاً. قَالُوا: يَا رسول الله! يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَمَ هذِهِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: أَجَلْ! يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَمَهُنَّ»[٨]. فعلى السائل إذا أراد سؤال الله - تعالى - أن ينظر الاسم المناسب لمسألته وليتوسل به إليه، سبحانه؛ فإذا كان فقيراً فَلْيفتتح دعاءه بسؤال الرزاق والكريم. وإذا كان يطلب المغفرة فعليه أن يقول: يا غفار يا رحيم... وهكذا.

كما جاء في حديث أم المؤمنين عائشة - رضي الله

---

(١) انظر: فتح الباري تعليق ابن باز: (١١/ ٩٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٢/ ٣١١).
(٣) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي: (٨/ ٥٥).
(٤) هكذا عنون البخاري في أدبه المفرد: باب من لم يسأل الله يغضب عليه، ص: ٢٢٩، والحديث أخرجه الإمام الترمذي، كتاب الدعوات، باب منه، ح (٣٣٧٣)، وحسنه الألباني في تعليقه عليه.
(٥) انظر: تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٤٩)، ط. دار الفكر.
(٦) المحرر الوجيز لابن عطية: (٤/ ١٨٥)، ط: دار الكتب العلمية.
(٧) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان للشيخ السعدي، ص٤١.
(٨) أخرجه الإمام أحمد، مسند عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - ح (٣٧١٢)، والحاكم في مستدركه، ح (١٨٧٧)، وقال: (هذا حديث صحيح على شرط مسلم إن سَلِم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه؛ فإنه مختلف في سماعه عن أبيه)، وابن حبان في صحيحه، ح (٩٧٢)، وقال عنه شعيب الأرنؤوط: (إسناده صحيح).

تعالى عنها – حينما سمعت ذكر النبي ﷺ لفضل ليلة القدر أنها قالت: قلت: يا رسول الله! أرأيت إن علمت أي ليلة ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفوٌّ تحب العفو فاعفُ عني!»[1]؛ أي: من صفاتك العفو، وأنت تحب العفو، وتحب من يعفو عمَّن ظَلَمه؛ فأسألك بما تحبه، وما أنت متصف به أن تعفوَ عني؛ فالسؤال يكون بذكر الصفة التي يتصف بها الله – سبحانه وتعالى – والتي يحبها في عباده[2].

ذلك أن من عرف اللَّه – عزَّ وجلَّ – بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا، علم أنه بالكمال موصوف، وبالإحسان والجمال والجلال معروف، وعرف أن الطبيعة البشرية مبناها على النقص ومنشؤها على العيب، إلا أن يحوطها الله – عز وجل – بكمال الإيمان وصالح الأعمال، فيورث لها ذلك عبودية صادقة.

المعْلَم الخامس: حُسْن الظن بالله – جلَّت عَظَمَته – عند قرع أبوابه:

وذلك بالبعد عن اليأس والقنوط والتسخط، والإيمان بأنه – تعالى – أرحم الراحمين وقد سبقت رحمته غضبه، كما جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الْخَلْقَ كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[3]. فكل قضاء قضاه الله – سبحانه وتعالى – للمؤمن فهو خير له، كما جاء في حديث صهيب – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبت من قضاء الله للمؤمن! إن أمر المؤمن كله خير، وليس ذلك إلا للمؤمن: إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له»[4].

فحُسْن الظن بالله – تعالى – من حُسْن العبادة، والعبد يعامله الله – تعالى – على مستوى ظنه به – جلَّت عَظَمَته – كما جاء في الحديث القدسي؛ إذ يقول – تعالى –: «أنا عند ظن عبدي بي»[5]. وعلى عكسه سوء الظن بالله – جل شأنه – الذي هو صفة ملازمة للنفاق، كما جاء في وصف الله – تعالى – للمنافقين؛ حيث قال: ﴿ **وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً** ﴾ [الفتح: ٦]. يقول ابن عمر – رضي الله عنهما –: «أكبر الكبائر سوء الظن بالله، عز وجل»[6]، وقال الإمام المناوي معرفاً سوء الظن بالله – تعالى –: «أن يظنَّ أنه ليس حسبه في كل أموره، وأنه لا يعطف عليه، ولا يرحمه، ولا يعافيه؛ لأن ذلك يؤدِّي إلى القنوط: ﴿ **وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ** ﴾ [**فصلت** : ٢٣] و ﴿ **لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [**يوسف** : ٨٧]»[7].

فسوء الظن بالله – جلَّت عَظَمَته – يعد أكبر الكبائر الاعتقادية بعد الكفر، ولكن يلزم التنبيه إلى أنه: كما يجب على العبد إحسان الظن بربه، فإنه يجب عليه أن يخاف عقابه، ويخشى عذابه، ويعلم أن طريق السلامة بين طريقي الرجاء والخوف؛ فإذا علم العبد سعة رحمة الله – سبحانه وتعالى – وأيقن بحلمه ورحمته ومنِّه وفضله، أحس أنه بخير فلم يقنط ولم ييأس. فرحمته ومغفرته وسعت بغيّاً من بغايا بني إسرائيل حين رأت كلباً يلهث عطشاً فَرَحِمَته فملأت خُفَّها وسقته، فشكر الله لها فغفر لها ذنوبها، كما جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ»[8]. ورحمته ومغفرته هي التي شملت رجلاً بعدما زحزح غصن شوك عن طريق الناس، كما جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَه»[9]. إنه الرب الكريم الحليم الرحيم، فليس للعبد مثل حُسْن الظن به، جَلَّ جَلالُهُ؛ فمن أيقن أنه قادر على مغفرة الذنوب غفر له.

المعْلَم السادس: الجزم في الدعاء واليقين بالإجابة والعزم في المسألة:

جاء في حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللهم اغفر لي إن شئت! اللهم ارحمني إن شئت! ولكن ليعزم المسألة، وليعظم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»[10]. وعليه فإنه يجب الجزم في الدعاء وعدم تعليقه بالمشيئة؛ لأن ذلك يُشعر بعدم اهتمام الداعي بالمطلوب وضعف افتقاره إلى الله، تعالى. وذلك من سوء الأدب مع رب العالمين؛ الذي لا بد من الإيمان بكمال

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب، ح (٣٥١٣)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح). قال الشيخ الألباني في تعليقه عليه: (صحيح).
(٢) شرح بلوغ المرام للشيخ عطية محمد سالم، الدرس (١٠٩).
(٣) البخاري، كتاب التوحيد، باب «وكان عرشه على الماء» (هود:٧)، ح (٧٤٢٢)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله – تعالى – وأنها سبقت غضبه، ح (٢٧٥١)
(٤) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٩٢٤)، وعلق عليه شعيب الأرنؤوط بقوله: «إسناده صحيح على شرط مسلم».
(٥) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله – تعالى –: «ويحذركم الله نفسه» (آل عمران:٢٨)، ح (٧٤٠٥)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله، تعالى، ح (٢٦٧٥).
(٦) تفسير ابن كثير: (١/ ٥٩٩).
(٧) التيسير بشرح الجامع الصغير: (١/ ٣٩٧).
(٨) البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب، ح (٣٤٦٧)، ومسلم، كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها، ح (٢٢٤٥).
(٩) البخاري، كتاب الأذان، باب فضل التهجير إلى الظهر، ح (٦٥٢)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب بيان الشهداء، ح (١٩١٤).
(١٠) البخاري، كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة، ح (٦٣٣٩)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب العزم بالدعاء، ح (٢٦٧٩)

غناه عن جميع خلقه، وكمال جوده وكرمه؛ فاللائق بمن سأل الله - عز وجل - أن يعزم مسألته، وتكمل ثقته بربه - جل وعلا - في حصول الإجابة، كما جاء في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ»[1]. لقد كانت ثقة السلف بموعود الله - تعالى - لا تتزعزع، وتطبيقهم لسُنة النبي ﷺ لا يعتريه، تخلٌ، ومسارعتهم إلى تنفيذ أوامره لا يناله كسل؛ ولهذا استجيبت دعواتهم، لقد أصغوا بقلوبهم قبل آذانهم لقول الصادق المصدوق ﷺ: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيَعْزِمْ الْمَسْأَلَةَ وَلَا يَقُولَنَّ اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي؛ فَإِنَّهُ لَا مُسْتَكْرِهَ لَهُ»[2].

المعْلَم السابع: الاعتراف بالذنب والاستغفار منه:

جاء في حديث عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه»[3].

ولقد أجاد أبو سعيد أحمد بن محمد الزبيري حين قال:

يستوجب العفوَ الفتى إذا اعترفْ
بما جنى من الذنوبِ واقترفْ
لقوله - سبحانه - في المعترِف:
إن ينتهوا يُغفَرْ لهم ما قد سلفْ[4]

فالتوبة واجبة من كل ذنب، ودليلها الاستغفار بعد الاعتراف بالذنب وتركه والندم على فعله؛ ذلك أنها الرجوع من المخالفة إلى المتابعة، ومن المعصية إلى الطاعة، والعزم على عدم العود وردِّ المظالم إن كانت؛ فتلك شروط التوبة النصوح التي لا بد أن تُستهَلَّ بالاعتراف بالذنب مقروناً بالانكسار والإكثار من التضرع والاستغفار، وملازمة الإحسان لمحو ما تقدَّم من الأوزار.

ومن الجدير بالإشارة إليه أن مجرد الاعتراف بالذنب لا يكون توبة إلا إذا اقترن ذلك الاعتراف بالندم على الماضي من الذنب والعزم على تركه في المستقبل؛ إذ الاستغفار مع الإصرار توبة الكذابين، وكيف يدعي التوبة من يصر على ذنبه؟ ألم يعلم أن المُصِرَّ لا يكون تائباً أبداً، والتوبة والإصرار ضدان؟

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، ح (٣٤٧٩)، وحسنه الألباني في تعليقه عليه.
(٢) البخاري، كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له، ح (٦٣٣٨)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت، ح (٢٦٧٨).
(٣) البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، ح (٢٦٦١)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، ح (٢٧٧٠).
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٤٠١).

إن ثمرة الاعتراف بالذنب للملك الديان تكمن في أنه لا يكون إلا عن إقرار بسيادته؛ فعلى العبد أن يعترف بالذنب ويُقِرَّ بالخطيئة ليحوز من كمال العبودية لله - سبحانه - ما يدعو إلى قبول دعائه، ولقد تعاضدت الآيات والأحاديث على فضل تقديم الاعتراف بالذنب بين يدي الدعاء، ومن ذلك ما جاء عن الصديق - رضي الله عنه - أنه قال لرسول الله ﷺ: علمني دعاءً أدعو به في صلاتي. فقال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[5].

فالله - تعالى - يحب الإلحاح في الدعاء لما فيه من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار له، جل شأنه. ومن يُكثِر قَرْعَ الباب يوشك أن يُفتَح له

المعْلَم الثامن: الإلحاح في الدعاء زمن الشدة والرخاء وعدم الاستعجال وتحرِّي أوقات الإجابة:

إن الدعاء لب العبادة كما في حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»[6]. فعلى المسلم أن يُلِحَّ في سؤاله لربه، وأن يكثر من الدعاء؛ إذ على الرغم من أن الله - تعالى - قد قدر المقادير إلا أنه جعل كثرة الإلحاح في الدعاء من أسباب تيسير اليسرى وتجنيب العسرى، وقد ثبت ذلك من فعل النبي ﷺ، كما جاء في حديث عبد الله ابْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثاً، وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلَاثاً»[7]. قال النووي - رحمه الله -: «فيه: اسْتِحْبَاب تَكْرِير الدُّعَاء ثَلَاثاً. وَقَوْله: (وَإِذَا سَأَلَ) هُوَ الدُّعَاء، لَكِنْ عَطَفَهُ لاخْتِلَاف اللَّفْظ تَوْكِيداً».

وقال البخاري - رحمه الله -: «بَاب تَكْرِير الدُّعَاء، ثم ذَكَرَ فِيهِ حَدِيث عَائِشَة - رضي الله عنها - أَنَّ النَّبِيّ ﷺ دعا الله - تعالى - وكَرَّرَ الدعاء لما سحره لبيد بن الأعصم اليهودي. قالت عائشة: حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ دَعَا ثُمَّ دَعَا...»[8]؛ ذلك أن الإلحاح في الدعاء والتضرع فيه مما يُستَدفَع به البلاء، وتُستنزَل به الرحمة. ولا يخفى أن الحق - تعالى - يحب من عباده الإلحاح في الدعاء؛ لأنه معبِّر

(٥) البخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، ح (٨٣٤)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، ح (٢٧٠٥).
(٦) أخرجه أبو داود، كتاب الوتر، باب الدعاء، ح (١٤٧٩)، وابن ماجه، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، ح (٣٨٢٨)، والترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة البقرة، ح (٢٩٦٩)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وكذلك صححه الألباني في تعليقه على السنن.
(٧) أخرجه الإمام مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، ح (١٧٩٤).
(٨) البخاري، كتاب الطب، باب السحر، ح (٥٧٦٣)، ومسلم، كتاب السلام، باب السحر، ح (٢١٨٩).

عن شـــدة الفاقة وذلة الحاجة، ويَعِدُهم عليه - جلَّت عَظَمَته - بحُسْنِ الإجابة، كما جاء في حديث أنس - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «ألِظُّوا (أي ألَحُّـــوا) بيا ذا الجلال والإكرام»[1]. والمقصـــود الإلحاح في الدعاء بهذا الاســـم؛ وذلك من الإقبال على الله - تعالى - والإلحاح عليه في الدعاء ولزومه والمواظبة عليه.

واعلـــم - رعاك الله تعالـــى - أنَّ الْعَبْدَ إِذَا دَعَـــا لَمْ يَزَلِ اللَّـــهُ - تَبَارَكَ وَ تَعَالَى - فِي حَاجَتِهِ مَا لَمْ يَسْـــتَعْجِلْ، يقول ابن عطـــاء الله: «لا يكن تأخرُ أمدِ العطـــاءِ مع الإلحاحِ في الدعاء موجباً ليأســـك، فقد ضمن لك الإجابة فيما يختار لك لا فيما تختار أنت لنفســـك، وفـــي الوقت الذي يريـــد، لا في الوقت الـــذي تريد»[2]. وقال ابن القيم: «ومن أنفع الأدوية الإلحاح في الدعاء»[3]؛ فمواصلة الإلحاح في مسألة الله - تعالى - من غير استعجال ولا ســـأم من أجلِّ درجات العبودية. يقول ابن القيم: «ومن الآفات التي تمنع ترتُّب أثر الدعاء عليه أن يستعجل العبد ويســـتبطئ الإجابة، فيستحســـر ويدع الدعاء، وهو بمنزلة من بذر بذراً أو غرس غرساً، فجعل يتعاهده ويسقيه، فلما استبطأ كمالـــه وإدراكه تركه وأهمله»[4]. كما جاء في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رســـول الله ﷺ قال: «يستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَل؛ يقول: دعوت فلم يستجب لي»[5]. وفي لفظ لمسلم: «لا يزال يستجاب للعبد ما لـم يدعُ بإثم أو قطيعـة رحـم ما لـم يستعجل. قيل: يا رسول الله! ما الاستعجال؟ قال: «يقول: قد دعوت وقد دعوت فلم أرَ الله يســـتجيب لي، فيستحســـر عند ذاك ويـــدع الدعـــاء». وجاء أيضـــاً مـــن حديث أنـــس - رضـــي اللـه عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال العبد بخير ما لم يســـتعجل. قالوا: يا رسول الله! كيف يستعجل؟ قال: يقول: قد دعوت ربي فلم يستجب لي»[6].

فالله - تعالى - يحب الإلحاح في الدعاء لما فيه من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار له، جل شأنه. ومن يُكثِر قَرْع الباب يوشـــك أن يُفتَح له. وينبغي أن لا يكون إلحاح المســـلم على ربه في الرخاء أقل من إلحاحه في الشـــدائد، كما جاء في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رســـول الله ﷺ: «من سرَّه أن يســـتجيب الله له عند الشدائد والكرب فَلْيُكثر الدعاء فـــي الرخـــاء»[7]. وكما جـــاء في حديث ابن عبـــاس - رضي الله عنهمـــا - أن النبي ﷺ وصَّاه قائلاً: «تعـــرَّف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة»[8].

المعْلَم التاسع: أن يكون المطعم والمشرب والملبس من حلالٍ:

وفـــي ذلك لا بد مـــن الحرص على أن يكـــون المطعم من حلال، وكذلك المشـــرب والملبس وما شابهه؛ لأن المآكل الحرام ســـبب لحجب الدعاء وعدم الإجابة، كمـــا جاء في حديث أبي هريـــرة - رضي الله عنه - أن النبـــي ﷺ ذكر: «الرجل يطيل الســـفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يقول: يا ربِّ يا ربِّ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْـــرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُـــهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟»[9]. فعدم إطابة المطعم وحِلِّية المآكل مانع من اســـتجابة الدعاء، وحاجب عن رفعه إلى الله، وكفى بذلك وبالاً وخســـراناً على صاحبه، نعوذ بالله من شـــر غضبه. فإذا ضمن العبد ســـلامة تكوينه بلقمة الحلال ضمن إجابة الدعاء؛ ذلـــك أن طِيبَ المطعـــم من لوازم إجابة الدعـــاء. قال إبراهيم بـــن أدهم: «أطب مطعمك ولا عليـــك أن لا تقوم بالليل وتصوم بالنهار»[10]، فأكل الحلال وشربه ولبسه والتغذي به سبب موجبٌ لإجابـــة الدعاء؛ رغم أنه من أصعب ما يمكن تحصيله في هذا الزمن الذي عمَّت الربويات والمحرمات معاملات أهله، مصداقاً لخبر الصادق المصدوق، كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه؛ أمن الحلال أم من الحرام؟»[11]. وكما جاء في حديث جابر - رضي الله عنهما - أن رســـول الله ﷺ قال: «لا تســـتبطئوا الرزق، فإنه لم يكن عبد ليموت حتى يبلغ آخر رزق هو له، فأجملوا في الطلب: أخذ الحلال، وترك الحرام»[12].

فإذا اقتصر المســـلم على الحلال الذي لم تخالطه أدناس حرام جعل الله - تعالى - دعاءه مســـتجاباً، فإن دعاه لتوسيع رزق رزقه، وإن دعاه لكشـــف ضر كشـــفه؛ فإن الداعي بجسم غذي بالحلال حري بالاستجابة.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، ح (٣٥٢٥)، وصححه الألباني في تعليقه عليه، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده: (١٧٥٩٦)، وصححه الأرنؤوط في تعليقه عليه.
(٢) البحر المديد للإدريسي: (٣، ١٨٢)، ط: دار الكتب العلمية.
(٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص٤.
(٤) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص١٠.
(٥) البخاري، كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل، ح (٦٣٤٠)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول: دعوت فلم يستجب لي، ح (٢٧٣٥).
(٦) رواه الإمام أحمد: (١٣٠٠٨)، وعلق عليه شعيب الأرنؤوط بقوله: «صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن في الشواهد»، وكذلك رواه أبو يعلى في مسنده: (٢٨٦٥)، وقال حسين سليم أسد في تعليقه عليه: «إسناده حسن».
(٧) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ماجاء أن دعوة المسلم مستجابة، ح (٣٣٨٢)، وحسنه الألباني في تعليقه عليه، وكذلك أخرجه أبو يعلى في مسنده: (٦٣٩٧)، وحسن إسناده حسين سليم أسد في تعليقه عليه.
(٨) رواه الإمام أحمد في مسنده: (٢٨٠٣)، وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه عليه.
(٩) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، ح (١٠١٥).
(١٠) حلية الأولياء لأبي نعيم: (٨/ ٣١).
(١١) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب من لم يبال من حيث كسب المال، ح (٢٠٥٩).
(١٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢١٣٤)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، و شاهده عن أبي الزبير عن جابر صحيح على شرط مسلم، وعلق عليه الذهبي في التلخيص بقوله: «على شرط البخاري ومسلم»، وكذلك صححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٢٦٠٧).

أكْلُ الحلال وحلاوةُ المناجاة

د. عبدالعزيز بن محمد آل عبداللطيف(*)
www.alabdulltif.net

يقال: إن الحَجَّاج بن يوسف لما ولي العراق، وكان أهله لا يتولى عليهم أحد يشوش عليهم إلا هلك سريعاً بدعائهم عليه، فأمرهم الحجاج أن يأتي كلُّ واحد منهم ببيضة دجاجة، ويضعها في صحن الجامع، وأراهم أن له بذلك ضرورة، فاستخفوا ذلك منه ففعلوا، ثم أمرهم بعد ذلك أن يأخذ كل واحد عين بيضته، وأراهم أن قد بدا له الرجوع عمَّا أراده، فلما أخذوا ذلك لم يعلم كل واحد منهم عين بيضته، فلما علم الحجاج أنهم تصرفوا في ذلك مدَّ يده إليهم، فدعَوا عليه على عادتهم فمُنِعوا الإجابة(١).

قال ابن الحاج (ت ٧٣٧هـ) معلقاً على تلك الحادثة -: «ولأجل هذا المعنى كَثُرت المظالم اليوم، وكثر الدعاء على فاعلها وقلَّت الإجابة أو عدمت... فلو سلم بعضهم من مثل هذه الحال، ودعا لاستجيب له عاجلاً»(٢).

ولقد احتفى أهل السُّنة بأكل الحلال تقريراً وتحقيقاً، حتى أثبتوه في عقائدهم. يقول الفضيل بن عياض: «إن لله عباداً يحيي بهم البلاد والعباد، وهم أصحاب سنَّة، من كان يعقل ما يدخل جوفه من حِلِّه كان في حزب الله، تعالى»(٣).

قال ابن رجب معلقاً على عبارة الفضيل: «وذلك لأن أكل الحلال من أعظم الخصال التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه»(٤).

ووصف شيخ الإسلام الصابوني أهل الحديث والسُّنة أنهم يتواصون بالتعفف في المآكل والمشارب والمنكح والملبس، وكذا قرره قِوام السُّنة الأصفهاني(٥).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله

(*) أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

(١) انظر: المدخل، لابن الحاج: ٢/ ٣٥٥.

(٢) المدخل: ٢/ ٣٥٥.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ٨/ ١٠٤.

(٤) كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة: ص ٢.

(٥) انظر: عقيدة السلف للصابوني: ص ٢٩٧، والحجة للأصفهاني: ٢/ ٥٢٨.

ﷺ: «إن اللـــه طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله - تعالى - أمر المؤمنين بما أمر به المرســـلين، فقال: «﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُـلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَـاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا ربِّ يا ربِّ! ومطعمه حرام، ومشـــربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي الحرام، فأنَّى يستجاب لذلك؟»[١].

ومن شـــروحات ابن رجب لهذا الحديث قوله: «مِنْ أعظم مـــا يحصل به طيبة الأعمال للمؤمن طيب مطعمه، وأن يكون من حـــلال، فبذلك يزكو عمله... وفي الحديث إشـــارة إلى أنـــه لا يُقبَل العمل ولا يزكو إلا بأكل الحلال، وأن أكل الحرام يفسد العمل، ويمنع قبوله... فالرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التـــي هي الحلال، وبالعمـــل الصالح؛ فما دام الأكل حلالاً، فالعمل صالح مقبول، فإذا كان الأكل غير حلال، فكيف يكون العمل مقبولاً؟»[٢].

والمقصود أن على الداعي أن يتحرى أكل الحلال، ويتورَّع في مطعمه ومشـــربه؛ فإن هذا من آكد آداب الدعاء، بل هو من شروط الدعاء المستجاب[٣].

إن من أجـــلِّ آداب الدعـــاء: إظهارُ الافتقـــار إلى الله، والانطراح والانكســـار بين يديه، ســـبحانه. وكما قال ســـهل التســـتري: «ليس بين العبد وبين ربه طريـــق أقرب إليه من الافتقار»[٤].

وكلما ازداد الشخص عبودية وافتقاراً إلى الله، ازداد كماله وعَلَت درجته؛ فأكرم ما يكون العبد على الربِّ - سبحانه - أحوج ما يكون إليه، وأما الخلق فأهون ما يكون عليهم الشخص أحوج ما يكون إليهم[٥].

فمن أعرض عن الدعاء والافتقار والإلحاح على الله، فإنه يشـــتغل بمســـألة الناس، ويُقْبِل على التذلل لهم... فيرتكب ثلاث مفاسد: مفســـدة الافتقار إلى غير الله، ومفسدة إيذاء المسؤول، ومفسدة امتهانه لنفسه، وذله لغير الله[٦].

قال ابن تيمية: «وقد جرَّب الناس أن من لم يكن سائلاً لله سأل خلقه، فإن النفس مضطرة إلى من يُحصِّل لها ما ينفعها، ويدفـــع عنها ما يضرها؛ فإن لم تطلب ذلك من الله طلبته من غيره»[٧].

وهذ حال بعض شـــيوخ الصوفية الذيـــن يتركون الدعاء استكباراً وغروراً، ويدَّعون الاستغناء عن اللجأ إلى الله - عز وجل - ثم آخر حالهـــم يعكفون على أبواب الظَلَمة، ويقتاتون من مكاسب خبيثة.

وقد وصف ابن تيمية أولئك الشيوخ بقوله: «هكذا شيوخ الدعاوى والشـــطح، يدَّعي أحدهم الإلهية، وما هو أعظم من النبوة، ويعزل الربَّ عن ربوبيته، والنبيَّ عن رسالته، ثم آخرته شـــحَّاذ يطلب ما يقيته، أو خائف يســـتعين بظالم على دفع مظلمته، فيفتقر إلى لقمة، ويخاف من كلمة؛ فأين هذا الفقر والذل من دعوى الربوبية المتضمنة للغنى والعزِّ؟»[٨].

وفي غمرة الغفلات المتتابعة، وحظوظ النفس المتشـــعبة، وصخب الحياة الجســـدية، فإن النفـــس لا تنفك عن الجهل والظلم، وحينئذٍ يعتدُّ الأشـــخاص بقدراتهم، ومواهبهم التي امتن الله بهـــا عليهم، ويركنون إلى حولهـــم وقوَّتهم، ويدَّعي أحدهم بلسان الحال أو المقال أنه «العملاق» أو «سوبر مان».

بل إن اعتداد الشخص وثقته بنفسه وطاقته بعُجَرها وبُجَرها قد اســـتحوذ على فئام من الدعاة، فلا تكاد تخطئ عينك كثرة الدورات والندوات في هذا الشـــأن؛ وغرق القوم في الالتفات والاعتماد على الأســـباب الظاهرة المحسوسة، بل تجاوزوه إلى تعلُّق بأسباب مثالية موهومة. وأعقب ذلك ما نكابده من ضعف الأحوال الإيمـــانية: من الإخبات والخشـــوع والإنابة إلى الله - تعالى - بل ربما غاب ما يتعين استصحابه من فقرنا وفاقتنا، وضعفنا ومسكنتنا، وعجزنا وتفريطنا في جنب الله.

والناظر إلى الأئمة الأعلام لدى أهل الإســـلام والسُّـــنة، وســـيرهم وأحوالهم، لا تـــكاد تجدهـــم إلا أصحاب إخبات وانطراح بين يدي الله - تعالى - واعتراف بالذنب والتقصير، ويقين بالفاقة إلى الغني الحميد، ســـبحانه. فرحمة اللهِ على تلك الأرواح، لم يبقَ منهم إلا الأشباح.

وقدوتهـــم في ذلك رســـول الله ﷺ الذي كان يقول: «ســـيد الاستغفار: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما اســـتطعت، أعوذ بك من شـــر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب

(١) أخرجه مسلم.
(٢) جامع العلوم والحكم: ١/ ٢٦٠ = باختصار.
(٣) انظر: الدعاء ومنزلته من العقيدة لجيلان العروسي: ١/ ١٨٣.
(٤) انظر: مجموع الفتاوى: ١٠/ ١٠٨.
(٥) انظر: العبودية لابن تيمية: ص ٨٠، وقاعدة في توحيد الألوهية لابن تيمية.
(٦) انظر: قاعدة جليلة في التوسل: ص ٦٦.
(٧) الرد على الشاذلي: ص ١١.
(٨) منهاج السُّنة النبوية: ٧/ ٢٠٩.

إلا أنت»[1].

وروي عنه ﷺ أنه قال: «اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، والوجل المشفق، المقرُّ بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، مَنْ خضعت لك رقبته، وذلَّ لك جسده، ورغم لك أنفه، اللهم لا تجعلني بدعائك ربي شقياً، وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين! يا خير المعطين!»[2].

ويبدو أن ثمة تلازماً بين أكل الحلال، وحلاوة المناجاة لله - تعالى - ولذَّة الأنس والافتقار إليه، عز وجل. وقد قرر الحافظ ابن كثير - في تفسيره - أن أكل الحلال عونٌ على العمل عند تفسيره لقوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وأشار ابن الجوزي إلى ذلك التلازم في إحدى خواطره، فقال: «وربما رأى العاصي سلامة بدنه وماله، فظن أن لا عقوبة. وغفلته عمَّا عوقب به عقوبةٌ. وربما كان العقاب العاجل معنوياً، كما قال بعض أحبار بني إسرائيل: «يا رب كم أعصيك ولا تعاقبني!» فقيل له: «كم أعاقبك ولا تدري؛ أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي؟»».

فمن تأمَّل هذا الجنس من المعاقبة وَجَده بالمرصاد، فربَّ شخص أطلق بصره فَحُرِم اعتبار بصيرته، أو لسانَه فحرم صفاء قلبه، أو آثر شبهة في مطعمه، فأظلم سِرُّه، وحُرِم قيام الليل وحلاوة المناجاة... إلى غير ذلك، وهذا أمر يعرفه أهل محاسبة النفوس.

ولقد رأينا مَنْ سامح نفسه بما يمنع منه الشرع، طلباً للراحة العاجلة، فانقلبت أحواله إلى التنغص العاجل، وعكست عليه المقاصد»[3].

وقد كابد ابن الجوزي شيئاً من عوارض حلاوة المناجاة ومكدِّراتها. ثم إن الله تداركه برحمته ولطفه؛ ولقد حكى هذه المعاناة بأسلوب بديع، فقال: «كنت في بداية الصبوة قد أُلهمت سلوك طريق الزهَّاد، بإدامة الصوم والصلاة، وحُببت إليَّ الخلوة، فكنت أجد قلباً طيباً، وكانت عين بصيرتي قوية الحِدَّة تتأسف على لحظة تمضي في غير طاعة، وتُبادِر الوقت في اغتنام الطاعات، ولي نوع أنس وحلاوة مناجاة، فانتهى الأمر إلى أن صار بعض ولاة الأمور يستحسن كلامي، فأمالني إليه فمال الطبع ففقدتُ تلك الحلاوة، ثم استمالني آخر، فكنت أتقي مخالطته ومطاعمه، لخوف الشبهات، وكانت حالتي قريبة، ثم جاء التأويل فانبسطتُ، فقدم ما كنت أجد[4]، وصارتْ المخالطة توجب ظلمة القلب إلى أن عُدِم النور كله، فكان حنيني إلى ما ضاع منِّي يوجب انزعاج أهل المجلس[5]، فيتوبون ويصلحون، وأخرج مفلساً فيما بيني وبين حالي[6]، وكَثُر ضجيجي من مرضي، وعجزتُ عن طب نفسي. فاجتذبني لطف مولاي بي إلى الخلوة على كراهة مني، وردَّ قلبي عليَّ بعد نفوره مني، فأفقتُ من مرض غفلتي، وقلت في مناجاة خلوتي: سيدي كيف أقدر على شكرك؟ وبأي لسان أنطق بمدحك؛ إذ لم تؤاخذني على غفلتي، ونبهتني من رقدتي، وأصلحتَ حالي على كره من طبعي؟ فما أربحني فيما سُلب مني؛ إذ كانت ثمرته اللجأ إليك! وما أوفر جمعي؛ إذ ثمرته إقبالي على الخلوة! وما أغناني؛ إذ أفقرتني إليك، وما آنسني؛ إذ أوحشتني من خلقك، آهٍ على زمان ضاع في غير خدمتك! أسفاً لوقت مضى في غير طاعتك!»[7].

وأختم هذه السطور بطرف من مناجاة أبي الحسن الكانشي (ت ٣٤٧هـ)، الذي عُرِف بالعلم والورع، ورقَّة القلب ومجانبة أهل الأهواء؛ فقد حكي عنه أنه قام ليلة فقرأ سورة الإسراء حتى ختم المصحف، ثم أخذ في البكاء وقال:

أتراك بعد الدرس للقرآن تحرقني؟
يا ليتني أُدرِجتُ قبل الذنب في الكفنِ

ثم عاد إلى البكاء حتى طلع الفجر، ثم أقبل يقول: (وعزتك وجلالك! ما عصيتك استخفافاً بحقك، ولا جحوداً لربوبيتك، لكني حضرني جهلي، وغاب عني علمي، واستفزني عدوي، وإنِّي عليها - يا إلهي - لنادم)[8].

ومن مناجاته: (أرني من أطاعه فأضاعه، أرني من قصده فخيَّبه، أرني من توكَّل عليه فأضاعه. إذن لا تراه أبداً)[9].

(١) أخرجه البخاري.
(٢) أخرجه ابن عساكر في معجم الشيوخ: ٢/٩٤٨.
(٣) صيد الخاطر: ٧٢، ٧٣ = باختصار.
(٤) لعله يعني أنه فقد ما يجده من حلاوة المناجاة والأنس بالله.
(٥) لعل مقصوده أن حنينه وندمه على فقدان هذه المناجاة أورث أهل مجلس وعظه وتذكيره قلقاً وخوفاً من الله، تعالى.
(٦) الأحوال هي ما تتعلق بالأعمال القلبية. فالحال ها هنا هو القلب.
(٧) صيد الخاطر: ص ٩٢، ٩٣ = باختصار.
(٨) انظر ترتيب المدارك: ١/٦١، ٦٤.
(٩) انظر ترتيب المدارك: ١/٦١، ٦٤.

وقفة بباب الرحمن

الحسين الورزاني

مُثْقَلاً بالذنوبِ جئتُك ربِّي ... كاسِفَ البالِ، طارقاً خيرَ بابِ
وبقلبي نُدُوب أيامِ سوءٍ ... كنتُ فيها مَغَرَّراً بِسَرابِ
أقطفُ السيئاتِ غيرَ مُبالٍ ... بوَعيدٍ مُروِّعٍ وحِسابِ
وإمامي الهوى، ونفسي دليلي ... واللعينِ المَريدُ خيرُ صِحابي
جئتُ مستعتِباً وحولي خطايا ... حاصرتني، وطامِعاً في مَتابِ
أترجَّى السَّماحَ من خيرِ سمحٍ ... أسأل الصفحَ قبلَ يومِ الإيابِ
قبلَ أهوالِ مَحشرٍ، وخطوبٍ ... تَدَعُ المرءَ صارِخاً: واشبابي!
لَهْفَ نفسي على سنينَ تَوَلَّتْ ... وهي حُبلى بما يسوءُ مَآبي
لَهفَ نفسي على ليالٍ تَقضَّتْ ... في سُباتٍ، فما أَطَمَّ مُصابي!
ربِّ فاغفر فما لِعَبدٍ مُسيءٍ ... غيرُ رُحماكَ، يا أعزَّ جَنابِ!
واعفُ عفواً مُجرِّفاً لِذنوبٍ ... هيَ مِني كما ترى في كتابي
أَحدَقَت بي، وأوجمتني؛ فما لي ... غيرُ إشفاقِ صارفٍ لِعذابِ
غافرِ الذنبِ، قابلِ التوبِ ذي الطَّو ... لِ وذي الجودِ، مُجزِلٍ لِثوابِ

قراءة في كتاب:

المراحل الثمان لطالب فهم القرآن

أحمد رمضان مقرم النهدي(*)
rmdan402@hotmail.com

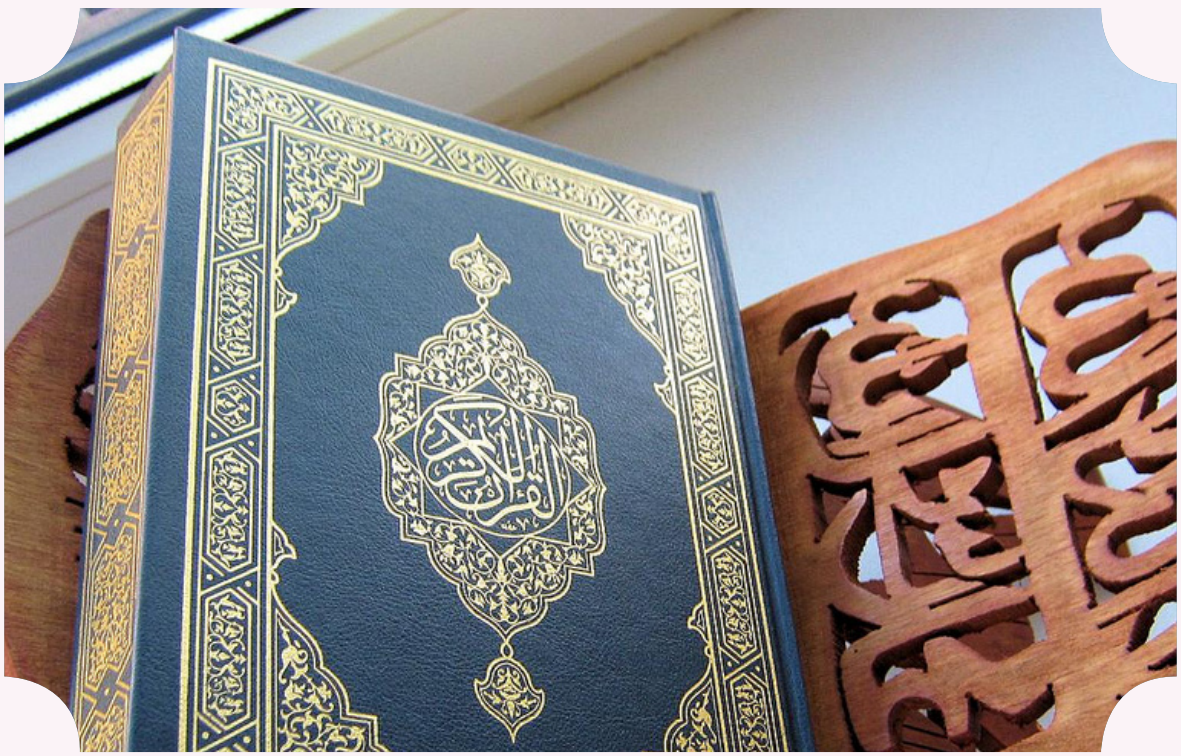

ها هو كتاب المراحل الثمان لطالب فهم القرآن، لمؤلفه د. عصام بن صالح العويد، (عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام قسم السُّنة)، يصدر بأسلوب فريد، وعرض مبتكَر، وفوائد جمَّة، ومعلومات زاخرة، جمعت أبرز ما يمكن أن يقال عن فهم القرآن، مدعَّمة بتعليقات أصيلة للأئمة السابقين من الصحابة حتى زماننا هذا. ويقع الكتاب في ١٥٠ صفحة.

وفي ما يلي عرض موجز لهذا الكتاب:

افتتح المؤلف كتابه بمقدمة وتمهيد ضافيين، سرد فيهما أوصافاً لكتاب الله - تعالى - وقارن بين مقولتين متفقتين في معناهما، على الرغم من القرون الفاصلة بينهما، وعلى الرغم من اختلاف أعراقهما؛ فالأُولَى للوليد بن المغيرة، والثانية لمستشرق فرنسي، إلا أنهما يجمع بينهما الشرك والإلحاد؛ وقد وصفا الأثر العجيب لكتاب الله في نفس السامع والقارئ.

ثم عرض الشيخ أحوال أمة محمد ﷺ مع كتاب الله

(*) عضو اللجنة العلمية بجامع البواردي بالرياض، سكرتير تحرير مجلة قراءات إفريقية.

– تعالى – وأنه ألَّف هذه الرسالة للصنف الثالث، وهم من لهم همة في فهم كتاب الله – تعالى – ولكنه يجد أنه لا زال بعيداً عن التدبر الحق لهذا الكتاب العظيم.

– ومن ضمن الأمور المهمة في المقدمة ثلاثة أسئلة:

١ – كيف فهم سلفنا هذا الكتاب المهيمن، وكيف كان حالهم بعد أن فهموه؟

٢ – لِمَ نقرأ كتب التفسير ولا ندرك المعنى العظيم لآيات القرآن؟ و (لِمَ لا نستشعر إعجاز كلام الله حال قراءتنا له، مع يقيننا التام بأنه معجز؟).

٣ – كيف يكون القرآن هادياً وفيصلاً بيننا في كل شؤوننا العقدية والتعبدية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية والسياسية والإعلامية والذاتية... ونحوها؟

أما التمهيد فعرض فيه أهمية معرفة اللسان العربي، وأن اللغة العربية تتكون من حروفِ معانٍ وحروفِ مبانٍ، وهو ما فصَّله في المرحلة الثالثة؛ وذلك أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين.

وأهم ما عرض له في التمهيد هو النتيجة والمحصلة لمراجعة هذه المراحل وإدامة النظر في كُتُبها، وهي أن الإنسان سيدرأ عن نفسه وصمتين:

١ – الاستهانة بكلام السلف في التفسير؛ لأنه سيدرك حينها أن العطب في فهمه لا في كلامهم.

٢ – الفهم الناقص لكلامهم الذي اضطر بعضَ الناس ممن يعظم السلف أن يدافع دفاعاً ضعيفاً عن تفسيرهم، ولم يشعر أنه يدافع عن فهمه لا عن كلامهم.

وهذه لفتة ربما وقع فيها كثير من طلبة العلم دون أن يشعر، وعلَّتها – كما ذكر – عدم الإحاطة بكل ما قصدوه من المعاني.

عرض المراحل الثمان:

مما يلفت نظر القارئ للكتاب أن هذه المراحل ترتيبها حاسم وأَوْلوي، وليس اختيارياً، ولا يمكنك تجاوز مرحلة – إن أردت ترتيب ذهنك مع فهم كتاب الله – إلا بهذه المراحل:

المرحلة الأولى: الوقوف على الآثار الواردة عن رسول الله ﷺ ثم الصحابة وأئمة التابعين:

وقد أفاض المؤلف فيها؛ كونها تأسيسية وتأصيلية، وهي أهم المهمات في فهم كتاب الله – تعالى – ويكفي لتبيان ذلك ما نقله في حاشية الكتاب عن الشيخ صالح آل الشيخ في محاضرة له بعنوان: المنهجية في طلب العلم، وهي المنطلق للمراحل الباقية، وقد أعجبني فيها التدرج وترتيب الانتقالات حتى كأنك ترقى سلماً وأنت تقرأ، ولا سيما في نقولات السلف، كما هو منهج المؤلف في جميع الكتاب، ومن العناوين المهمة فيها:

– ما نُقِل عن رسول الله ﷺ هل كله صحيح؟

– تفسير التابعين، متى ننتقل إليه؟ وكيف نتعامل مع ما لم يُنقَل عنهم؟

– فصل عن أنواع التفسير الثلاثة:

١ – ما جاء في فضائل الآيات والسور.

٢ – ما ورد في أسباب النزول.

٣ – التفسير المسند عن رسول الله ﷺ وأصحابه وأئمة التابعين (التفسير المأثور).

وقد عرض التفسير بالمأثور عرضاً طيباً؛ حيث أكد على أهمية النظر في طرق روايته، وفهم درايته، وجعل آثار الرواية على نوعين، هما:

النوع الأول: آثار يراد بها إثبات عموم معناها لا دقائق

ألفاظها، وما موقف المحدِّثين من هذه الآثار، وبيَّن ما الذي سيظهر للناظر في كتب التفسير بالأثر من منهجهم؛ حيث سيجد أموراً خمسة انتهجها المحدِّثون، وأهمها وأكثرها فائدة كما أرى هو الأمر الخامس.

والنوع الثاني: آثار في التفسير يراد الاحتجاج بها أو إثبات دقائق ألفاظها.

ثم انتقل إلى النظر في فهم الدراية، وتحته مسألتان كبيرتان:

الأُولَى: أهمية الإحاطة بأقوال السلف في الآية المفسَّرة. وفيها فصل عن: كيف نجمع بين أقوال السلف المختلفة في الآية؟

والثانية: مقارنة ما ورد عن السلف من التفسير بما جاء في كتب اللغة المصححة. ومن هذه المسألة يدلف القارئ إلى

المرحلة الثانية.

المرحلة الثانية: إدراك المعنى اللغوي للكلمات الواردة في الآية، ومقارنته بما جاء عن السلف، ثم الجمع بينهما لتحديد المعنى الكامل والصحيح للكلمة نفسها:

وفيها قَسَّم كلمات القرآن إلى ثلاث مراتب، والمرتبة الثالثة ستدخل ضمناً في الأُولَى، وأجاب فيها عن سؤال مهم، وهو: كيف يصل طالب فهم كتاب الله إلى معرفة دلالة الكلمة؟

والمرحلة الثالثة: معرفة دلالة حروف المعاني التي تربط بين الكلمات:

وفيها تطرَّق إلى معرفة دلالة حروف المعاني التي تربط بين الكلمات، وضمَّن المرحلة فوائد لطيفة عن (التضمين)، وما العلاقة بينه وبين حروف المعاني؟ وما موقف علماء اللغة منه؟ وما شروط استخلاصه؟

المرحلة الرابعة: معرفة دلالة الجملة وما يتعلق بها:

وأشار فيها إلى أثر الجُمَل على إدراك المعاني وكمالها، وفيه مبحثان:

- دلالة الجملة الاسمية والفعلية مع أمثلة شيقة نافعة، ونقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية في الحاشية.

- دلالة التقديم والتأخير في الجملة: ما فائدته؟ وماذا قال الجرجاني عنه؟ ثم سرد المواضع والأمثلة، وهذه المرحلة في نظري ممتعة جداً، يتلذذ القارئ بالتجوال فيها وفي أمثلتها.

المرحلة الخامسة: فَهْم دلالة السياق (السباق واللحاق):

حيث عرض نظرة تعريفية بها، ومَنْ هم العلماء الذين تكلموا عن أهميتها؟ وذكر نقلاً رائعاً للإمام ابن القيم في بدائع الفوائد عن آية التوبة رقم (٢٤)، ثم عرض الأمثلة كما هو منهجه في كل مرحلة.

المرحلة السادسة: الإحاطة بالمقصود العام للسورة:

ما المقصود به؟ وهل هو منتشر عند السلف؟ ولماذا؟ وذكر خلاف المفسرين في موضوع السورة، وختمها بتنويهات لمن أراد أن يخوض هذا المسلك، وكيف يمكن أن نستخرج المقصود العام من السورة.

المرحلة السابعة: جَمْعُ الآيات الأخرى التي تنزلت في الموضوع نفسه من القرآن كله، ليكتمل المعنى المراد للآية:

حيث بيَّن التفسير الموضوعي؛ ما المقصود به؟ وذكر خمسة أمثلة رائعة جداً حول هذا الموضوع من أهوال يوم القيامة والجهاد ومراحله.

المرحلة الثامنة: العناية بتدوين أخبار وقصص الأئمة سلفاً وخَلَفاً مع القرآن، ثم الاستشهاد بها في محلها من التفسير:

وذكر أنها مع عظيم فائدتها إلا أنها من مُلَح التفسير لا من متينه، وهذا تنبيه مشعٌّ من أهل العلم، ولن يدركه القارئ مباشرة لو لم يذكره، وذكر فيها أمثلة عملية لتدبُّر القرآن عند السلف قديماً وحديثاً.

لفتات ختامية:

- لقد حوى الكتاب أمثلة كثيرة كنماذج للتدبر، وحوى كذلك أمثلة للتدريب الشخصي، ومن المفيد للقارئ أن يكون له وقت للتدريب الشخصي مع هذه المراحل حتى يشعر بالفائدة، ويكون تدبر القرآن عنده سليقة وله صورة أخرى أثناء قراءته؛ وهذا أمر - يعلم الله - أني شعرت به شخصياً وذهنياً، والحمد لله على توفيقه أولاً وآخراً، وجزى الله أستاذي وشيخي الفاضل

لقد حوى الكتاب أمثلة كثيرة كنماذج للتدبر، وحوى كذلك أمثلة للتدريب الشخصي، ومن المفيد للقارئ أن يكون له وقت للتدريب الشخصي مع هذه المراحل حتى يشعر بالفائدة، ويكون تدبر القرآن عنده سليقة وله صورة أخرى أثناء قراءته؛ وهذا أمر - يعلم الله - أني شعرت به شخصياً وذهنياً، والحمد لله على توفيقه أولاً وآخراً.

مؤلف الكتاب على هذا العمل الجليل النافع حقاً، وأسأل الله - تعالى - أن يجعله ذخراً له يوم يلقاه، رافعاً لدرجاته، وشافعاً له ومبعداً عن النار، وأن يجعل عملي هذا من باب الدلالة على الخير ونشر العلم النافع.

اللهم أعنا على تدبُّر كتابك، وفهم معانيه، والعمل بها، واجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وممن تاجروا معه بتلاوة كتابه آناء الليل وأطراف النهار، فشفع القرآن لهم وأبعدهم عن النار بفضل الله ورحمته وكرمه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مشروعك الرمضاني

مشعل عبد العزيز الفلاحي
Mashal001@hotmail.com

هل فكرت في مشروعك الرمضاني؟ أم لا زلت تنتظر تباريك الشهر بعد؟ وهل عزمت النية هذا العام أن تكتب لنفسك مشروعاً يعبر عن شخصيتك ويكتب عن أثرك في الأرض، أم لا زلت تائهاً لم تحدد شيئاً بعد؟

ها هو شهر رمضان؛ فهل من جديد؟ بدأت الخطوات الأولى فيه، وها هو بروحه ومشاعره وآثاره وصفاء ليله ونهاره أكبر من أن يتحدث عنه إنسان، وها أنت ما زلت حيّاً وغيرك قد رحل، ومعافىً وغيرك مريض، وحرّاً طليقاً وغيرك في غياهب السجون؛ فماذا تنتظر؟

إنني أود أن أقول لك: إنك طاقة هائلة، وقدرات مكنونة، وإرادة قوية مستكنة في نفسك، ورمضان الوقت المناسب لتفجير هذه الطاقات، وإطلاق هذه القدرات، وفسح المجال لإرادة قلبك ومشاعر حياتك أن تحلِّق بهمومك إلى المعالي.

إن رمضان فرصة قد لا تتكرر في تاريخ إنسان لكونه مرة واحدة في العام، وزمنه محدود، وروح الإنسان ومشاعره في أيامه قابلة للتحليق إلى أوسع طاقات الإنسان وقدراته، وهو كذلك أكبر من أن يُستهلَك في أعمال بسيطة، وجهود غير مرتَّبة، وأولويات غير منتظمة، ومن هنا جاء الحديث معنوناً بـ (مشروعك الرمضاني). إننا نحتاج منك إلى مشروع تقف فيه أولاً مع نفسك وترتب أولوياتك وتستعرض فيه عدداً من المشاريع الممكنة وتمايز بينها على قدر حجمها وأثرها على نفسك وواقعك، ثم تختار مشروعك الرمضاني المناسب.

إن تحديدك لمشروعك الرمضاني يجعلك ترتِّب أولوياتك في شهر رمضان وتستنفر كل طاقاتك لتحقيق هذا المشروع، ويجعل لك هدفاً عريضاً تسعى لتحقيقه وتشعر بعد ذلك

بأهميته.. وكم هي الأعوام التي عانقنا فيها رمضان وبكينا فيها أسفاً لفوات حظنا منه ليلة العيد؟

إن مشروعك يمكن أن يكون توبة خالصة لله - تعالى -

تُقبِل في هذا الشـــهر على إعلان عـــزِّك بالهداية، وتَمَيُّزك بالاســـتقامة، وتعلن فيهـــا أنك حر من ضغـــط الأصدقاء ورغبات الأخِلاَّء وتتجرد من كل شهواتك العارضة لتكون في هذا الشهر إنســـاناً كبيراً بهمِّه وهدفه ورسالته، وتعود أنت ذاتك مشروعاً كبيراً في مشـــروعات الأمة. وكم من إنسان ألبســـه رمضان أعظم حلل التوفيق، وأخرجه يوم العيد في أبهـــى مباهج الأفراح! ولو لم يكـــن من ذلك إلا أفراح قلبك وسموُّ روحك لكان كافياً؛ فكيف إذا علمت حديث رسولك ﷺ وهو يصف أثر توبتك علـــى ربك: «لَلَّهُ أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها؛ حتى إذا اشـــتد عليه الحر والعطـــش قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، ثم رفع رأســـه فإذا راحلته عنده عليها زاده: طعامه و شـــرابه. فالله أشـــد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده»[1].

ويمكن أن يكون مشروعك (تجديد الصلة بالله، تعالى)، فكثير من الناس يعيش شعثاً في وقته وعبادته وصلته بالله، تعالـــى؛ فليس له وِرْد محدد: مـــن صلاة أو صدقة أو قراءة قرآن أو بر وصلة ومعروف... أو له وِرْد ثابت لكنه وِرْد ضعيف لا يرتقي لمعالم الكبار، فيمكنه أن يكون مشروعه الرمضاني (توثيق الصلة بالله، تعالى) فيرتِّب قبل دخول الشـــهر وِرْداً ثابتاً في هذا المشـــروع لا يتنازل عنه في أيام وليالي شـــهر رمضان كله، وســـيجد من صفاء قلبه ورقَّة مشـــاعره وحياة روحه ما لا تسعه مشاعر إنسان.

ويمكن أن يكون مشروع الإنسان (تدبُّر كتاب الله، تعالى) والوقوف على معاني آيات هذا القرآن العظيم، والشرب من معينه الصافي؛ بحيث يجعل الإنســـان لنفسه أوقاتاً محددة لهذا المشـــروع بعد أن يحدد له كتباً من كتب التفسير تعينه على تحقيق مشروعه.

ويمكن أن يكون مشروع الإنسان (تجديد الصلة بالكتاب): فيحدد عدداً من الكتب في فنه الذي يريد أن يتخصص فيه أو مشروعِه الذي يريد أن يبنيه ويبدأ رحلة العلاقة بالكتاب من جديد، ويمكنه أن يحدد الوقت المناسب والساعات التي يود أن يمضيها في مشـــروعه حتى يقف علـــى نهايته كما أراد.

ويمكن أن يكون مشروع الإنسان (إغاثة الفقراء والأيتام والأرامل والمســـاكين) والقيام على رعايتهم في هذا الشهر، وإيصال كل صاحب فضـــل إليهم وترتيب أوضاعهم والقيام على خدمتهم.

ويمكن أن يكون مشروع الإنسان (تبني مشروعات دعوية وتربوية واجتماعية) توصل رســـالتها للناس في حُلَّة مؤثرة وتكتب بآثارها أروع أحداث ترقبها الأمة في حياة أجيالها.

ويمكن للإنسان أن يكون له أكثر من مشروع في رمضان؛ فيكون الأصل (تجديد الصلة بالله – تعالى – وتحقيق التقوى التي أشار الله – تعالى – لها في شرعية رمضان بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَـــا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِـــبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَـــى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُـــمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقـــرة: ١٨٣] ثم يمضي بعد ذلك في تحقيق أهداف أخرى تصب في ذات الهدف العام وتصنع مشـــاريع أخرى كبرى في حياة الإنسان.

إن رمضان فرصة لإحداث نقلة مشـــاعرية وجســـدية في حياتنا، ونقلة لتجريب رحلة المشـــروع وأثره في أوقاتنا، وفرصة لنقف على الفرق الكبير بين العمل العشـــوائي غير المرتب، وبين المشروع في حياة الإنسان.

وأذكِّـــر بـــأن القنـــاعـــة بالـــدون دنـــــــاءة، وأردد هنـــــــا قول القائـــل:

وتَعْظُم في عين الصغير صغارُها
وتصغر فـي عـين الكبير العظائمُ

لقد آن الوقـــت أن نخطوَ خطوات أكبر من الواقع الذي نعيشه حتى نُحْدِث الأثر الذي ننشده، وأجزم أن الوقت غير مناسب لتكرير مشاريع ميِّتة أو مستهلكة أو مشاريع تجاوزها الواقـــع ولم يعد لهـــا رصيد من التأثيـــر، أو حتى من غير المناسب أن نخوض مشاريع أقل من طاقاتنا بكثير.

وأخيراً: أذكرك – أخي – بأن (مشـــروعك الرمضاني) هو صلتك الحقيقية بشهر رمضان ودليل قدرتك على تفجير طاقاتـــك، وتحريك إرادتك وهمتك، وإطلاقك لقدراتك نحو مســـتقبلك العريض. وستأتي – إن شاء الله تعالى – اللحظة التي تقف فيها على تكبيرات المسلمين بفوات رمضان ودخول العيـــد وقد كتبتَ في تاريخ حياتك أروع الأمثلة على قدرتك على إدارة مشـــروع حياتـــك. وقد مددت فـــي خَطْو الأمة خطوات واسعة إلى الأمام.

(١) متفق عليه